

محمد أنيس (*)
ودوره في تعقيل دراسة التاريخ
بالجامعة المصرية
١٩٥٠ - ١٩٨٦

الأستاذ الدكتور عاصم الدسوقي

فى مطلع هذا العام طلبت منى مجلة « العربى » التى تصدر بالكويت اجراء حوار مع محمد أنيس ، جريا على خطة المجلة فى اجراء حوار بين جيلين مختلفين فى كافة فروع المعرفة • غير أن هذا الحوار لم يتم لأسباب خارجة عن ارادتنا ، اذ كان موجودا بدولة الامارات العربية فى رحلة من رحلات الاغتراب ، وحضر الى القاهرة فى اجازة خاطفة ، كانت أقصر من أن تساعد على اجراء مثل هذا الحوار ، خاصة وأنه كان فى عجلة من أمره • ثم سافر على أمل ان اجازة الصيف تتسع لأكثر من حوار • وما كنا ندري أن فى الصيف ستطوى صفحة الحياة ، ونلقاه مشيعين الى المثوى الأخير •

كان فى تصورى أن أحاوره فى فكرة التاريخ ومنهج البحث فيه ، واسهامه فى تنمية الوعى بالتاريخ وتعقيل دراسته بالجامعة، فضلا عن رؤيته التاريخية للمشكلات العامة • وعلى هذا سيكون حديثى عن زوايا ذلك الحوار الذى لم يتم •

(*) ولد محمد أنيس فى ١٩٢١/٨/٢١ وحصل على ليسانس التاريخ من جامعة فؤاد عام ١٩٤٣ وكان الأول على دفعته ، ثم عاد من بعثته بعد حصوله على الدكتوراه من لندن عام ١٩٥٠ •

كان يعلم أن الوصول للحقيقة التاريخية لا يتم الا بالاستناد الى الوثائق بالمعنى المصطلح عليه بين المؤرخين ، والمتمثلة فى الأوراق والمذكرات الشخصية والمراسلات الرسمية • وان استخراج المعلومات الجزئية من هذه الوثائق وربطها معا فى اطار احدى الفرضيات يصل به فى النهاية الى الحقيقة التاريخية بشأن المسألة التى يعالجها ، لأن الوثيقة فى حد ذاتها لا تصنع الحقيقة التاريخية ، وانما يصنعها عقل المؤرخ الواعى •

ومن هنا كانت كتاباته منذ فترة مبكرة • وفى عام ١٩٦٢ نشر مجموعة رسائل لمصطفى كامل خلال الفترة من يونية ١٨٩٥ وحتى فبراير ١٨٩٦ تحت عنوان : « صفحات مطوية من تاريخ الزعيم مصطفى كامل » ليعالج فترة دقيقة من اليقظة الوطنية تحت الاحتلال البريطانى برعاية الخديو عباس حلمى • وفى العام التالى مباشرة (١٩٦٣) ينشر مجموعة المراسلات السرية بين سعد زغلول وعبد الرحمن فهمى (السكرتير العام للجنة المركزية للوفد تحت عنوان : « دراسات فى وثائق ثورة ١٩١٩ » ، ليلقى الأضواء على الدور الحقيقى والمهم لعبد الرحمن فهمى فى تحريك قوى الثورة وجذب العمال الى قيادة الوفد خلال الثورة ، وليكشف بعض النقاط الغامضة فى الحركة الوطنية مثل : خروج اسماعيل صدقى ومحمود أبو النصر من الوفد ، ومقاطعة لجنة ملنر وكيف أنها نبئت من عبد الرحمن فهمى ، وحقيقة دور الأمير عمر طوسون فى الحركة الوطنية ، ودور عبد الرحمن فهمى فى صياغة الوحدة الوطنية خلال الثورة باتخاذ الكنيسة المرقسية مركزا من مراكز الثورة ، وغير ذلك من النقاط الحاسمة فى التأريخ لثورة ١٩١٩ •

وفى مطلع عام ١٩٦٧ ، وفى مناسبة مرور خمسة وعشرين عاما على حادثة ٤ فبراير ١٩٤٢ المشهورة ، كتب سلسلة من المقالات بجريدة

الأهرام فى يناير (١) ، ليحقق مسئولية الوفد فى هذا الحادث ، خاصة وأن طريقة استدعاء مصطفى النحاس لتشكيل الوزارة ، تركت ظلالاً من الشك على وطنية الوفد أمام القوى السياسية المختلفة ، كما تركت الباحثين فى حيرة من أمرهم ، موزعين بين ولاءات مختلفة • وعلى هذا ففى تحقيقه لهذه النقطة الدرامية فى تاريخ مصر اعتمد أيضاً على الوثائق ، حيث لا بديل فى نقطة خلافية كهذه وفى مقدمتها : الوثائق الألمانية والبريطانية والمصرية ومضابط مجلس الأمن لعام ١٩٤٧ ، فضلاً عن يوميات ومذكرات بعض الساسة والمطلعين على بواطن الأمور ، مثل يوميات جورج بلانكين المحرر السياسى لجريدة الديلى ميل ، والكونت شيانو وزير خارجية ايطاليا ١٩٣٩ — ١٩٤٣ ، ليرفع فى النهاية عن مصطفى النحاس اتهام العمالة لبريطانيا ، وليقول ان الحادث يجب أن يفهم فى اطار ظروف الصراع الدولى فى الحرب العالمية الثانية حول قضية الديموقراطية ، وحاجة بريطانيا الى حكومة مصرية تستند الى أكبر دعم شعبى ، ولم يكن غير الوفد بقادر على التمتع بهذا الدعم • ومن ناحية الوفد ، فقد رأى أن استمرار المبادئ الدستورية المدافع عنها بشدة ، لا يتحقق الا بهزيمة دول المحور ونصرة المبادئ الديموقراطية التى يدافع عنها الحلفاء ضد الفاشية ، ومن هنا كان قبوله للحكم بصرف النظر عن الصيغة التى تم بها •

ورغم ميل محمد أنيس المعروف للوفد كقوة سياسية شعبية ، الأمر الذى جعل البعض يفسر رأيه فى ٤ فبراير بالانتماء الحزبى ، الا انه كدارس محقق لم يتردد فى ابداء الرأى الموضوعى فى الوفد وسياسته بشكل عام • فقال : ان الوفد أكثر وطنية فى المعارضة ، وهو وان كان مكافحاً من أجل الحد من سلطة الملك الا أن ثورته لم تمتد الى

(١) نشرها فى كتاب بعنوان : ٤ فبراير ١٩٤٢ فى تاريخ مصر السياسى ، بيروت ١٩٧٢ ، والطبعة الثانية بالقاهرة ١٩٨٢ •

حد بالمطالبة بالنظام الجمهورى ، اذ كان يعتبر الملكية أمرا مسلما به منذ تكوينه • كما أنه وصف القمصان الزرقاء التى شكلها الوفد بأنها تنظيما لا يقل قبحا عن قمصان مصر الفتاة الخضراء • وهو الذى قال أيضا فى نفس هذه الدراسة أن عجز الوفد عن قيادة الحركة الوطنية بعد الحرب العالمية الثانية كان يكمن فى الأسلوب التقليدى فى الكفاح الوطنى ورفضه للمضمون الاجتماعى للثورة مما جعله متخلفا وراء الجماهير •

وفى عام ١٩٦٩ يقترب من نقطة أخرى غامضة فى تاريخ مصر المعاصرة ألا وهى حريق القاهرة فى ٢٦ يناير ١٩٥٢ • وينتهاز فرصة عثوره على وثائق جديدة ، ليعطى تفسيراً للحادث وليحدد الأطراف المسؤولة عنه • وهذه الوثائق عبارة عن مجموعة تقارير مراسل الاذاعة البريطانية فى مصر خلال المدة من ٢١/١٢/١٩٥١ حتى ١٩/٢/١٩٥٢ المودعة بمصلحة الرقابة المصرية ، وتقارير مصلحة العمل عن عمال المعسكرات البريطانية ، وتقارير وزارة الداخلية • ويصل من كل ذلك الى حصر مسئولية الحريق فى المخابرات البريطانية والقلم السياسى بوزارة الداخلية الذى كان يعمل لحساب القصر ، نافيا الشبهة عن أحمد حسين وحزب مصر الاشتراكى (٢) •

وعندما نشر فى عام ١٩٦٠ بالاشتراك مع محمد فؤاد شكرى والسيد رجب حراز كتابا يضم نصوص ووثائق مختارة فى التاريخ الحديث والمعاصر ، ليكون مقرا على طلاب الجامعة ، اختار الوثائق التى تنمى وعى الطالب بقضايا الوطن والعروبة منذ اعلان الحماية البريطانية على مصر فى عام ١٩١٤ وحتى اتفاقية تمويل السد العالى فى ١٩٥٨ مرورا بقانون تحديد الملكية الزراعية فى ١٩٥٢ ومؤتمر

(٢) نشرها فى كتاب بعنوان : حريق القاهرة ٢٦ يناير على ضوء وثائق تنشر لأول مرة ، بيروت ١٩٧٢ ، والطبعة الثانية بالقاهرة ١٩٨٢ •

ياندونج ١٩٥٥ ، وتأميم قناة السويس ١٩٥٦ وقيام الجمهورية العربية المتحدة • الخ • أقول هذا لأن الهدف من تدريس النصوص والوثائق بالجامعة هو مجرد تدريب الطالب على تحليل نص واستخراج المادة التاريخية لبناء البحث ، وبالتالي فكل الوثائق تتساوى في القيمة عند التدريس ، ولكن اختيار موضوع الوثيقة هو الذى يفرق بين أستاذ وآخر • وأعتقد أن القيمة الوطنية والعربية لدى أنيس كانت وراء اختيار وتدريس تلك الوثائق •

والحق أن هذا الاهتمام بكتابة التاريخ من خلال الوثائق كان وراء حملته المشهورة فى الصحف للاحتفاظ بوثائق الدولة وبأوراق ومذكرات السياسيين وذلك خلال عام ١٩٦٤ ، وقبوله الاشراف على مركز وثائق وتاريخ مصر المعاصر التابع للهيئة العامة للكتاب فى عام ١٩٦٧ • وهناك بذل جهدا مضنيا فى تأسيس المركز وتحديد هويته فى جمع المعلومات والوثائق وتنظيمها لتكون تحت يد الباحثين • وخلال وجوده بالمركز نشر فى أبريل ١٩٧٣ أوراق حسن نشأت باشا وكيل وزارة الأوقاف ورجل القصر فى عهد الملك فؤاد تحت عنوان : « صفحات مجهولة من التاريخ المصرى أو سنوات الصراع العنيف بين فؤاد وعباس حول العرش » ، كاشفا الدور الذى لعبه فؤاد وحسن نشأت بالاعتماد على بعض عناصر الحزب الوطنى فى الخارج ، فى ضرب محاولات عباس العودة للعرش اعتمادا على شعبيته بين المصريين •

وفى باب نقد المصادر وجه عناية خاصة لعبد الرحمن الجبرتى باعتباره مؤرخ الفترة الانتقالية بين عصر الولاة العثمانيين وعصر الحملة الفرنسية وتولى محمد على حكم مصر، وهى الفترة التى يعتبرها أستاذنا بداية مصر الحديثة • فكتب عن الجبرتى كمؤرخ ثلاثة أعمال هى : الجبرتى بين مظهر التقديس وعجائب الآثار (مجلة كلية الآداب جامعة القاهرة ، المجلد ١٨ ، الجزء الأول ، مايو ١٩٥٦ ، ومدرسة

التاريخ المصرى فى العصر العثمانى (معهد الدراسات العربية العالى ١٩٦٢ ، والجبرتى ومكانته فى مدرسة التاريخ المصرى فى العصر العثمانى (مؤتمر الجمعية التاريخية عن الجبرتى عام ١٩٧٤) •

وتدور هذه المقالات حول أهم مصادر تاريخ مصر العثمانية المعاصرة العربية منها وغير العربية ، وأسباب تدهور علم التاريخ فى العصر العثمانى ، وميزة الجبرتى عن غيره ، وكيف كان يؤلف كتبه • وهو فى هذا الاستعراض يعلم الدارس كيف يقرأ الجبرتى وعصره وعصره فى إطار نقد المصدر ، محذرا الباحث من الوقوع أسير المصدر المشهور تابعا اياه مغمض العينين • فيقول ان الجبرتى فى « مظهر التقديس » لا يلتزم تماما بموضوعية المؤرخ ، فهو لا ينظر الى الحوادث نظرة مجردة من العاطفة الدينية أو الوطنية ، اذ كان يرى كل ما هو فرنسى كريها ، ويغفل بذلك عن بعض الايجابيات • على حين أنه فى « عجائب الآثار » ينظر الى الأحداث بعين الناقد الموضوعى فليس كل ما هو غير اسلامى سيئا وليس كل حكم اسلامى طيبا •

أما دور محمد أنيس فى تنمية المنهج العلمى فى دراسة التاريخ بالجامعة فيتضح فى مجموعة محاضراته للطلاب التى نشر بعضها فى كتب على فترات لاحقة ، سواء فى تاريخ أوروبا أو فى تاريخ العرب أو فى تاريخ مصر •

والحق أن تيار الواقعية الذى فجرته ثورة يوليو ١٩٥٢ كان مسئولا عن هذه النظرة التى اكتسبها مؤرخنا الراحل • فكما حدث فى مجال السياسة والاقتصاد والاجتماع والفن والأدب ، حين انطلقت الأفكار من عقال التصور المثالى للأشياء لتضعها فى الاطار الواقعى ، وللتوارى جانبا مذهب العلم للعلم والفن للفن لتنتصر مذهب العلم للحياة والفن للحياة ، حدث نفس الشئ فى دراسة التاريخ حيث

فتح الباب لتناول موضوعات فى البحث لم تكن محل اهتمام باحث التاريخ قبل ١٩٥٢ أو لم يكن باستطاعته ذلك نظرا للمناخ العام .. من ذلك موضوعات التاريخ الاقتصادى والاجتماعى والبحث عن الطبقات وعلاقات الانتاج ، وتفسير الحركة السياسية فى ضوء الظروف الاقتصادية ، وأكثر من هذا تفسير تاريخ مصر تفسيراً اشتراكياً باعلان ميثاق العمل الوطنى ١٩٦٢ كنظرية للعمل الثورى اعتمدت الاشتراكية منهجاً ، مما تطلب تناول التاريخ والاقتصاد والاجتماع بالمنهج العلمى .

وكان محمد أنيس واعياً لهذا التيار الواقعى الجديد وفاهماً لطبيعة دراسة التاريخ قبل ١٩٥٢ حيث لاحظ أن الحركة النشطة فى دراسة التاريخ التى شهدتها مصر فى أواخر العشرينات قام بها مؤرخون أجانب برعاية القصر ، وقصد بها الدفاع عن سياسة أسرة محمد على (٣) . كما كان واعياً الى أن ظهور المدرسة الوطنية فى دراسة التاريخ منذ مطلع الثلاثينيات بعودة شفيق غربال من لندن لم يصحبه اخضاع الدراسة التاريخية لنظرية معينة فى التفسير وان كانت تعلو من شأن دور الفرد والصفوة المختارة فى الحركة التاريخية . ومون هنا فعندما أتاحت له فرصة الاشراف العلمى على الرسائل الجامعية ، عمل على توجيهها لدراسة قضايا التاريخ الاجتماعى والاقتصادى والحركة الوطنية فى مصر وفى العالم العربى بالمنهج العلمى .

على كل حال .. فى تناوله للتاريخ الأوروبى ، استخدم التفسير الاقتصادى لانتقال أوربا من فترة العصور الوسطى الى الحديثة اعتماداً على طبقة التجار (البرجوازية) التى أنشأت المدينة ، ودور

(٣) أنظر مقالته عن « الجبرتى ومكانته فى مدرسة التاريخ المصرى ، ندوة الجمعية التاريخية ١٩٧٤ ، ص ٩٨ » .

هذه الطبقة فى اقامة الدولة الحديثة بالقضاء على الاقطاعيات ثم الانطلاق خارج القارة من أجل توسيع مجال التجارة ، وومن هنا الاصطدام بمسلمى الأندلس وبدء حركة الكشف (٤) .

وعندما نشر مجموعة محاضراته عن تاريخ أوروبا بين الحربين العالميتين فى عام ١٩٧٨ ، نراه يفرد ثلث الكتاب عن نشأة الاتحاد السوفيتى ومظاهر قوته (ص ١٠٠ - ١٥٢) ، وكيفية بناء الدولة الجديدة بالصيغة الاشتراكية بعد القضاء على المشروعات الصناعية الخاصة وعلى طبقة الكولاك ، مستعرضا دساتير الحكومة فى أعوام ١٩١٨ ، ١٩٢٣ ، ١٩٣٦ . الخ ، يقول هذا فى وقت كان الكثيرون يراجعون أفكارهم ومحاضراتهم لتتمشى مع التوجه الجديد للدولة نحو الغرب الرأسمالى .

وفيما يتعلق بتاريخ العرب الحديث ، فقد اهتم فى كتابه (الدولة العثمانية والمشرق العربى ١٥١٤ - ١٩١٤ بفترة الحكم العثمانى المباشر ، ثم خضوع المنطقة للاستعمار الغربى ، ثم قيام الحركة القومية التحررية . وكان مقتنعا - بعكس غيره - بمسئولية الحكم العثمانى عن تخلف العالم العربى ، مما دعاه الى البحث فى أصول الدولة وخصائصها وصفات الهيئة الحاكمة فيها بما يفيد مسئولية كل ذلك عن التخلف . فهى دولة قامت على خليط من الأجناس والعقائد المختلفة ، يحكمها عنصر التحفظ الجامد كظاهرة من ظواهر الجماعات البدائية ، وعنصر النظام الدينى الاجتماعى الذى تجمد بمرور الزمن ، مما جعلها فى النهاية تقاوم كل الحركات التقدمية والاستقلالية .

(٤) أنظر كتاب : النهضة الأوروبية فى أواخر العصور الوسطى بالاشتراك مع سعيد عاشور ، أوروبا فى العصور الحديثة من النهضة الايطالية حتى الثورة الفرنسية بالاشتراك مع محمد فؤاد شكرى .

أما فيما يتعلق بتاريخ مصر الحديث والمعاصر ، وهو الموضوع الأكثر لديه والذي كان يعشق تدريسه ، فيذكر له فضل الريادة كأستاذ بالجامعة لتقديم أول دراسة عن تطور المجتمع المصرى من الاقطاع الى الاشتراكية ألقاها أولا على الدارسين بالمعهد العالى للدراسات الاشتراكية فى عام ١٩٦٥ (٥) . وفى الندوة التى نظمتها الجمعية المصرية للدراسات التاريخية فى أواخر نوفمبر وأوائل ديسمبر ١٩٦٥ تحت عنوان : إعادة كتابة التاريخ القومى سياسيا واقتصاديا وثقافيا واجتماعيا ، نجده يقول : ان التغير الذى يحدث فى المجتمع المصرى الراهن مشيرا الى التحول الاشتراكى ، لا يقتصر على الوقت الحاضر ولبناء المستقبل فقط ولكنه بالضرورة وحتما لابد أن ينسحب على النظرة الى الماضى .. أى كتابة تاريخ مصر بالمنهج العلمى ، لأن ماكتب يكاد يقتصر على تاريخ الدولة فى مصر لا تاريخ الشعب ، وتنقصه الخلفية المادية التى تعطى الحركة السياسية مفهومها . وعندما قيل فى الندوة : اننا لا نود الانسياق وراء تعبيرات حديثة ومفاهيم خاصة بأوروبا ونطبقها بعنف على تاريخ مصر .. قال أنيس ان مصر شهدت اقطاعا وان اختلف فى بعض السمات عن الاقطاع الأوروبى ، لأن علاقة الفلاح بالقطاعى أو بالسيد (اللورد) هى علاقة تبعية ، وهذه تشترك فيها أوروبا مع مصر . لقد كان أنيس فى رده هذا مؤمنا فى قرارة نفسه بعدم وجود اقطاع فى مصر بالمعنى الاصطلاحي الأوروبى ، لكنه كان يواجه دعوة مستترة لعدم استخدام المنهج العلمى فى تفسير التاريخ .

وعندما أعاد طبع محاضراته فى تاريخ مصر من الاقطاع الى

(٥) نشرت على حلقات فى مجلة الكاتب خلال عام ١٩٦٦ ، ثم فى كتاب مستقل بعنوان : التطور السياسى للمجتمع المصرى الحديث ١٩٦٨ ، ثم كجزء من كتاب : ثورة ٢٣ يوليو وجذورها التاريخية ، ١٩٦٩ بالاشتراك مع السيد رجب حراز .

الاشتراكية فى عام ١٩٨٥ ، تلفت حوله فوجد أن الزمن قد تغير وأن التجربة الاشتراكية قد وئدت ، وان أحلامه وأحلام جيله من المثقفين فى العدل الاجتماعى قد انهارت ، آثر أن يكون العنوان : تطور المجتمع المصرى من الاقطاع الى ثورة يوليو ١٩٥٢ •

وغنى عن البيان ، أن مثل هذه الدراسات قد ألهمت جيلا جديدا من الباحثين فى كتابة التاريخ بالمنهج العلمى ، وهو ذلك الجيل الذى وقف على رأس الجسر بعد أن حفر تيار الواقعية مجراه فى المجتمع المصرى بكل رسوخ وعمق ، وهذا — فى تقديرى — هو الاسهام الحقيقى الباقى لمؤرخنا الراحل •

* * *

أيها السادة ••

كان محمد أنيس يدرك أن مهمة الأستاذ الجامعى تتجاوز قاعات الدرس الى المشاركة فى القضايا العامة بالقلم والكلمة لتتوير رأى العام • ومن هنا كتب فى عام ١٩٥٧ وفى مناسبة حضور مصر مؤتمر باندونج ١٩٥٥ كتابا بعنوان : المؤتمر الآسيوى الأفريقى ، ليفسر للجيل أسباب انتهاج مصر لسياسة حياد الايجابى كنتيجة تاريخية للتجارب السياسية ، وانه ليس انحيازا للاتحاد السوفييتى كما فسرتة دوائر الغرب • ويكتب فى عام ١٩٥٨ ، بمناسبة الوحدة المصرية السورية ، كتابا بعنوان : دراسة القومية العربية من الناحيتين النظرية والتاريخية ، مؤمنا بأن الوحدة العربية طريقا للتحرر السياسى والعدل الاجتماعى • ويشارك فى ندوة ناجى الثقافية التى كانت تعقد كل اثنين بدار المعلمين بالدقى فى كل قضايا الفكر والثقافة مع نخبة متميزة من أعلام المعرفة فى مصر ، الى أن انفرط عقدها فى أعقاب يونية ١٩٦٧ • ويكتب فى الصحف والمجلات عندما تفرض المسائل نفسها وليس من باب الاحتراف • وينزل الى الشارع ليجمع وقائع التاريخ

الحي مع عدد من باحثي مركز وثائق وتاريخ مصر ، في مدن القنال
وغيرها في أعقاب يونيه ١٩٦٧ ، وأكتوبر ١٩٧٣ ، وتسجيل
شهادات الأحياء •

ولكن •• عندما كانت تحاصره الهموم ويشعر بالضيق داخل
الوطن كان يرحل ليعود مسرعا أشد قلقا وأكثر حيرة • وهكذا سافر في
أوقات عصيبة الى الجزائر عام ١٩٧٠ والى العراق عام ١٩٧٤ والى
اليمن عام ١٩٧٩ ، ثم كانت رحلته الأخيرة الى أبو ظبي بالامارات
بـالخليج •

سيداتى وسادتى ••

انه لمن المحزن حقا أن يمضى المثقف فى بلدنا مهموما مكتئبا بعد
سلسلة من الاحباطات تشيعه نظرات الأسى •

لكن ••

الذى مات نجا ، والذى لا زال ، لا زال يموت •

محمد عبد الله عنان •• والجنة الغاربة

دكتور/ عبادة عبد الرحمن كحيلة

مدرس بكلية الآداب جامعة القاهرة

فى سنة ١٤٩٢ كانت زفرات الملك الصغير (١) علامة فارقة على خريطة الأندلس ، وفى سنة ١٨٩٦ كان ميلاد محمد عبد الله عنان علامة فارقة أخرى على هذه الخريطة •

حول هذا التاريخ — قبيله وبعيده — خرج الى الدنيا جيل عظيم من المصريين ، هم من ندعوهم بجيل الرواد ، وكان عنان أحدهم •

ولد محمد بن عبد الله بن عبد المطلب بن عرفة العنسانى المعروف بمحمد عبد الله عنان بقرية بشلا من أعمال ميت غمر بمديرية الدقهلية فى السابع من يوليو من عام ١٨٩٦ •

حصل على البكالوريا من المدرسة الخديوية بالقاهرة فى عام ١٩١٤ ، كما حصل على الاجازة من مدرسة الحقوق السلطانية فى عام ١٩١٨ •

(١) أبو عبد الله محمد (الحادى عشر) ١٤٨٢/٨٨٧ — ١٤٩٢/٨٩٧ آخر ملوك غرناطة ويدعوه الأسبان بـ Boabdil وبالمك الصغير El Rey Chico وورد فى المصادر القشتالية المعاصرة أنه عند رحيله مفارقا غرناطة بعد تسليمها توقف عند ربوة تطل على المدينة وأجهش بالبكاء وقد أطلق الأسبان على هذه الربوة El último suspiro أى زفرة المسلم الأخيرة • Gespmore

عمل محاميا وعمل أيضا بالصحافة والصحافة الأدبية الى أن التحق بالوظيفة الحكومية فى عام ١٩٣٥ ، وظل بها الى أن أحيل الى المعاش فى عام ١٩٥٥ .

تزوج فى عام ١٩٣٠ آنسة نمساوية فاضلة تدعى يوهانا ، أسلمت بعد سبع سنوات وصار اسمها هناء ، وكانت هذه السيدة خير عون لزوجها فى رحلة حياته (٢) .

نشر الأستاذ عنان نحو ثلاثين كتابا فى مجالات مختلفة ، أخصها التاريخ ، وتاريخ الأندلس ، وترجم له كتابان الى اللغة الانجليزية فى بلاد الهند (٣) ، كما حاضر فى بعض المراكز العلمية بالخارج ، مثل مدرسة الدراسات الشرقية بلندن .

حصل الأستاذ عنان على جائزة الدولة التقديرية فى العلوم الاجتماعية فى عام ١٩٧٧ ، وحصل على وسام الجمهورية من الطبقة الأولى فى عام ١٩٧٨ ، ووسام الكفاءة الفكرية من الملك الحسن فى عام ١٩٨١ ، واختير عضوا بمجمع اللغة العربية ونادى القلم الدولى .

توفاه الله فى العشرين من يناير ١٩٨٦ .

حياته فى ظاهرها منبسطة لاتوجد بها نتوءات الا فى أوائلها، ففي سنة ١٩٢١ كان أحد أربعة هم مؤسسو الحزب الاشتراكى المصرى ، سلامة موسى ، محمود حسنى العرابى ، على العنانى ، محمد عبد الله عنان .

(٢) معلوماتنا عن حياة الأستاذ عثمان الخاصة مستقاة من حديث لنا مع السيدة الفاضلة حرمه .

(٣) مواقف حاسمة فى تاريخ الاسلام Decisive moments in the history of Islam Lahore 1941 . وترجم أيضا الى الأوردية .
Ibn Khaldun. his life and works, Lahore

ابن خلدون ، حياته وتراثه الفكرى

عندما اختلف أمر هذا الحزب باختلاف زعمائه حول الموقف من
الدولية الثالثة ، وما أعقب ذلك من ضربات وجهت اليه من قبل الحكومة
الوطنية الأولى ، ترك عنان الحزب الاشتراكي ^(٤) ولم يلتحق بأى
من الأحزاب المصرية الناشئة ، وان كان يميل أحيانا الى حزب
الأحرار الدستوريين ، خصوصا وقد جمعتة صداقة بالدكتور محمد
حسين هيكل (ت ١٩٥٦) الذى قدم لبعض كتبه ^(٥) فداوم على الكتابة
فى السياسة والسياسة الأسبوعية واشترك مع هيكل والمازنى ^(٦)
(ت ١٩٤٩) فى نشر كتاب ^(٧) يهاجم صدقى باشا وحكومته فى
عام ١٩٣١ .

انصرف عنان انصرافا تاما عن السياسة ، عقب التحاقه بالوظيفة
فى عام ١٩٣٥ ، وفى العام التالى عقدت معاهدة تلتها حرب كبرى ،
أسفرت عن هدوء نسبى فى الساحة الوطنية .

(٢)

يمثل الأستاذ عنان جيله على نحو دقيق ، فقد كان موسوعيا ،
له دراسات ثرة فى التاريخ والأدب والسياسة والاجتماع ، كما
اكتملت لديه أدواته ، فكان يجيد الانجليزية والفرنسية والألمانية

(٤) راجع مكتبه اليساريون بهذا الشأن ، خصوصا رفعت السعيد :
تاريخ الحركة الاشتراكية فى مصر ١٩٠٠ — ١٩٢٥ . ط ٥ . القاهرة ،
دار الثقافة الجديدة ١٩٨٠ ص ١٢٣ — ١٢٥ ، ٢١١ — ٢٩٦ .

(٥) مثل ديوان التحقيق والمحاکمات الكبرى ط ١ . القاهرة لجنة
التأليف والترجمة والنشر ١٩٣٠ .

(٦) ابراهيم عبد القادر المازنى كاتب وشاعر مصرى معروف
١٨٨٩ — ١٩٤٩ .

(٧) السياسة المصرية والانقلاب الدستورى .

والأسبانية ، وكان على دراية باللاتينية ، وأخرج أحد كتبه وهو مأساة مايرلنج بالعربية ^(٨) والانجليزية ^(٩) .

شارك عنان هذا الجيل فى خصيصة أخرى هامة ، وهى أنه لعب دورا تنويريا ، فهو رائد من رواد الفكر الاشتراكي فى مصر ، ولم يقصر همه على الترويج للمدرسة الفابية ، مثلما فعل سلامة موسى (ت ١٩٥٨) ، انما عرف بمختلف المدارس الاشتراكية ، حتى بعد أن فارق الحزب الاشتراكي ، وله أكثر من كتاب فى هذا المجال ^(١٠) .

على أن عنانا كان يفترق عن أبناء جيله ، أو كثرة أبناء جيله بنزوعه الى الرحلة ، ومفتاح شخصيته — اذا نحن استعرنا تعبير العقاد (ت ١٩٦٤) — هو أنه رحالة ، وقد داوم الرحلة ، حتى أعوام قليلة من نهاية رحلته الكبرى — رحلة حياته — وسفرائه يصعب علينا احصاؤها ، وليست الأندلس سوى جزيرة ، كان هو أول الواصلين اليها .

ومزية الرحالة عن غيره من المسافرين ، أنه يلاحظ مالا يلاحظه هؤلاء ، وتستوقفه أشياء لا تستوقفهم ، وتستبد به رغبة حميمة نحو اقتحام المجهول ، وتقصيه الى أبعد أطرافه . وقد يكون هذا المجهول مخطوطة عربية أو غير عربية فى خزانة كتب بعيدة عن متناول الناس ، أو واقعة تاريخية ، يلفها سياج سميك من الغموض ، أو مذهب اجتماعي جديد لم يكن ليحفل به أحد ^(١١) ، أو جزيرة نائية فى بحر الظلمات،

(٨) دار المعارف ١٩٤٨ .

(٩) The Trajedy of meyerling 1945.

(١٠) من أهمها المذاهب الاجتماعية الحديثة ط ه القاهرة دار الشروق ١٩٧٣ .

(١١) ترجم الأستاذ عنان أطروحة طه حسين لدرجة الدكتوراه باسم « فلسفة ابن خلدون الاجتماعية ، تحليل ونقد » ونشرها فى عام ١٩٢٥ .

معلومات الناس عنها سيما فى شرقنا العربى ، لاتزيد عن حفنة
من أشعار ، وحفنة أخرى من أشجان ، من حيث كونها جنة غاربة •

وضح هذا النزوع فى كتابات عنان الأولى •

يقول فى مقدمة كتابه تاريخ الجمعيات السرية والحركات
الهدامة (١٢) •

« ولم أقصد بكتابة هذه الفصول أن أثير طلعة القارىء بما
تضمنت من حقائق وبيانات مدهشة ، ولكنى أردت — كما أردت
باخراج كتابى قضايا التاريخ الكبرى — أن أقدم الى الآداب
العربية صنفا محدثا من المباحث التاريخية ، يقف منه شبابنا المفكر على
ناحية من نواحي التاريخ الاجتماعى والتفكير البشرى ، لم يعن به
حتى اليوم أحد من كتاب العربية » •

تتعدد موضوعات الكتاب من شيعة اسماعيلية ودروز وفرسان
المعبد والألبين والماسونية الى العدمية والفوضوية والماركسية •

على أن هذه الرغبة فى اقتحام المجهول ، كان يرافقها فى الوقت
نفسه ثقافة قانونية ، بل وممارسة فى مجال القانون امتدت الى عام
١٩٣٥ ، يسرت لمؤرخنا خصيصة أخرى هامة ، وهى التحقق وتقصى
الأدلة والمقارنة ، قبل أن يصدر حكما ما ، وهى صفة لازمة لرجل
القانون ، مثلما هى لازمة للمؤرخ •

عندما نراجع كتبه ، نجد بعضها يجمع بين كونه تحليلا لقضايا
هامة ، وبين كونه تحليلا لأحداث هامة ، مثل كتابة ديوان التحقيق
وكتابه تاريخ المؤامرات السياسية •

(١٢) القاهرة ، دار الهلال ١٩٢٦ ص ٥ •

(١٣) كاتب ومؤرخ مصرى معروف ، ١٨٩٧ — ١٩٨١ •

والكتاب الأخير عرض شائق لبعض هذه المؤامرات ، يناقشها المؤلف فى جوانبها التاريخية والقانونية ، ويخرج بأن المؤامرة ظاهرة تنمو طرديا مع تقييد الحريات •

(٣)

نشر الأستاذ عنان عدة من الكتب ، كان يضع خلالها قدما فى الأدب وقدما أخرى فى التاريخ ، شأنه فى هذا شأن الأستاذ على أدهم (١٣) (ت ١٩٨١) فى صورته التاريخية والأستاذ حسين مؤنس فى كتبه وكتابه •

وفى عام ١٩٤٤ أصدر الأستاذ عنان « المأسى والصور والغوامض » وهو مجموع من الصور التاريخية الشائقة ، تحرى المؤلف معها أن تكون الشخصيات جميعها حقيقية والأحداث موثقة ، رغمًا عما نصادفه فيها من غرابة لا تتوافر إلا فى الفن القصصى ، وأسلوب المؤلف هنا دفاق جميل • ومن أطف ما فيه الكتاب عرضه لحياة لوكريسيا بوجيا (١٤) ، فبدت لنا هذه الحسناء مختلفة عما نعرفه عنها ، وعرضه لحياة القيصة اليزابت هابسبورج (١٥) وهو نواة رائعته مأساة مايرلنج •

والمأساة تحكى قصة حب انتهت بموت الأمير رودلف ولى عهد أبويه القيصر فرانس يوسيف ١٨٤٨-١٩١٦ ومارى فتشيرا Vetsera والقصة موثقة بمراجع عديدة ، وقد سافر المؤلف الى موقع الأحداث هرتين وزار قبر الأمير ، كما زار قبر حبيبته •

فى أسلوب شاعرى جميل يقول المؤلف (١٦) •

(١٤) ص ٩ - ٤١ •

(١٥) ص ٢٠٧ - ٢١٧ •

(١٦) مأساة مايرلنج : ص ٦٤ •

« ولقد جنبنا هذه الأرجاء غير مرة أيام الخريف المشرقة ،
ونعمنا باستجلاء هذه الطبيعة الساحرة ، وزرنا قصر مايرلنج ، أو
بعبارة أخرى البناء الذى أقيم فوق موقع قصر الصيد القديم ،
فى منحدر نضر من الوادى ، يخفيه عن الأنظار البعيدة ، ووقفنا
خاشعين أمام الكنيسة التى أقيمت فوق المكان ، الذى وقعت فيه
المأساة ، واستعرضنا مع الراهبة التى جاءت لاستقبالنا تلك الذكريات
المؤثرة التى مازالت تغمر هاته الأنحاء » •

الى جانب هذه الصور التاريخية ، فان لمؤرخنا مجموعة من
التراجم ، ضمنها بعض كتبه ، مثل تراجم اسلامية شرقية وأندلسية ،
أو اختص الترجمة الواحدة بمؤلف مستقل مثل ابن خلدون وابن
الخطيب والحاكم بأمر الله •

ويلاحظ على عنان فى تراجمه أنه كان يهتم بشخصيات غامضة أو
مختلف فى أمرها ، أوليست لدينا معرفة واسعة عنها ، مثل الحسن
الوزان وهوليو الأفريقى Leo Africanus (١٧) وهارون الرشيد (١٨)
الذى يعرض عنه صورة صحيحة بعيدة عن الصورة المعروفة عند
العامة ، وست الملك (١٩) التى ينصفها ويبين أثرها فى حفظ البيت
الذى تنتمى اليه ، وهو يقارن بين سيرة بهاء الدين قراقوش (٢٠) فى
التاريخ وبين سيرته فى القصص الشعبى ويوضح لماذا تباينت
السيرتان ، وهو فى هذا الابان يستريب فى نسبة كتاب الغاشوش
الى ابن ممتى •

ومن تراجمه المتمعة ترجمته للسان الدين بن الخطيب
(ت ٧٧٦ / ١٣٧٤) ولا نعلم أحداً سبقه الى الكتابة عن هذا العلامة ،

(١٧) ص ٣٥٤ — ٣٧٢ •

(١٨) ص ١٠ — ٣٠ •

(١٩) ٣١ — ٣٧ •

(٢٠) ٨٠ — ٨٤ •

وهو يتعرض لحياته وراثته الفكرى ككاتب وشاعر ومؤرخ وجغرافى،
ويأتى بجمال من تراجمه ووسائله وقصائده ، بل ويثبت مخطوطات
قصيرة لم يسبق نشرها •

ورغما عن حب عنان لابن الخطيب واعجابه به لدرجة أن جعله
رصيفا لابن خلدون (ت ٨٠٨/١٤٠٦) بل ويبيزه أحيانا (٢١) ، فانه فى
تحليله لشخصيته وهو تحليل متزن ، يوضح بعض صفاته ومنها الملق
ونكران الصنعية وشغفه بجمع المال وغروره ونزوعه الى الاستبداد
والحق ، لكنه يقرر أنه مات مظلوما ، فقد نسب اليه خصومه المنافسون
له تجديفا فى حق الله تعالى وفى حق نبيه الكريم (٢٢) •

يستطرد المؤرخ فيتحدث عن مصرع ابن زمرك (ت ٧٩٧/١٣٩٥)
تلميذ ابن الخطيب وربيبه وخصيمه الذى صار أكبر الساعين فى
فكته ، كما يشير الى اعادة الاعتبار الى ابن الخطيب فى وطنه غرناطة
Granada بعد خمسين عاما لمصرعه (٢٣) •

(٤)

هذا وقد اختص المؤرخ مصر بعدة من كتبه •

فى كتابه عن الحاكم بأمر الله (٣٨٦/٩٩٦ — ٤١١/١٠٢١)
يحاول أن يستجلى الغموض الذى أحاط بشخصه ، ويذهب الى أنه
كان يتتبع الدعوة الى تأليهه بعين الرضا (٢٤) ، وان كان يرى فى

(٢١) لسان الدين بن الخطيب . القاهرة ١٩٦٨ ص ٢٠٣ •

(٢٢) المرجع نفسه ص ١٦٩ — ١٧٣ •

(٢٣) المرجع نفسه ص ١٧٦ — ١٧٨ •

(٢٤) ط ٣ . القاهرة ، الخانجى ، ١٩٨٣ ص ٢٠٥ وما بعدها ،

ص ٣٠٤ •

تصرفاته التي قد تبدو شاذة ايجابيات ، تهدف الى تحقيق غايات
لاريب في حكمته وسموها (٢٥) .

وفى كتابه عن الخطط المصرية ، يتتبع هذه الخطط وأصحابها منذ
ابن عيد الحكم (ت ٢٥٧ / ٨٧١) حتى على مبارك (ت ١٣١١ / ١٨٩٣)
الى جانب بحوث فى تاريخ مصر حتى نهاية العصر العثمانى ، يتصل
معظمها بجوانب غامضة أو خلافية • ويتضح من الكتاب اعتزازه
بهذا التاريخ ، ويأسف لأن بعض مصادره مازال مخطوطا ، وهو يعد
الخطط ابتكارا مصريا خالصا ، ويعد ابن عبد الحكم منشئها
الأول (٢٦) .

وفى كتابه عن المؤرخين المصريين ، يتناول ستة عشر مؤرخا ،
ابتداء بعبد الرحمن بن عبد الحكم وانتهاء بعبد الرحمن الجبرتى
(١٢٤٠ / ١٨٢٥) ، وقد اهتم بتراث هؤلاء المؤرخين ومنهجهم فى
البحث أكثر من اهتمامه بحياتهم نفسها •

ومن أطرف مافى الكتاب مقارنته بين منهج السخاوى (ت ٩٠٢ /
١٤٤٩٦) فى تحليله لشخصياته وتصويره البارع لها ونقده اللاذع
وزهوه ، بالنقاد الفرنسى والمؤرخ سانت بيف Sainte Beuve
(ت ١٨٦٩) (٢٧) .

* * *

(٥)

إذا انتقلنا الى منهج عزان التاريخى ، نلاحظ عليه حييدته
وموضوعيته التى تعود الى فترة باكورة ، ففى عرضه لفكر الشيعة

(٢٥) المرجع نفسه ، ص ١٧٣ .

(٢٦) ط ٢ ، القاهرة ، الخانجى ١٩٦٩ ص ٣ - ٥ .

(٢٧) ط ١ . القاهرة ، الخانجى ١٩٦٩ ص ١٣٧ - ١٣٨ .

الاسماعيلية ، يراجع المصادر السنوية الخصيمة بقدر من التحفظ (٢٨) ورغما عن اختلافه مع الماركسيين ، فإنه يشيد بالثورة الاشتراكية فى روسيا ، وما حقته من انجازات ، وسط ظروف طبيعية قاسية وحملات معادية ضدها وحصار (٢٩) • وهو فى عرضه لقضية دريفوس Dreyfus ينوه بما حاق بهذا الضابط اليهودى من عنت ، ويسهب فى ذكر تفاصيل القضية (٣٠) ، التى استثمرت فيما بعد لصالح الحركة الصهيونية •

أما ديوان التحقيق ، وما أسفر عنه من ظلم فادح للمسلمين والمسلمين المنتصرين ، فإنه لا يصدر حكمه على هذا الديوان بداءة ، إنما يترك الوثائق والوثائق النصرانية وحدها تتكلم يقول (٣١) ولما كان الرواية المجردة لهذه المأساة تثير من تلقاء نفسها كثيرا من الأسى والشجن ، ففى وسع القارىء أن يقدر أثناء تلاوتها ، ما آنست فى كتابتها من بواعث الانفعال والتأثير ، غير أنى اجتنبت التعليق ما استطعت ، وتركت القول لمؤرخى الغرب أنفسهم ، معتقدا أن الوثائق تغنى عن كل تعليق » •

المؤرخ الى جانب ذلك يعنى بمصادر بحثه ، وتعقيبيها فى مظانها، ولا يدخر وسعا فى اقتنائها • وجملة ماكتبه عن المؤرخ المصرى محمد ابن أبى السرور اليكرى (٣٢) (ت ١٠٩٠ / ١٦٥٠) هو من خلال كتبه، التى مازالت مخطوطة • وهو أول من استفاد من السفر الخامس

(٢٨) تاريخ الجمعيات السرية ص ٥٦ حاشية ١ .

(٢٩) المرجع نفسه ص ٢٠٩ .

(٣٠) ديوان التحقيق ص ٥٠٤ — ٥٣٧ .

(٣١) المرجع نفسه ص ٠ م .

(٣٢) راجع فى هذا الشأن الفصل الخاص بهذا المؤرخ فى « مؤرخو مصر الاسلامية » .

لمقتبس ابن حيان (ت ٤٦٩ / ١٠٧٦) فور العثور عليه بالخزانة الملكية في الرباط (٣٣) . ومن أجل دراسة مفردات تراث ابن الخطيب ، قام برحلة خاصة الى أسبانيا وانجلترا والمغرب والجزائر ، كان من آثارها أن عثر في مكتبة الجزائر الوطنية ، على مقامة وحيدة له ، لم تكن معروفة من قبل (٣٤) وعثر في مكتبة رواق المغاربة بالأزهر ، على أوراق متناثرة من مخطوط الاحاطة ، وعلى هوامشها تأثيرات للمقرئ (ت ١٠٤١ / ١٦٣١ صاحب النفح (٣٥) ، على أن عنانا في كتبه التاريخية البحتة ، ومنها موسوعتنا الأندلسية — لم يعن على نحو واضح بالتحليل الاجتماعي في دراسة التاريخ ، وقد يكون ذلك غريبا على مؤرخنا ، لأنه كان على دراية بهذا المنهج ، بحكم ممارسته للعمل السياسي في باكر شبابه وليس لدينا غير تفسير وحيد ، هو أن هذا المنهج حديث ، ولم يتنبه اليه مؤرخونا ، الا منذ أربعين سنة ، ثم ان أدواته لم تستكمل بعد ، خصوصا فيما يختص بتاريخنا الوسيط ، ولم تتضح معالمه ، وان حاول البعض أن يتعسف مع النصوص ، ليجعلها تتسجم مع أفكاره المسبقة .

ولعنان فكرة هامة ، أدار حولها كتابه مواقف حساسة في تاريخ الاسلام ، وتتضح في موسوعته الأندلسية ، وهي فكرة الصراع بين الشرق والغرب ، أو بين الاسلام والنصرانية ، وهو يعتقد أن هذه الفكرة ويدعوها بالصليبية ، ظلت حية عبر العصور ، بما فيها عصرنا الحديث ، وهي تشتد وتضطرم كلما بدت فورة اسلامية جديدة (٣٦) .

ونسافر مع المؤرخ الى الأندلس .

(٣٣) تراجم اسلامية شرقية وأندلسية ط ٢ . القاهرة ، الخانجي ، ١٩٧ ص ٢٧٨ .

(٣٤) لسان الدين بن الخطيب ص ٥ .

(٣٥) تراجم اسلامية ص ٣٧٧ .

(٣٦) مواقف حاسمة ط ٤ . القاهرة ، الخانجي ١٩٦٢ ص ٣-٦ .

(٦)

نبه من جيل عنان اثنان من الفضلاء اقتحما بالأندلس أسوار الجامعة ، هما الأستاذ أحمد ضيف (ت ١٩٤٥) والأستاذ عبدالحميد العبادى (ت ١٩٥٧) اختص أولهما بالأدب ، واختص الآخر بالتاريخ ومع ما كان للفاضل الآخر من أياد ، حدثنا عنها بعض معاصريه ، فقد برز كمحاضر ، الا أن كتابه المجلد (٣٧) ، وصل إلينا سماعا عنه ، وبه هنات ليس هنا مجالها ، وربما كان العبادى الكبير يدخر جهده لاعداد عباديين آخرين (٣٨) كان لهما اسهامها الواضح بالشعر الاسكندرى ، واختص أحدهما بالأندلس باهتمامه •

على أن الريادة للأندلس داخل الجامعة تخطو خطوات أوسع مع أستاذين جليلين ، أحدهما وان كان مقلا مجيدا فى إنتاجه — وهو الأستاذ عبد العزيز الأهوانى (ت ١٩٨٠) فان له تلامذة على اتساع العالم العربى ومريدين ، والآخر وان كان مكثرا مجيدا فى إنتاجه — وهو الأستاذ حسين مؤنس — فلا له تلامذه ولا مريدون •

• أين مكان الأستاذ عنان من الريادة للأندلس •

ان مكان الأستاذ عنان فى تاريخ الأندلس ، هو مكان عبدالرحمن الرافعى (ت ١٩٦٦) فى تاريخ مصر الحديث (٣٩) •

(٣٧) ط ١ . القاهرة ، مكتبة النهضة المصرية ١٩٥٨ •

(٣٨) الأستاذ مصطفى عبد الحميد العبادى أستاذ التاريخ اليونانى — الرومانى بجامعة الاسكندرية والأستاذ أحمد مختار العبادى أستاذ التاريخ الاسلامى — الأندلس على نحو خاص — بجامعة الاسكندرية •

(٣٩) راجع مقالنا : عبد الرحمن الرافعى مؤرخ الحركة القومية « مجلة الفكر المعاصر عدد ٢٣ يناير ١٩٦٧ » •

فى سنة ١٩٢٤ أصدر محمد عبد الله عنان كتابا بعنوان « تاريخ العرب فى أسبانيا أو تاريخ الأندلس » (٤٠) ، على أنه يقتضـح من المقدمة أن تأليفه يعود الى خمس سنوات سابقة ، عقيب دراسته القانونية ، وهو مايتضح من المقدمة •

يقول (٤١) : ووافق استعدادى لتنظيمها واعدادها للنشر أياما تكونت فيها وحدة مصر الوطنية ، وجاشت بالقلوب آمال كبيرة •

والكتاب يتناول تاريخ العرب فى أسبانيا حتى نهاية دولة بنى حمود الادارسة فى منتصف القرن الخامس الهجرى / الحادى عشر، وفى الصفحات الأخيرة منه يأتى بطرف من النظم السياسية والادارية (يدعوها الاجتماعية) والعلمية والثقافية ، وينتهى بخاتمة ، وقد حرص بين حين وآخر على أن يؤرخ للممالك النصرانية ، المعاصرة لمملكة الاسلام ، كما كان يوثق أخباره فى أحيان كثيرة ، ويقارن بين الروايات بعضها وبعض ، وبخاصة الروايات النصرانية ، ويأتى بحواش شارحه لما يرد فى المتن •

تمضى سنوات يصدر المؤرخ خلالها مجموعة من الكتب ، يعقب بعضها بريح الأندلس ، وترجم كتاب اشباح J. Aschbach عن تاريخ الأندلس فى عصر المرابطين والموجدين (٤٢) ونشره فى عام ١٩٤٠ ، وأضاف اليه طائفة من الهوامش والتحقيقات والشروح وفهرسا للإعلام •

(٤٠) القاهرة ، مطبعة السعادة ١٩٢٤ •

(٤١) يشير ضمنا الى الثورة المصرية ١٩١٩ •

وقد سبق هذا الكتاب كتاب آخر ترجمة عنان عن الانجليزية وأصدره وهو بعد طالب بمدرسة الحقوق بعنوان تاريخ أوربا الحديث ، القاهرة مطبعة السعادة ١٩١٥ ووصف نفسه على الغلاف بأنى حقوقى وجعل إهداءه الى الأمة المصرية •

(42) Geschte Spaniens Zu Zeit der Herrschaft der Almora-
viden und Almohaden. Frankfurt am main 1833.

على أنه ابتداء من هذا العام تفرغ عنان على نحو أساس
لموسوعته العظيمة « دولة الاسلام فى الأندلس » التى بدأ فى
اخراجها فى عام ١٩٤٢ ، وجاءت فى سبعة مجلدات تضم أربعة آلاف
صفحة •

* * *

(٧)

دولة الاسلام فى الأندلس هى موسوعة عنان وعمل حياته •
أرخ خلالها لفترة من تاريخ الاسلام تمتد نحو ألف عام ، منذ قبيل
الفتح ، حتى الطرد النهائى للمسلمين فى مطلع القرن السابع عشر •
حدد عنان المنهج الذى اتبعه فى هذه الموسوعة بقوله : (٤٣)

« هذا وقد راعيت فى سائر فصول هذه القصة الأندلسية
المشجية أن أسلك سبيل التوسط المعتدل بعيدا عن الإيجاز المخل ،
بعيدا فى الوقت نفسه عن الأسباب والتفاصيل الكثيرة ، الا ما دعت
اليه المناسبات الهامة أو المواقع الحاسمة ، حريصا خلال ذلك كله •
على أن أبرز الحوادث والشخصيات والصور فى اطارها النقدى ،
الذى تدعمه الوثائق والنصوص والقرائن بعيدا كل البعد عن التأثير
بالعاطفة أو الأهواء أو الاتجاهات القومية أو الدينية من أى نوع •
وانى لأرجو أن أكون قد وفقت فى ذلك فى تأدية رسالة الحق والصدق
والاعتدال فى كتابة هذه الصفحات المشرقة المؤسسية معا من تاريخ
الأمة الأندلسية » •

ولما كان المؤرخ يكتب عن فترة طويلة حافلة ومصطخبة ، فانه
كان يقسم كل عصر الى عصور أصغر تبعا لأصحاب السيطرة ، ويتناول

(٤٣) ع ١ ق ١ ط ٤ . القاهرة ، الخانجى ، ١٩٦٩ ص ١١ •

الأحداث المتصلة بعصر الأمير أو الخليفة أو الملك ، وهى فى مجملها أحداث سياسية ، من ثورات فى الداخل وحروب فى الخارج • ثم يأتى بتحليل لشخصية هذا الأمير ، ويثنى بالحديث عن الجوانب غير السياسية ، مثل الإدارة والمال والنظام الحربى والحركة العمرانية من مساجد وقصور وغيرها، وينتهى بالأحوال الاجتماعية والثقافية وجملة من نبه فى هذا الابان ، ولا يهمل الحديث عن الممالك النصرانية فى شبه الجزيرة ، وصلات هذه الممالك بالأندلس •

على أن المؤرخ عدل فى هذه الخطبة ، فيما يختص بعصر الطوائف ، بسبب تعدد السیادات ، بتعدد الدول والدويلات وتداخل تقوااريخها ، بما يجعل عملية السرد مملة ومتكررة وقد عالج المشكلة بأن مهد لظهور الطوائف ، ثم قسم دولها الى مجموعات عربية وبربرية وصقلبية ، وكان يتتبع ممالكها مملكة مملكة منذ بدايتها حتى نهايتها على أيدي المرابطين، ثم يتناول معركة الزلاقة Sagrajas والفتح المرابطى، ويتحدث عن الممالك النصرانية خلال القرن الحادى عشر ، وينتهى بخواص عصر الطوائف السياسية والاجتماعية والحضارية ويأتى بوثائق وملحقات •

أما كتابه الآثار الأندلسية الباقية فى أسبانيا والبرتغال ، فالى جانب كونه كتابا فى الآثار ، فمن الممكن أيضا أن يدخل فى أدب الرحلات ، وأسلوب المؤلف الممتع يجعله أشبه بسياسة تاريخية ، تذكرنا بالأستاذ حسين فوزى فى سندبادياته ، ولا يصطدم القارئ معها بمصطلحات أثرية جامدة ، انما هى تتسلل برفق الى وجدانه •

والؤلف لا يكتفى بالحديث عن الآثار الأندلسية ، أى الآثار التى تعود الى فترة السيادة العربية ، انما يتطرق أيضا الى الآثار المدجنية أى الآثار التى أقامها المدجنون المسلمون للسادة الجدد ، فضلا عن اشاراته الحديثة الهامة ، ويتتبع الآثار مدينة مدينة ، ويأتى بطرف

من تاريخها الاسلامى ، بل الرومانى والقوطى ان وجد ، وما ورد بشأن
الأثر فى المصادر الأدبية النصرانية •

وجرى المؤرخ على أن يضم الى موسوعته خرائط توضيحية بل
رسوما تخطيطية للمعارك الكبيرة ، مثل الزلاقة والارك Alarcos
والعقاب Las Navas De Tolosa ومصورات لبعض أبطال
الموسوعة وآثارها ، وفى نهاية كل مجلد يأتى بكشافات للأعلام
والجماعات والأماكن ، وفهارس للكتب والأشعار والرسائل ، الى جانب
وثائق هامة ، بعضها مازال مخطوط •

* * *

(٨)

وبطبيعة الحال فقد كان على المؤرخ أن يراجع مصادر ، تبدو
أحيانا متباينة ، وقد عالج المشكلة بأنه كان يناقش الروايات
المختلفة عن الحادثة الواحدة ، ويأخذ فى المتن بما يراه صحيحا منها ،
ولا يهمل ما يراه أقل وثاقة ، فيورده بالمتن أو يضيفه الى الحواشى ،
أما الأخبار الغريبة التى يصعب تصديقها ، وان كان فى غرابتها
ما يؤيد الحادثة ، فانه يجعلها فى الحواشى •

إذا شئنا التفصيل نجد المؤرخ لا ينفاز الى الرواية العربية ،
من حيث أنها عربية ، وكثيرا ما ينتقدها بل ويرفضها ، حتى وأن كانت
الرواية النصرانية تجاريها ، فرغما عن اتفاق الروايتين فى المبالغة
من عدد القتلى النصارى فى معركة أقليش Uclés ١١٠٨/٥٠١ ،
الا انه بعد مناقشة طويلة يصل الى تقدير أقل (٤٤) ، وهو ينفى لقاء
مهدى الموحدين بالامام الغزالى (ت ١١١٢/٥٠٥) هذا اللقاء الذى

(٤٤) دولة الاسلام فى الأندلس ع ٣ ق ١ ط ١ ١٩٦٤ ص ٦٥ •

يستند اليه هؤلاء فى شرعية قيامهم على المرابطين ، ولا يأبه باتفاق المصادر المعاصرة وشبه المعاصرة على ذلك (٤٥) .

وكثيرا ما كان المؤرخ يضطر الى الاعتماد على الرواية النصرانية على نحو أساسى ، لأن الرواية العربية ضئيلة فى أحداث مثل بلاط الشهداء Tours-Poitiers (٤٦) وغزوات المسلمين فى غالة Gallia (٤٧) والمستوطنة الاسلامية فى فراكينيتوم Fraxinetum (٤٨) ويفسر اقتضاب الرواية العربية لمعركة البلاط ٧٣٢/١١٤ ببلاغة الحادثة وروعيتها ، ومثل ذلك فعله بالنسبة للقرن الأخير من تاريخ الأندلس وما تلاه .

على أن المؤرخ فى تصويره لفتنة الشهداء بقرطبة ، لا يترك الرواية النصرانية طليقة ، انما هو يحال الدوافع الى هذه الفتنة ، ويفند دعاوى سيمونيت F. J. Simonet (٤٩) وغيره من المتعصبين (٥٠) .

ومن أن المنصور العامرى (٩٧٨/٣٦٨ — ١٠٠٢/٣٩٢) لم يصادف هزيمة واحدة فى حملاته المتعددة ضد نصارى الشمال ، فان المؤرخ لا يستتكم عن الاتيان بالرواية النصرانية التى تدعى هزيمته

(٤٥) المرجع نفسه ع ٣ ق ١ ص ١٦١ .

(٤٦) المرجع نفسه ع ١ ق ١ الفصل السادس ص ٩٢ — ١١١ .

(٤٧) المرجع نفسه ع ١ ق ١ الفصل الخامس ص ٧٧ — ٩١ .

(٤٨) المرجع نفسه ع ١ ق ٢ الفصل الثالث ٤٦٤ — ٤٧٥ .

(٤٩) أنظر ما ورد بهذا الشأن فى كتابه

Historia de los Mozárades de Espana Madrid 1897

الفصول من الثالث عشر الى الحادى والعشرين .

(٥٠) دولة الاسلام فى الأندلس ع ١ ق ١ ص ٢٦٧ وما بعدها .

أو عدم ظفره في آخر معاركه سنة ٣٩١/١٠٠١ • وقد ذهب بعض المؤرخين المحدثين الى تصديق هذه الرواية ، لكن عنانا يفندها ، لأن الملوك النصرى الذين نسب اليهم اشتراكهم فى المعركة كانوا قد ماتو جميعا قبل هذه المعركة بسنوات ، ثم ان الرواية الاسلاميه لا تذكر هذه الهزيمة المدعاة للمسلمين ، فى حين ذكرت هزائم أخرى لهم (٥١) •

الى جانب ذلك ، فقد كان لثقافة المؤرخ الواسعة ، أثرها الوافر فى موسوعته ، فأفاد بمناهج علم النفس فى تحليله لشخصية المهدي ابن تومرت (ت ٥٢٤/١١٣٠) ، ويستخرج من كونه حصورا لا يأتى النساء ، مايفسر قسوته وظمأه الى سفك الدماء (٥٢) •

فى هذا الابان توصل عنان الى بعض الحقائق التى كانت محجوبة قبلا ، أو الى تدعيم لها فى حال سبق كشفها ، واذا كان ليفى بروفنسال هو أول من توصل — من خلال نص فى البيان المغرب — الى حقيقة زائدة Zaida أو سييدة Ceida حظية الفونسو السادس ملك ليون León (١٠٦٥ — ١١٠٩) وأكد أنها لم تكن ابنه المعتمد بن عباد « وانما كانت كنته ، فان عنانا يعثر على نص آخر فى المعيار المغرب يؤكد هذه الحقيقة » (٥٣) •

اعتمد المؤرخ اعتمادا فائقا على المصادر الأصلية ، وبخاصة المجموعة المعروفة بأسبانيا المقدسة España Sagrada ، وتضم حوليات هامة مثل حولية ايسيدور الباجى Isidorus Pacensus

(٥١) المرجع نفسه ١٤ ق ٢ ص ٥٦٣ — ٥٦٦ •

(٥٢) المرجع نفسه ٣٤ ق ١ ص ١٩٢ •

(٥٣) راجع مناقشة الأستاذ عنان لهذه القضية فى المرجع نفسه ٢٤ ص ٣٤٥ — ٣٤٨ •

وحولية روردريك الطليطلى Rudericus Toletanus وحولية
الفونسو العالم El Sabío ، كما كان له ولع خاص
بالوثائق المعاصرة مثل الوثائق العربية والمستعربية والمدجنية
والقشتالية ، وغيرها من الوثائق المبثوثة فى دور المحفوظات
العامة بمجريط Madrid وثنت منكنش Simancas وبرشالونة
Barcelona وبلنسية Valencia وغرناطة وبنبلونة Pamplona
وسرقطة Zaragoza وخزائن الكتب فى الاسكوريال Escorial
والفاتيكان والمعهد المصرى للدراسات الاسلامية والقرويين والرباط
وغیرها •

أما عن المصادر العربية ، فقد كان يتعقبها مخطوطة ومنشورة ،
وربما كان عنان هو أول من نوه من المحدثين بالمؤرخ الكبير أبى مروان
ابن حيان ومقتبسه ، وقد تعقب أسفاره فى بقاع شتى ، وانتفع
بقسم من السفر الثانى كان فى حوزة ليفى بروفنسال وضاع بعد ،
وما يرد عند عنان بخصوص هذا القسم هو مصدرنا الوحيد حتى
الآن • ومن نقوله الهامة عند كتاب الحكم (۱۸۰/۷۹۶ - ۲۰۶/
۸۲۲) الى الكور بخصوص ثورة الربض^(۵۴) ، وكذا كتاب عبد الرحمن
الأوسط (۲۰۶/۸۲۲ - ۲۳۸/۸۵۲) الى ملك الروم مع الشاعر
الغزال (ت ۲۵۰/۸۶۴) وتفاصيل السفارة^(۵۵) •

ومن المؤرخين المحدثين عاود مؤرخنا دوزى R. Dozy
وليفى بروفنسال ومنديث بيدال R. Menedez Pidal وسيمونيت
ويبير J. Ribera وجونثال بالنشيا A. Conzález Palencia
وكوديره F. Codera وغيرهم يل انه يعاود كوندى J. A. Conde

(۵۴) المرجع نفسه ۱ع ق ۱ ص ۱۰۳ - ۱۰۴ •

(۵۵) المرجع نفسه ۱ع ق ۱ ص ۱۶۱ - ۱۶۳ •

الذى حظى بنقد لاذع من لاحقيه ^(٥٦) ويقرر رمزية هذا المؤرخ فى كونه أول جهد غربى يعتمد على مصادر عربية أبدى خلالها قدرا كبيرا من الحماسة للعرب والاشادة بهم ، ويصدر فى بعض المواطن أحكاما قاسية على أمتة ومواطنيه ، وبخاصة سياستهم بعد سقوط غرناطة ^(٥٧)

الى جانب هذه المصادر ، فقد توافر لمؤرخنا مصدر آخر ، وهو رحلاته العديدة الى مسرح الأحداث ، وهو يتأمل الصخرة المنيعه فى كوفادونجا Coca Donga هذه الصخرة التى تكسر عندها المد الاسلامى الأول ^(٥٨) ، ويزور شنت ياقب Santiago de Compo stela ويتنفس الجو المشبع بالجلال والوقار ^(٥٩) ، ويتملى أطلال الزهراء ^(٦٠) ويتحسر على البقية المشوهة من قصر الجعفرية فى سرقسطة ^(٦١) ، ويترجم على المعتمد فى مثواه بأغامت ^(٦٢) ويحج الى مكة المهدى فى تينمل ^(٦٣) ، ويعيش الهزيمة المروعة فى العقاب ، ويعثر على سهام خلفها أبناء قومه وراءهم ^(٦٤) أما مملكة غرناطة القديمة فقد كتب يقول : ^(٦٥)

(٥٦) راجع ماكتبه دوزى عن كوندى فى مقدمة كتابه

Spanish Islam, A History of the Moslems in Spain. Trans. by F. G. Stokes. London, Cass 1972 p. XXXV.

(٥٧) دولة الاسلام فى الأندلس ع ٤ ص ٥٠٦ ، وانظر أيضا مواقف حاسية ص ٣٣٢ .

(٥٨) دولة الاسلام فى الأندلس ع ١ ق ١ ص ٢١١ .

(٥٩) المرجع نفسه ع ١ ق ١ ص ٢٢١ .

(٦٠) المرجع نفسه ع ١ ق ٢ ص ٤٢٢ .

(٦١) المرجع نفسه ع ٢ ص ٢٨٣ .

(٦٢) المرجع نفسه ع ٢ ص ٣٦٣ — ٣٦٤ .

(٦٣) المرجع نفسه ع ٣ ق ١ ص ٤ .

(٦٤) المرجع نفسه ع ٣ ق ٢ ص ٣٠١ — ٣٠٢ .

(٦٥) المرجع نفسه ع ٤ القاهرة ط ٣ ، الخانجى ١٩٦٦ ص ٨ .

« ولقد كان لهذا التجوال المستفيض فى مواطن الأحداث ، وهذه المشاهدات العديدة للديار والربوع أعمق الأثر فى نفسى وفى ذهنى وفى تكييف قلمى ، حتى لقد كنت أشعر حين تدوين الحوادث وأمام مخيلتى تلك الأماكن والمشاهد ، أننى كأنما قد عشت فى تلك الأيام وفى تلك الربوع ، وبين أولئك الناس أبطال المأساة ، الذين أتتبع سيرهم ومصائرهم » •

* * *

(٩)

إذا نحن نتبعنا المؤرخ فى هوسوعته ، نجده يتعاطف مع الأندلسيين ، بل ينحاز إليهم فى تحليله لشخصية عبدالرحمن الداخل (٧٥٥/١٣٨ — ٧٨٨/١٧٢) يصفه بالميكافيلية ، الا أنه يتلمس الذرائع له (٦٦) ، بل ويتلمسها للمنصور بن أبى عامر لدى قتله ولده ، ويقرر أن هذا الولد لم يكن ليتورع عن قتل أبيه فى حال نجاح مسعاه (٦٧) ، ويقول : (٦٨) لعل الاسلام فى شبه الجزيرة الأسبانية ، لم يظفر قط بمجاهد فى بطولة المنصور وتفانيه فى الذود عن دينه واعلاء كلمته ، ولعل الأندلس لم تر قط مثل المنصور ، زعيما أخلص فى خدمتها وكرس جهوده ومواهبه فى بناء قوتها وعظمتها وسحق عدوها وتحقيق أمنها ورخائها » •

عندما يقع الصدام بين الأندلسيين المرابطين ، يوالى الأندلسيين ، ويقسو على يوسف بن تاشفين (١٠٦٩/٤٦٢ — ١١٠٦/٥٠٠)

(٦٦) المرجع نفسه ١٤ م ١ ص ١٩٤ .

(٦٧) المرجع نفسه ١٤ م ٢ ص ٤٥٠ ، ٥٥٠ — ٥٥١ .

(٦٨) المرجع نفسه ١٤ م ٢ ص ٥٦٩ .

لقسوته عليهم ، ورغما عما قيل من اتصال المعتمد (٤٦١ / ١٠٦٩ — ٤٨٤ / ١٠٩١) بالنصارى فانه يدافع عنه ، وينوه بدعوته الى الوحدة بين المسلمين بعد سقوط طليطلة ، وينوه أيضا ببسالته فى الزلافة، ويشير الى أن بواعث اقتحام المرابطين لشبه الجزيرة لم تكن دينية فقط ، وانما كانت دنيوية قبل كل شيء ، ويتساءل عن ضرورة أن يبطش المرابطون بأمراء الأندلس ، هذه البطشة ، ويعامل المعتمد وأسرتة هذه المعاملة ، وكان يكفى فى حال عقابه أن ينتزع من ملكه ويعتقل (٦٩) .

هذا كله فى عبارة أدبية راقية ، تذكرنا بويلز وماكولى وجبون، بحيث يمكن أن نتعامل مع الموسوعة الأندلسية ، على أنها رواية أو دراما روائية ، عقدتها الصراع الدائم والدائب بين أسبانيا النصرانية وبين أسبانيا الاسلامية ، ذلك الصراع الذى يدعوه الأسبان بالاسترداد ولحظة التتوير هى النهاية الحزينة ، بطرد العرب من أسبانيا لكن عنانا يدنى من قساوة هذه النهاية بما شنه الأندلسيون المطرودون من حرب مضادة مع الأخوين عروج وخير الدين المعروف بذى اللحية الحمراء Barbarosa (٧٠) كما يدنى من حدة هذه النهاية أيضا بما خلفه المسلمون وراءهم من آثار باقية فى أسبانيا والبرتغال ، تعطى الاحساس بتواصل تاريخهم عبر الزمان .

* * *

(١٠)

فى عمل عملاق محلق ومحقق يكون من الطبيعى أن تقع هنات ،

(٦٩) المرجع نفسه ع ٢ ص ٣٦٥ ، وانظر أيضا تراجم اسلامية ص ٢٢٣ و ٢٢٤ .

(٧٠) راجع ماورد بشأن جهاد الأندلسيين والأخوين برباروسا المرجع نفسه ع ٤ الفصل الأول من الكتاب الرابع ٣٧٨ — ٣٩٢ .

لا تنقص بحال من روعته ، فالمؤرخ يصدق رواية ابن خلدون (٧١) عن عزم موسى بن نصير أن يلحق ببلاد الشام عن طريق القسطنطينية (٧٢) وهذا فرض بعيد ، لاتدعمه ديناميات الفتح الاسلامي ، وهو يجعل منصب القومس Comes لادارة شئون أهل الذمة من نصارى ويهود (٧٣) ، والصحيح النصارى فقط لأن اليهود كان لهم رئيسهم المستقل ويدعى الناجد (٧٤) ، أما يوسف الفهرى آخر ولاية الأندلس فلن يكون ابنا لعبد الرحمن بن حبيب الفهرى المتغلب على افريقية — كما يذهب عنان (٧٥) — والصحيح أنهما ينتميان الى الدوحة نفسها التي تصلهما بعقبة بن نافع •

على أن أكبر هذه الهنات هي تركيز المؤرخ على التطور السياسى وحده ، الأمر الذى حفزه فى موسوعته الثرة الى أن يمضى بتاريخه للأندلس فى عصرى المرابطين والموحدين ، فيؤرخ أيضا للمغرب المعاصر لهذه الرحلة ، من حيث أن القطرين كانا يخضعان على الاجمال لسيطرة سياسة واحدة ، وكان أخرى به أن يقصر جهده على الأندلس فحسب هذا الاحساس الجارف بالتطور السياسى أدى بالمؤرخ الى أن لا يعطى الاهتمام الكافى للتطور الاقتصادى — الاجتماعى ، وهو فى تحليله للفتنة التى عمت أقطار الأندلس فى أواخر عصر الامارة ، وبلغت أوجها على يدى عمر بن حفصون (ت ٣٠٥ / ٩١٨) (٧٦) لا يستفيد

(٧١) كتاب العبر بولاق . ج ع ص ١١٧ .

(٧٢) دولة الاسلام فى الأندلس ١ ع ١ ق ١ ص ٥٣ — ٥٤ .

(٧٣) دولة الاسلام فى الأندلس ع/م ١ ص ٢٥١ ، ع ٤ ص ٦٧ .

(٧٤) راجع أطروحتنا لدرجة الدكتوراه المعاصرون فى الأندلس

(٧٥) دولة الاسلام فى الأندلس ١ ع ١ م ١ ص ١٢٨ — ١٢٩ .

(٧٦) المرجع نفسه ١ ع ١ م ١ ص ٢٨٨ وما بعدها .

من نص ابن الخطيب (٧٧) الخاص بأسبابها مع أنه يأتي به كما يغفل
ما ورد متناثرا في الحوليات (٧٨) من مجاعات تكررت في عهد الأمير
محمد (٨٥٢/٢٣٨ — ٨٨٦/٢٧٣) ولم يحسن السياسة ازاءها ، فضلا
عن اشتعال العصبية عند العرب (٧٩) — سيما الشامية القيسية — وتبدو
الفتنة وكأنها طموح أفراد يتطلعون الى السلطة فحسب .

أما عن سقوط الخلافة الأموية ، ويخصه بفصلين (٨٠) في عصره
الأول ، فهو سرد متصل لوقائع ماجرى منذ مقتل عبد الرحمن شنجول
سنة ١٠٠٩/٣٩٩ حتى نهاية دولة بني حمود ولا نعرف ماهي الأسباب
الكامنة وراء السقوط ، على أنه يعاود هذا الموضوع في بداية عصر
الطوائف (٨١) ، ويحدده في صراع العصبية من عربية وصقلبية
وبربرية .

وفي حديث المؤرخ عن خواص عصر الطوائف ، يشير الى رسالة
هامة للكاتب المعاصر ابن حزم (ت ١٠٦٤/٤٥٦) (٨٢) ينتقد فيها

(٧٧) أعمال الاعلام تحقيق ليفي بروفنسال . بيروت دار المكشوف
١٩٥٦ ص ٣٥ — ٣٦ .

(٧٨) ابن القوطيه تاريخ افتتاح الأندلس تحقيق ابراهيم الأبياري
القاهرة ١٩٨٢ ص ١٠٠ .

ابن حيان : المقتبس . س ٢ ، تحقيق محمود مكي . بيروت دار
الكتاب العربي ١٩٧٣ ص ٣٤٣ .

(٧٩) ابن حيان : المصدر نفسه س ٣ . نشر انتونيا ، باريس
١٩٣٧ ، ص ٣ ، ٦٦ .

(٨٠) دولة الاسلام في الأندلس ع ١ م ٢ ص ٦٤٢ — ٦٧٧ .

(٨١) المرجع نفسه ع ٢ ص ١١ — ١٢ .

(٨٢) رسالة التلخيص (في الرد على ابن الثغريله اليهودي ورسائل
أخرى) تحقيق احسان عباس . القاهرة ١٩٦١ ص ١٧٣ — ١٧٤ وما بعدها .

حكام عصره (٨٣) ، هذه الرسالة مهمة ، ويمكن أن تستخرج منها معلومات مفيدة عن الأحوال الاقتصادية والاجتماعية لهذا العصر ، لكن المؤلف يكتفى بأن يستخرج مايشئ بالمغارم الفادحة التي فرضها ملوك الطوائف على شعبهم •

كان من الأوفق للمؤرخ أيضا أن يبدأ موسوعته بإحاطة جغرافية لشبه الجزيرة الأندلسية وهو ما أهم ابن الخطيب (٨٤) في تأريخه لغرناطة ، وهذه ضرورة لابد منها للتعرف على الأرض التي استحدثت بها هذه الملحمة الأندلسية •

على أن لمؤرخنا عذره الواضح في التركيز على التطور السياسي ، بسبب فقد العديد من المصادر بعد طرد العرب ، ثم ان التاريخ الأندلسي له طبيعة سياسية ، ومعظمه حروب وقعت بين المسلمين بعضهم ضد بعض أو بين المسلمين وبين نصارى الشمال ، الأمر الذى دفع الأسباب أنفسهم الى أن يلخصوا تاريخهم الوسيط كله فى أنه تاريخ حركة الاسترداد La Reconquista ، وهى ما يعبر عنها فى بعض الأحيان بمعركة القرون الثمانى La Batalla de Ocho Siglos هذه الطبيعة السياسية لتاريخ الأندلس ، جعلت المصادر حتى فى حال توافرها تغفل الجوانب الاجتماعية أو تشير إليها من بعيد •



(٨٣) دولة الاسلام فى الأندلس ٢٤ ص ٤٢١ — ٤٢٢ •

(٨٤) الإحاطة فى أخبار غرناطة • تحقيق محمد عبد الله عسان • القاهرة الخانجى ١٩٧٣ ح ١ • القسم الأول ص ٩١ — ١٤٣ •

لم يقف المؤرخ عند حد الترجمة أو التأليف بل اجتاز الى مجال التحقيق ، وهو نشاط بدأه فى مطلع السبعينات ، وبعد أن أنجز موسوعته فى طبعاتها المتعددة ، فأخرج كتابين هامين للسان الدين ابن الخطيب ، هما الاحاطة فى أخبار غرناطة وريحانة الكتاب ونجفة المنتاب ^(٨٥) ، والكتابان يقعان على التخموم بين التاريخ والأدب ، وان كانت مساحة الأدب أوفر فى الريحانة • والكتاب الأول — كما يتضح من اسمه يختص بمدينة غرناطة واحوازها من جغرافية وخطط وأخبار ومن نبه من أهلها وتاريخ الأسرة النصرية الحاكمة ، أما الريحانة فتضم نبذا من قدمات كتب ابن الخطيب ورسائله ونماذج من كتاباته الرسمية ، وبخاصة الصادرة عن سلاطين المغرب والأندلس ومخاطباته لهم ولغيرهم ومجموعا من رسائله وكتبه الصغيرة •

ويلاحظ على عنان فى تحقيقه للريحانة أنه يقف فى معظم الأحوال عند حد المقابلة بين المخطوطات المختلفة بما يفيد تصحيح النص ، ونادرا مايخرج الأشعار أو النصوص أو يعلق على حادثة أو يشير الى موضع مدينه ، وفهارسه تقف عند فهرسين أحدهما للبلاد والآخر للأعلام •

توفر المؤرخ أيضا فى سنى حياته الأخيرة على فهرسة القسم التاريخى من الخزانة الملكية بالرباط ، وقد صدر هذا القسم فى عام ١٩٨٠ ، ويتضح جهده فى التعريف بالمخطوط ووصفه وذكر مؤلفه ، كما يعرف بمحتواه ، ويشير الى نظائره فى المكتبات الأخرى ، مع

(٨٥) القاهرة ط ١ ، الخاتجى ١٩٨٠ •

الاحالة الى معاجم الفهارس العالمية ، مثل بروكلمان وسزكين
والاسكوريال والمتحف البريطانى وغيرها •

تنتهى الرحلة فى العشرين من يناير ١٩٨٦ •• ونتساءل : هل
مصادفة ينتهى محمد عبد الله عنان من تأريخه لشعر عربى ضاع
وقت يضيع شعر عربى آخر ؟؟

نتساءل أيضا أين محمد عبد الله عنان من تقدير الدولة ؟؟

فى هذا الزمان الردىء يصير من اللائق أن يحظى من هم دون
عنان بتقدير الدولة ، ويصير من اللائق أيضا أن يحظى هو بتقديرنا،
وهذه جائزة وأية جائزة •

السياسة الخارجية

للملك « آشور - ناصر - بال » الثانى

بين عامى ٨٨٣ - ٨٨٠ ق م

دكتور/ عبد القادر خليل عبد النعيم
مدرس التاريخ القديم بكلية الآداب
جامعة المنيا

تولى الملك « آشور - ناصر - بال » الثانى الحكم فى « آشور »
حتى عام ٨٨٣ ق م^(١) فى أعقاب وفاة والده « توكلتى نينورتا » الثانى
الذى كان قد حكم فى الفترة من ٨٩٠ حتى ٨٨٤ ق م.

وكانت دولة « آشور » فى بداية القرن التاسع ق م تشكل
مساحة كبيرة من الأرض على هيئة مثلث يمتد بين نهر دجلة والزابين
(الزاب الأكبر والزاب الأصغر) ، وبين مرتفعات الجبال الواقعة فى
الشمال والشمال الشرقى ، وكان معظمها يتشكل من تلال ونجاد وأراض
متموجة^(٢) بالإضافة الى الأراضى الخصبة التى كانت حول « اربيل »
و « كركوك » ، وعلى ضفتى نهر دجلة .

(١) هناك بعض المراجع العلمية التى تحدد تاريخ ولايته بعام
٨٨٤ ق م ولكن أغلب هذه المراجع تحدد ولايته بعام ٨٨٣ ق م وأخذ
الباحث بالتاريخ الأخير .

(٢) باقر (طه) مقدمة فى تاريخ الحضارات القديمة (القسم الأول)
تاريخ العراق القديم - الطبعة الثانية - بغداد ١٩٥٥ ص ١٦٣ .

واشترك فى اسم « آشور » كل من أرضها وعاصمتها ومعبودها
الأكبر وسكانها الأوائل مع تحويله فى التشكيل والنطق بين كل حالة
وأخرى (٣) .

أظهرت الحفائر فى أطلال مدينة « آشور » على أن الانسان
هناك اختار المنطقة لسكناء لمناعتها الطبيعية ، وانها تشرف على
ماحولها فهي تتمتع بموقع اقتصادى الى جانب المناعة العسكرية (٤) .

وقد لعب نهر دجلة دورا هاما فى انتشار التجارة بين « آشور »
والقوى الاقتصادية والسياسية المجاورة لها، كما انتشرت بعض المراكز
التجارية التى كانت بمثابة همزة الوصل بين « آشور » والمنطقة
الحضرية فى الشرق والغرب .

وكثيرا ماقام صراع بين سكان المناطق الصحراوية ودولة « آشور »
بهدف استيطان الأراضى الخصبة الا أن دولة « آشور » كانت تقف
أمام هذه المحاولات بالمرصاد (٥) .

ويبدو أن هذه الاحتكاكات كانت تمثل أولى مراحل العداء بين
الأشوريين وجيرانهم البدو فى الشرق والغرب .

ويذكر « المستد » أن هذه الدولة — المكونة من عدة ممالك
صغيرة هي « اسانا » و « ناميت عشتار » و « كالخ » و « نينوى »
و « كالزى » و « كوتموهى » — قد استطاعت فى عهد الملك « آشور »
— ناصر — بال « الثانى أن تصنع العجائب .

(٣) صالح (عبد العزيز) الشرق الأدنى القديم ، مصر والعراق ،
ج ١ القاهرة ١٩٧٣ ص ٤٩٤ .

(٤) سفر (فؤاد) « آشور » الطبعة الأولى بغداد ، ١٩٦٠ ص ٣ — ٤ .

(5) Smith, Sidney, Early History of Assyria To 1000 B. C.
London, 1928 pp. 1 — 3.

اذ أنه قد استهل حكمه بتجديد شامل فى النظم العسكرية
تفجده قد كون جيشا جديدا ومتطورا شكل فيه سلاح المشاة
من الجنود الآشوريين بينما اعتمد سلاح العربات — الى حد كبير —
على فرسان من الحلفاء وعن طريق هذين السلاحين انبثق فن حصار
المدن والذى تطلب تزويد الجيش بآلات حربية تشبه الدبابة فى
الجيش الحديثة (٦) .

وذكر « طارق مظلوم » ان هذه الآلات الحربية قد بدأ
استخدامها فى عهد « آشور — ناصر — بال » الثانى ولم تظهر على
الجدران قبل عهده (٧) كما ذكر أن تصميم هذه الآلات اعتمد أساسا
على معول لهدم الأسوار وهو أشبه مايكون بالمدفع ومثبت فى هيكل
مغطى بمواد مختلفة وقد وضع هيكلها بأكمله فوق عجلات تراوح
عددها فى القرن التاسع ق.م بين أربع أوست عجلات ولكن بعد ذلك
اقتصر عددها على أربع عجلات فقط . ومن عهد هذا الملك لدينا مثالان
من أدوات الحصار الآشورية (٨) .

وما ذكره « طارق مظلوم » عن بدء ظهور أدوات الحصار
الآشورية فى عهد الملك « آشور — ناصر — بال » الثانى إنما يعبر
عن أن أعداء الدولة الآشورية قد ابتكروا أنواعا من الحصون
والأسوار تطلب أمر تحطيمها صنع مثل هذه الآلات لنقب أسوار المدن
وجدران الحصون وربما أخفق من سبقه من الملوك فى احكام الحصار
حول مدن الأعداء . الأمر الذى كان يطيل أمد الاستيلاء عليها ، وكان

(6) Olmstead, A. T. History of Assyria, New York, London,
1923 p. 81.

(٧) انظر اللوحة الخاصة بهذه الآلة العسكرية فى نهاية الدراسة .

(8) Madhloum ; T. Assyrian Siege — Engines. in Sumer,
A Journal of Archaeology and History in Iraq, vol. XXI, 1965 p. 9 f.

لصنع هذه الآلات فى عهد « آشور — ناصر — بال » الثانى ما جعله يحقق انتصارات سريعة وأن يوجه ضربات مؤثرة الى معسكراته أعدائه •

ومن ناحية أخرى فإن أمر وجودها فى عهده يعبر عن مرحلة هامة فى السياسة الخارجية للدولة الآشورية اذ يبدو أنها قد أعدت نفسها لحروب طويلة طاحنة بينها وبين جيرانها سيما أنها فى العصر الآشورى الحديث كانت تملك من الرجال ، ومن المال ما تحتاج اليه •

لقد ضاق الآشوريون بحدودهم الضيقة الى أن لاحت الفرصة أمامهم فى العصر الآشورى الحديث اذ ضغط عليها الآراميون ضغطا شديدا وشكلوا عليها خطرا كبيرا وكان لابد من الاصطدام بهم لازاحتهم عن حدودها وقد تطلب ذلك جهودا جبارة من ملوك العصر الآشورى الحديث اذ أننا نلاحظ أنه منذ بداية عهد « آشور دان » (٩٣٢ — ٩١٢) ق.م أن الآشوريين ثارت غرائمهم فى عهده واتجهت جيوشهم ضد الآراميين شرقا وغربا ، ثم تابعت طريقها فى عهد ولده « أدد نيرارى » الثانى الذى حكم من (٩١١ — ٨٩٠) ق.م ، وقد وصفت النصوص الآشورية الآراميين فى ذلك الوقت « بأنهم أهل برارى » (٩) •

وبعهد « أدد نيرارى » الثانى بدأ عصر جديد طويل عرف اصطلاحا باسم العصر الآشورى الحديث ، أو عصر الاتساع الآشورى الكبير وقد استمر نحو ثلاثة قرون من ٩١١ الى ٩١٢ ق.م وشهد مرحلتين عظيمتين من مراحل القوة والازدهار والتوسع توسطتهما فترة ركود •

(٩) صالح (عبد العزيز) الشرق الأدنى القديم ، ج١ مصر والعراق •

١٩٧٣ ص ٥٠٨ •

A. Dupont — Sommer, Les Araméens, Paris, 1949, p. 18, 31.

المرحلة الأولى بدأها « أدد نيرارى » الثانى ولم يتجه فيها الى فتوح بعيدة وانما أراد تثبيت حدود دولته ، واسترجاع الاشراف الفعلى على تخومها الغربية حول نهري الفرات والخابور (١٠) .

وكانت سياسة « توكلتى نينورتا » الثانى وحكم من (٨٩٠ — ٨٨٤) ق.م والذى تميزت حولياته بتفاصيلها اليومية تماثل سياسة سلفه فى ارهابه للآراميين فكان من ضيحاياهم فى عهده قبيلة بيت « زمانى » التى اتخذت « أميدى » عاصمة لها وهى « ديار بكر » الحالية (١١) .

ومنذ ذلك الحين اتجهت سياسة « آشور » الى توطيد سلطانها على حدودها الغربية ، واخضاع القبائل الجبلية فى الشمال الشرقى، ومحاولة السيطرة الكاملة على الطرق التجارية والحربية التى تتجه غربا الى الشام حيث المجد ووفرة المنتجات وحيث المخرج البحرية ، وشمالا بغرب جبال طوروس وآسيا الصغرى مع محاولة اضعاف الفروع الآرامية الغربية فى شرق سوريا وفى أواسطها وامتد نفوذها الى موانئها البحرية (١٢) .

وتتميز من القائمين على تنفيذ هذه السياسة فى « آشور » ملكها « آشور — ناصر — بال » الثانى الذى حكم من (٨٨٣ — ٨٥٩) ق.م وهو يعد أعظم شخصية ضارية وضارية فى المرحلة الأولى من عصر « آشور » الحديث (١٣) .

وهذا هو موضوع بحثنا فى تتبع حروب هذا الملك وما وصلت الامبراطورية الآشورية اليه فى عهده من رقى وازدهار وسوف يقصر

(١٠) صالح (عبد العزيز) المرجع السابق ، ص ٥٠٨ .

(١١) المرجع السابق .

(١٢) صالح (عبد العزيز) المرجع السابق، ١٩٧٣ ص ٥٠٨—٥٠٩ .

(١٣) المرجع نفسه .

الباحث حديثه فى هذا المقال عن حروبه فى الفترة من ٨٨٣ الى عام ٨٨٠ ق.م •

لقد شغل هذا الملك حكمه بعدد من الحملات الحربية وذلك لتوطيد السلطان الذى ورثه عن أبيه • وتعتبر حملاته خلال الفترة التى سيتناولها الباحث من الحملات الهامة فى تاريخ الدولة الآشورية • هذا وقد عثر على أخبار حملاته مدونة على ألواح فى معبد الاله « نينورتا » فى مدينة « كالح » وقد فقد جانب كبير منها ولكن لحسن الحظ أن مابقى يكفى ليلقى ضوءا على الجهود التى بذلها (١٤) •

وقد رأى « آشور — ناصر — بال » الثانى أن من واجبه اكمال المسيرة التى بدأها والده « توكلتى نينورتا » الثانى الذى بدأت فى عهده الفتوحات الخارجية • وقد كان ابنه بحق خير من حمل لواء الجهاد والدفاع عن « آشور » خلال فترة حكمه وقد كان هدفه يتمثل فى استكمال الفتوحات الخارجية ، والقيام بضم المقاطعات القبلية المتاخمة للحدود الآشورية من ناحية الشرق والغرب والشمال •

وتعتبر حوليات هذا الملك — التى أشرنا اليها آنفا — عن قسوة وشراسة بالغة أثناء قيامه بمهاجمة الأعداء • ومن دراسة الحملات التى قام بها والحروب التى خاضها نستشف من خلالها عظمة الأعمال العسكرية التى قام بها وكلها أعمال أرست جذور السيادة الآشورية لمدة تربو على قرنين من الزمان •

ففى الجهة الشرقية نجد الملك « آشور — ناصر — بال » الثانى كان عليه تنفيذ خطتين :

أولا — ممارسة السيادة المركزية على المقاطعات المقامة فعلا •

(14) Luckenbill, D. D. Ancient Records of Assyria and Babylonia, vol. I, Chicago 1926, p. 141.

ثانيا — أن تعترف القبائل المتاخمة للحدود الآشورية بسيادته عليها (١٥) •

ومن أجل تنفيذ هدفه نجده بعد اعتقاله العرش مباشرة اتجه عبر التلال الواقعة شرق نهر دجلة مصطحبا معه أعدادا صغيرة من القوات العسكرية إذ أن القتال في هذه المرحلة كان لا يتطلب أعدادا كبيرة بسبب وعورة الطبيعة التي أوجدت صعابا جمة للتحركات العسكرية فيها • ونجد أن الجيش الآشوري قد نظم في وحدات عسكرية وفقا لطبيعة أسلحته • إذ أنه قد توصل — كما أسلفنا — لمعرفة سلاح أقرب مايكون الى الدبابات، وقد ذكر عنها «سميث» أنه لم يتوصل الى معرفتها أى شعب آخر من شعوب المنطقة (١٦) •

ولعلنا نضيف الى ذلك أنه لم تظهر مناظرها على الجدران الآشورية قبل عهد « آشور — ناصر — بال » الثانى ولكن من ناحية معرفة شعوب المنطقة لها من عدمه فقد نختلف مع ماذهب اليه « سميث » فى وجهة نظره السابقة إذ توجد وثائق من « مارى » و « بوغاز كوى » توضح أنها كانت مستخدمة منذ القرن الثامن عشر ق.م (١٧) •

وقد استهل الملك حولياته بتمجيد الآلهة التى ساندته وآزرته فى حومة الوغى ، وأيدته — على حد المعتقد الآشورى — بنصر من عندها فيقول موجهها حديثه الى الاله : « نينورتا » حيث ذكر عنه

(15) Smith, M. A. Sidney : Sidney : The Foundation of the Assyrian Empire, in C.A.H. vol. III, London, 1965 p. 12.

(16) Smth, Sidney : The Foundation of the Assyrian Empire, 12.

(17) Madhloum, Tariq : op cit., p. 9 Note No. 1. See also, Olmstead, AT. History of Assyria, New York — London, 1923 p. 81.

أنه « القوى ، المتين ، سيد الآلهة ، الشجاع ، العملاق ، الحق ، المقدام فى حومة الوغى ، ... أنا « آشور — ناصر — بال » ، الملك القوى ، ملك الكون ، الذى لانظير له ، ملك أركان العالم الأربعة ، شمس الناس جميعا ، محبوب انليل ونينورتا .. عابد الآلهة العظيمة ... » (١٨) .

ثم يأتى يعد تمجيد الآلهة فقرة تتضمن قيام الملك بتوجيه جيوشه ناحية الشرق أولا بينما أننا سوف نجد أن أخطر الجبهات كانت فى الغرب ضد العناصر الآرامية • وربما قصد الملك اخضاع الشرق أولا لسبيين :

أولا — أن تكون الحدود الشرقية أضعف وقد أراد بذلك تحقيق انتصارات سريعة فيها •

ثانيا — ربما يكون قد أراد أن يسيطر على الشرق لتأمين ظهره ويتفرغ لمواجهة الآراميين فى الغرب ، ومن هنا تكون الأهمية الاستراتيجية لغزو الشرق أولا •

وذكر الملك عن هذه الحملة ، ان قواته عبرت جيالا شديدة الانحدار ، وسلكت مسالك وعرة ، لم يسبق اعدادها لمرور القوات والعربات وأطلقت الحوليات على هذه المنطقة الواقعة شرق « آشور » مباشرة اسم أرض « توم » Tumme وكانت تقع فى قلب الجبل ويطلق على قلعتها اسم « جوب » Gubbe وقد فر مدافعوها الى جبل شديد الانحدار وكانت قمته أشبه ماتكون بسن خنجر حديدى ولعظم ارتفاعها كانت الطيور لاتستطيع الارتفاع اليها أو حتى بلوغ منتصفها (١٩) وأقام الفارون تحصيناتهم عند قمته الا أن جنود الملك

(18) Luckenbill, D. D. op. cit., p. 141 pass. 440.

(١٩) يبدو أن هذا التشبيه مبالغ فيه الا أنه فى ذات الوقت لا يخلو من حقيقة أن الجبل كان شديد الارتفاع .

تمكنوا من الوصول اليهم خلال ثلاثة أيام وصعد الملك على قدميه ودمر معسكرهم وشتت شملهم وصبغ الجبل بدمائهم • وللأسف لا يوجد من بين ماتبقى من حوليات ما يحدد موقع هذه المنطقة بالضبط سوى ذكر النص أنها كانت الى شرق « آشور » (٢٠) •

وقد استولى الملك خلال هذه الحملة على جميع المدن الحصينة الواقعة فى نطاق أرض « توم » ويذكر الملك عبارة هامة وهى أن هذه المناطق لم يسبقه اليها أحد من أجداده ، وأن جنوده كانوا يمشطون الجبل وقلوبهم مفعمة بالشجاعة ، وقد استطاع قتل ٢٠٠ من مقاتليهم بالسيف وأنه دمر المدن وخربها وبالنار أحرقها (٢١) •

ثم تتجه جيوشه بعد ذلك الى شمال « آشور » الى منطقة « كيورى » Kurruri وهى منطقة كانت تابعة للسيادة الآشورية وكان عليها امداد الملك بالذيل والبغال والماشية والضأن وأوانى البرنز والخمر وأثناء تواجد الملك فى « كيورى » نجد أن « جيلزان » Gilzan الواقعة شمال « آشور » وكذلك « هوبوشكيا » الواقعة الى الشمال الغربى من « آشور » قامت باحضار الخيل والذهب والفضة والقصدير والنحاس والأوانى النحاسية الى الملك وهذه الأشياء تمثل الجزية المفروضة عليهما (٢٢) ويبدو أن قيام هاتين المنطقتين بدفع الجزية للملك بدون قتال أنهما لم تظهرا العداء فى هذه الأثناء للملك الآشورى (٢٣) •

ثم تذكر النصوص قيام « آشور — ناصر — بال » الثانى

(20) Olmstead, op. cit., p. 84.

(21) Luckenbill, D.D op. cit. vol. I p. 141 pass 440

(٢٢) عن « كيورى » و « جيلزان » و « هوبوشكيا » أنظر الخريطة فى نهاية المقال •

(23) Olmstead, op. cit., p. 85.

يعبور ممر يطلق عليه اسم ممر « هولون » متجها الى أرض « كيرهي » Kirhi وتقع الى الغرب من « هوبوشكيا » فى شمال غرب « آشور » وفى هذه المنطقة واجه الملك مقاومة حقيقية الا أنه تمكن من احتلال مدينة « نيشتون » عاصمة منطقة « كيرهي » وفر سكانها الى قمة جبل مرتفع يواجه مدينتهم ، ولشدة ارتفاع الجبل شبهه الملك بأنه مثل سحابة فى السماء الا أن جنود الملك تمكنوا من تسلقه وتعقبوا الفارين • ويذكر الملك كذلك أن أحدا ممن سبقوه لم يطأ هذه الجهات ثم بعد ذلك يتناول النص كيف أن الملك أعدم ٢٦٠ (٢٤) من مقاتليهم وتم قطع رؤوسهم واستخدمت جثثهم كلبنات فى بناء الأعمدة ، واستولى على ممتلكاتهم أما عن « بوبو » بن « بويا » حاكم مدينة « نيشتون » فقد أخذ الى مدينة « اربلا » Arbela (٢٥) الواقعة شرق نينوى وهناك سلخ جلده حيا ونشر على جدران المدينة ، ثم أقام الملك تمثالا لنفسه وسجل انتصاراته عليه (٢٦) •

ويذكر « سميث » : أن حاكم « نيشتون » هذا قد قاوم مقاومة مستميتة فكان جزاؤه أن سلخ حيا ، وكما يبدو لنا من الحوليات أن هذا يعد أول سلخ لحاكم وهو على قيد الحياة • وتجدر الإشارة الى أن سياسة العنف هذه التى سلكها الملك مع أعدائه كانت لها نتائج ايجابية نحو سيطرته على أماكن فتوحاته لفترات طويلة (٢٧) •

يلاحظ أن العمليات العسكرية « لآشور — ناصر — بال » الثانى قد بدأت فى الشرق ثم اتجهت شمالا حيث قضى على عصيان

(24) Luckinbell, op. cit., p. 143 pass 441

(٢٥) وهى اربيل الحالية •

(26) Luckenbill, op. cit., p. 143 pass 441

(27) Smith, S. The Foundation of The Assyrian Empire, p. 12.

منطقة « كيرهي » وتابع عملياته في الشمال حيث استولى على المدن الواقعة جنوب جبل « نيبور » الواقع الى الجنوب من « هوبوشكيا » وأعمل في سكانها الذبح ودمر مدنها أما الذين فروا منهم حضروا وقبلوا أقدامه وفرضت الجزية عليهم (٢٨) •

ثم اتجه بعد ذلك جنوبا الى منطقة هامة وهي « كوتموهي » جنوب جبل « نيبور » وقامت بدفع الجزية التي تضمنت أواني نحاسية وماشية وأغناما وبيذا •

تشير نصوص الحوليات بعد ذلك الى أن الملك « آشور — ناصر — بال » الثاني كان يرغب من وراء حروبه السالفة الذكر في الشرق والشمال الى عزل منطقة « كاشياري » Kashiari الجبلية الا أن هذه الخطة لم يقدر لها الاستمرار إذ أن الآراميين القاطنين على نهر الخابور الأسفل قد أعلنوا العصيان على « آشور » ومادمت سوف نتحدث عن الآراميين فتجدر الإشارة الى الدويلات التي أقاموها عند نهر الخابور الأسفل وعلى أخصب منطقة في هذا الجزء •

فقد كانت « ديكاني » Dikanni — إحدى هذه الدويلات — تقع على الضفة الغربية لنهر الخابور بينما الى الجنوب منها وعلى ضفة الخابور الشرقية قامت دويلة « حالوب » Halupe وكانت تعتبر أهم دويلة في هذه المنطقة الواقعة الى الغرب من « آشور » ولا تبعد كثيرا عن نقطة التقاء نهر الخابور بنهر الفرات •

وعلى هذا الجانب الغربي — أيام ضعف « آشور » — قامت مملكة آرامية كبيرة لها وزنها ، واعتبرت الوريث الفعلي لدولة

(28) Luckenbill, DD. Ancient Records of Assyria and Babylon. p. 143 pass 442.

« ميتانى » اذ أنها امتدت من انحساء الفرات شمالا حتى البالخ جنوبا وهى دويلة « أدينى » (٢٩) •

وفى الشمال الغربى من « آشور » قامت دويلة بيت « زمانى » التى أخضعها « آشور — ناصر — بال » الثانى (٣٠) •

هذا عن الممالك الآرامية التى قدر « لآشور » أن تصطدم بها نعود الآن لمواصلة حديثنا عن الثورة التى قامت ضد أمير « حالوب » المدعو « حاماتاي » الذى أظهر مودته « لآشور » فى عهد الملك « توتكلتى نينورتا » الثانى وهذه الثورة هى التى أوقفت خطة الملك لعزل منطقة كشياري الوعرة حيث يذكر لنا فى حولياته أنه بينما كان فى « كوتموهى » وردت اليه أنباء عن مصرع « حاماتاي » (٣١) حاكم « حالوب » وأن الذى نفذ ذلك هو المدعو « أهيا بابا » اللقيط (يذكر عنه النص « أنه ليس ابنا لأحد ») ربما يقصد بذلك أنه مجهول النسب (٣٢) وقد حرضت دويلة « أدينى » لهذه المؤامرة المدن الواقعة على نهر الخابور لكى تنضم الى الآراميين (٣٣) •

لقد كانت الثورة فى مدينة «سورو» Suru التابعة «لحالوب» وعلى اثر أنباء الثورة يقول « آشور — ناصر — بال » الثانى : انه تقدم جنوبا بمحازاة نهر الخابور ومعه عرباته الحربية ويذكر لنا أسماء بعض المدن التى حصل منها على الجزية أثناء تقدمه مثل حصوله على جزية مدينة « قطنة » وكانت عبارة عن فضة وذهب

(29) Olmstead, History of Assyria, pp. 85 — 86.

(٣٠) أنظر موقع « دويلة » زمانى على الخريطة المرفقة بالبحث •

(31) Luckenbill, D.D. op. cit, p. 144 pass 443

(32) Luckenbill, D.D. op. cit, p. 443

(33) Smith, S. op cit, p. 12.

وقصدير وأوانى نحاسية وبعض الملابس الصوفية والكتانية ثم اقترب من مدينة « سورو » وقد تملك الرعب أهلها وعلى اثر ذلك تقدم اليه رؤساء المدينة ووجهوا من أجل أن يمنحهم نسيم الحياة • وقبلوا أقدام الملك قائلين (٣٤) :

« ... ان كانت تلك مشيئتك فاذبحنا أو ان شئت فدعنا أحياء •
افعل بنا مايتوق اليه قلبك ... وبشجاعة قلبى وبحد سيفى عصفت
بالمدينة فأمسكوا بكافة العصاة وسلموهم الى » (٣٥) •

وبعد أن دخل المدينة سلب كل ما فيها من فضة وذهب ، وسبى نساء « أهيا بابا » اللقيط وجميع الثائرين •

ثم يتحدث النص عن وسائل التعذيب التى اتبعها « آشور — ناصر — بال » الثانى ضد أعدائه فذكر أن الملك أقام عليهم من قبله حاكما يدعى « ازى — ايلو » وأقام عمودا أمام المدينة وسلخ جلود جميع الرؤساء الذين دبروا الثورة ، وتم تغطية العمود بجلودهم ، كما وضع أجساد بعضهم (كلبنات) داخل العمود ، ووضع آخرين فوق الخوازين التى ثبتت فى أعلى العمود ، وآخرين وضعوا على خوازيق نصبت حوله ، وسلخ العديد منهم ونشرت جلودهم على الأسوار •

وقام الملك باصطحاب « أهيا بابا » الى « نينوى » وقام بسلخه ونشر جلده على أسوارها • وكما يذكر الملك أنه فرض نفوذه على أرض « لاك » Laqe كما تسلم جزية « حايانى » حاكم « هندانى » Hindani الواقعة جنوب أرض « لاك » ثم قام

(34) Olmstad. op. cit, p. 87.

(٣٥) رو (جورج) العراق القديم ترجمة وتعليق حسين علوان حسين ومراجعة د. فاضل عبد الواحد على — بغداد ١٩٨٤ ص ٣٨٩ •

الملك بعمل تمثال لنفسه سجل عليه أخبار شجاعته وانتصاراته وأقامه فى منتصف قصر « أهيا بابا » كما أقام لوحات عند بوابة المدينة تروى أخبار انتصاراته (٣٦) ♦

على ضوء ما تقدم وما رأيناه من انتصارات على يد « آشور — ناصر — بال » الثانى نجد أن ضراوة المقاومة من جانب الأعداء هو ما دفعه الى التنكيل بهم وان العامل الاقتصادى قد لعب دورا هاما كذلك فى هذه الفتوحات حيث عاد على الآشوريين بالخير الوفير فتوفر لديهم المال والعتاد لمواصلة هذه الحروب الباهظة التكاليف ♦ كما تجدر الإشارة الى أن كل ما سبق من حروب انما تم فى العام الأول من حكمه ♦

أما فى عامه الثانى نجده قد اتجه شمال غرب « آشور للقضاء على من ثاروا ضده فى « هلزى — لوها » Hulzi — Luha ومنطقة تلأل « كشياري » وتجدر الإشارة الى أن الملك « شلمنصر الأول » (١٢٦٦ — ١٢٤٣) ق.م كان قد أسكن بعض الآشوريين فى « هلزى — لوها » وبرغم أنهم من أصل آشورى الا أن حاكمهم « هولاي » حمل لواء العصيان ، بل وذهب أبعد من ذلك وهاجم إحدى المدن التابعة « الآشور » وهى مدينة « دامداموسا » Damdamusa بغرض الاستيلاء عليها واستعان الملك بالهتة وقام بقيادة جيوشه وعرباته حتى وصل الى منطقة « ايزالا » Isalla وتسلم جزيتها وكانت عبارة عن قطعان من الماشية والنبىذ وتذكر الحوليات أنه عصف بمدينة « دامداموسا » وألقى القبض على « هولاي » وسلخ جلده ونشره على جدران « دامداموسا » وأعمل السيف فى أتباعه وذبح منهم ٦٠٠ وتم أسر ٣٠٠٠ وأحرقهم ولم يدع أحدا منهم على قيد الحياة ♦

(36) Luckenbill, op. cit, pp. 144 — 145 pass. 443.

ثم عصف الملك بمدينة « تيل » Tille واستولى على ماشية سكانها وقام بتعذيبهم فقطع أيادي بعضهم وجردع أنوف البعض الآخر ، وسلم آذان فريقا آخر كما سمل أعين البعض ، وأقام بعضهم كلبنات فى أحد الأعمدة وعلق جماجم بعضهم فى فروع الأشجار حول المدينة ، وجعل المدينة أثرا بعد عين (٣٧) •

ويبدو أن مدينة « توشهان » Tushhan الواقعة الى الشمال من منطقة « كاشيارى » قد تعاطفت مع « هولاي » فدارت عليها الدوائر حيث يذكر النص أن الملك دمر سورها القديم وأتى به حتى أساساته ، وأقام غيره على قوة ومتانة ، وبنى داخل أسوارها قصرا خاصا به ، وأقام لنفسه تمثالا نقش عليه أعماله المجيدة كما أحضر الملك فقراء من الآشوريين — الذين هاجروا بسبب الفاقة — وأسكنهم فى « توشهان » (٣٨) •

ويذكر « أولمستد » أنه جعل « توشهان » — الكرخ حاليا — مقرا لعملياته الحربية ضد شعوب الشمال فى حملاته المقبلة •

وأثناء اقامة الملك فى « توشهان » قام باستقبال الوفود من جميع أرض « نايرى » ومن الآراميين • وبعد عودة الملك من حروبه المظفرة هذه تلقى الجزية والولاء من « هانيجالبات » Hanigalbat الواقعة فى شمال غرب « آشور » وتقع الى شمالها امارة « نصيبينا » وهى احدى المقاطعات الحيثية القديمة •

وفى عام ٨٨١ ق.م تقريبا ثار مواطنوا « زاموا » فى شرق « آشور » وفكر المتآمرون فى غزو « آشور » ذاتها فشن الملك على

(37) Luckenubill, pp. 146 — 147 pass. 445.

(38) CF. Olmstead, op. cit., pp. 87 — 88.

الثوار أربع حملات قصيرة كانت كفيلة بإعادتهم الى صوابهم ،
وطارد الملك الفارين داخل المرتفعات •

وفى عام ٨٨٠ ق.م ترددت المقاطعات الشرقية فى دفع الجزية
للملك فى فترة انشغاله باعادة تنظيم مقاطعة « زاموا » وكان ذلك
أمرا مشجعا لمدينة « اتليلا » للتمرد على الملك ولكنه أعادها الى
سيادته • ويبدو أن المنطقة كان بها لفيف من الصناع المهرة الأمر
الذى شجع الملك على أن يرسل عددا منهم الى مدينته وعاصمته
الجميلة « كالخ » (٣٩) •

وتجدر الإشارة الى أن الملك نجح فى الاستيلاء على جبل
« كينيبا » Kinepa الذى يبلغ ارتفاع قمته ٢٠٠٠ قدم • الأمر
الذى أشعر الملك يسرور عظيم اذ ذكر أنه أول من وصل اليه ، وكان
الآشوريون يعتقدون أنه الجبل الذى هبطت عليه سفينة « نوح »
عليه السلام بعد الطوفان •

هذا ويبدو أن الملك قد اتخذ من « أركادى » Arkadi مقرا للقيام
بعدة هجمات عسكرية فى جميع الأراضى المجاورة وأطلق عليها اسما
جديدا وهو « توكلتى — آشور — أسبات » ومعناه « استوليت
عليها بقوة الاله آشور » واذا نظرنا الى الخريطة المرفقة نجد أنها
تقع الى شمال « زاموا » والى الجنوب الغربى من « كينيبا » فى شرق
« آشور » (٤٠) •

(39) Smith, Sidney . op. cit., pp. 12 — 13.

(40) Olmstead, op. cit, pp. 88 — 89 .

« زاموا » عبارة عن مقاطعة فى جبال زاغروس فى شرق ايران •
راجع :

Beek, Martin A. Atlas of Mesopotamia, Trans. by Rowley,
H.H. Neelson, p. 161.

نتائج الدراسة :

يلاحظ الباحث أن الملك « آشور — ناصر — بال » الثانى قد مسار فى عملياته العسكرية مبتدءا من الشرق متجها بعد ذلك الى شمال شرق « آشور » عند منطقة « كيورى » ، ثم نجده يتجه بعد ذلك الى « كيرهى » وتعتبر النصوص أنه كان يقاتل فى مناطق شديدة الوعورة • الأمر الذى يعطينا انطبعا عن شجاعته واقدامه فى بناء الامبراطورية الآشورية فى النصف الأول من القرن التاسع ق.م ، ثم نجده يتجه الى كوتموهى « جنوب جبل نيبور » ، الأمر الذى يعطينا انطبعا أنه كان يقصد من وراء خطته هذه الى عزل منطقة «كاشيارى» الجبلية •

ثم ينتقل بعملياته بعد ذلك الى الحدود الغربية « لآشور » مصطدما بالعناصر الآرامية وقد حقق نجاحا كبيرا فى ضرب تجمعات الآراميين فى الغرب •

من ذلك نرى أن « آشور — ناصر — بال » الثانى كان يسير فى حروبه وفق خطة معينة ، ولا سيما أننا سوف نرى توجهه فى حروبه المقبلة غربا حتى يغمس أسلحته فى بحر أمورو وهو البحر المتوسط المواجه لسواحل لبنان •

نلاحظ كذلك أن الملك الآشورى استعان واسترضى الآلهة من أجل تحقيق النصر على الأعداء ، وفى ذلك تتشابه العقيدة العراقية القديمة مع الديانة المصرية القديمة حيث كان الملوك يرجعون انتصاراتهم فى ميادين القتال الى تأييد الاله «آمون» اله الامبراطور •

أمر أخير ينبغى أن نشير اليه وهو وسائل التعذيب التى لجأ اليها هذا الملك فى عقاب أعدائه وقد انفرد الآشوريون بهذه الوسائل

ولم نر شبيها لها على الآثار المصرية القديمة فنجد فى آشور التعذيب
بصلم الأذن وجذع الأنوف وسمل الأعين ، ووضع الأعداء فوق
الخوازيق — وهى وسائل عنيفة — ربما كان الدافع اليها شدة مقاومة
الأعداء فرغب الملك فى أن يحقق أكبر قدر من الارهاب فى نفوس
أعدائه حتى يضمن عدم قيامهم بثورات خلال عهده •

يلاحظ الباحث كذلك أن الملك خلال حروبه السابقة قد تجنب
الحرب جنوبا مع بابل ربما ليجعل عملياته مؤثرة فى وسط الفرات وفى
الشمال والغرب • هذا واننا نجد « آشور » بلا شك قد حققت
ثراء كبيرا من وراء الاستيلاء على منتجات المدن المقهورة وقيامها
— الى جانب ذلك — بتحصيل الجزية الأمر الذى مكنها بدون شك من
مواصلة عملياتها الحربية بنجاح •

وبعد هل استقامت الأمور « الآشور — ناصر — بابل » الثانى
بعد هذا العناء ؟ فهذا موضوع دراسة مستقبلية انشاء الله •

ملحق الوثائق :

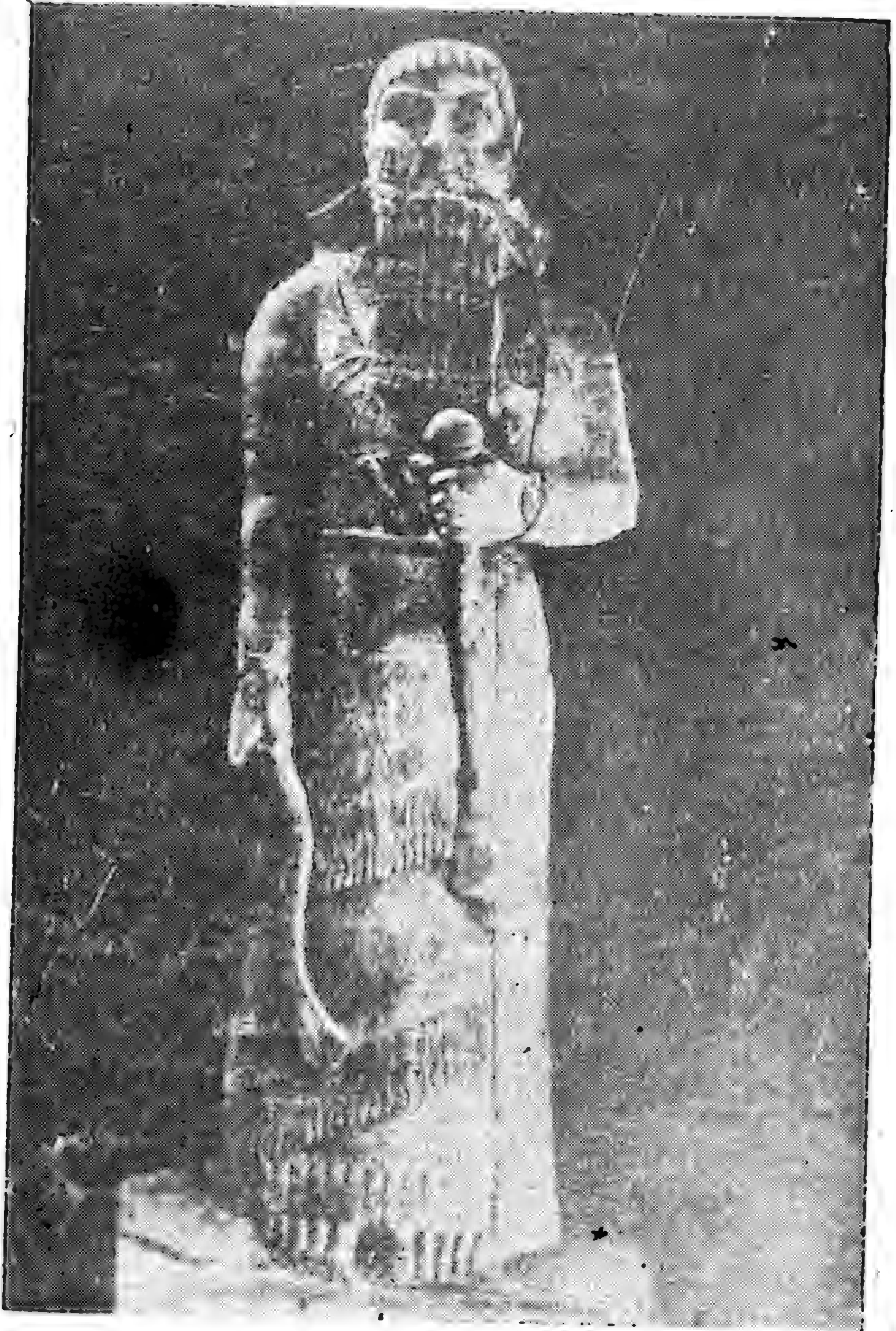
اللوحة رقم (١) تمثل منظرا للملك « آشور — ناصر — بال »
الثانى •

اللوحة رقم (٢) منظر يمثل الملك وهو يهاجم الأعداء بعرباته
الرابعة •

اللوحة رقم (٣) تمثل أدوات الحصار الآشورية التى استخدمت
فى عهد « آشور — ناصر — بال » الثانى فى العراق القديم •

الخرائط :

(١) خريطة للشرق الأدنى القديم موضحا عليها المدن القديمة التى
دخلتها جيوش الملك « آشور — ناصر — بال » الثانى •

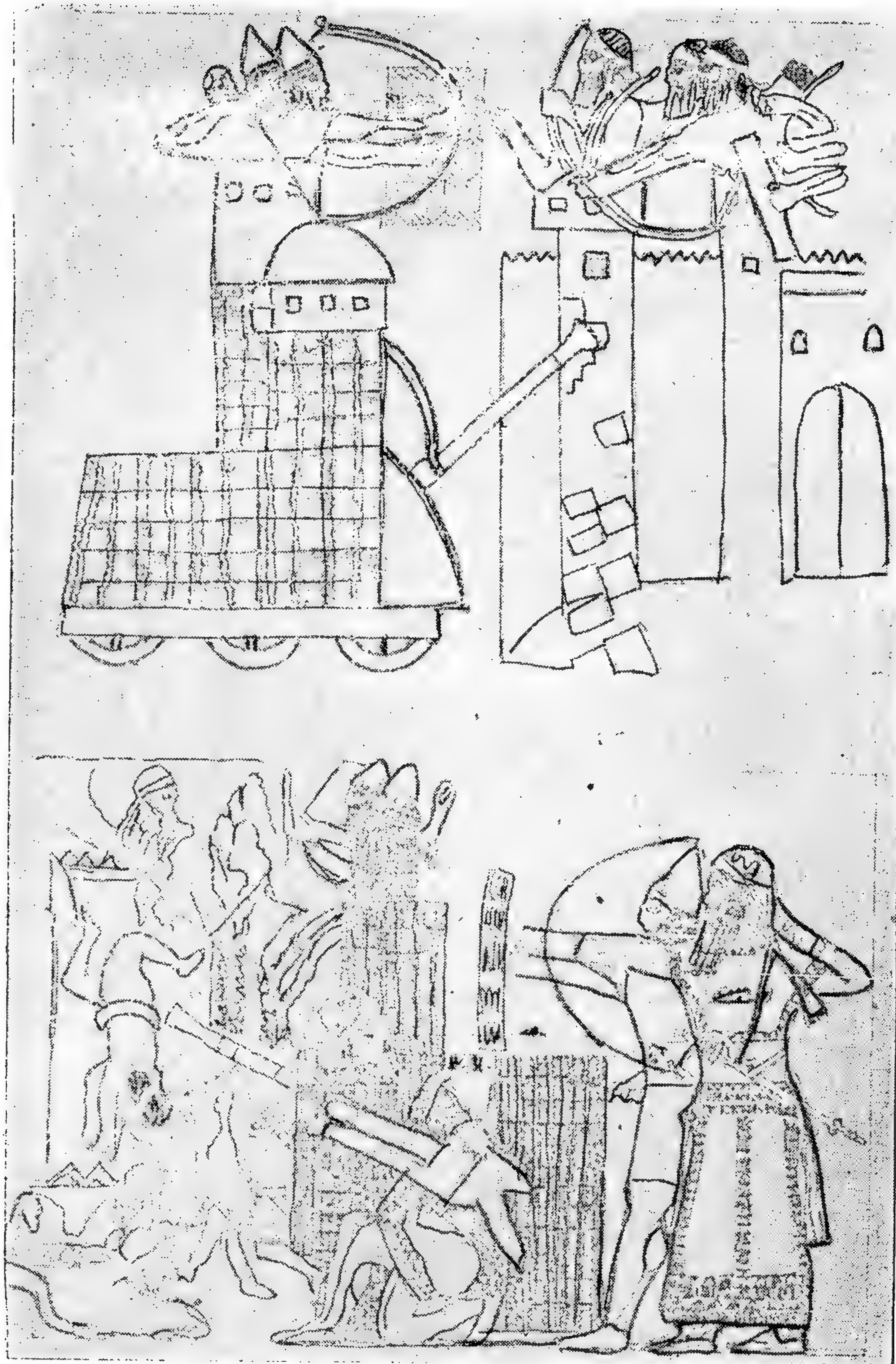


الملك « آشور — ناصر — بال » الثانى

عن : بارو (أندريه) بلاد آشور ، ترجمة وتعليق دكتور عيسى
سلمان وسليم طه التكريتى — الجمهورية العراقية ، سلسلة الكتب
الترجمة ١٩٨٠ ص ٣٣ .



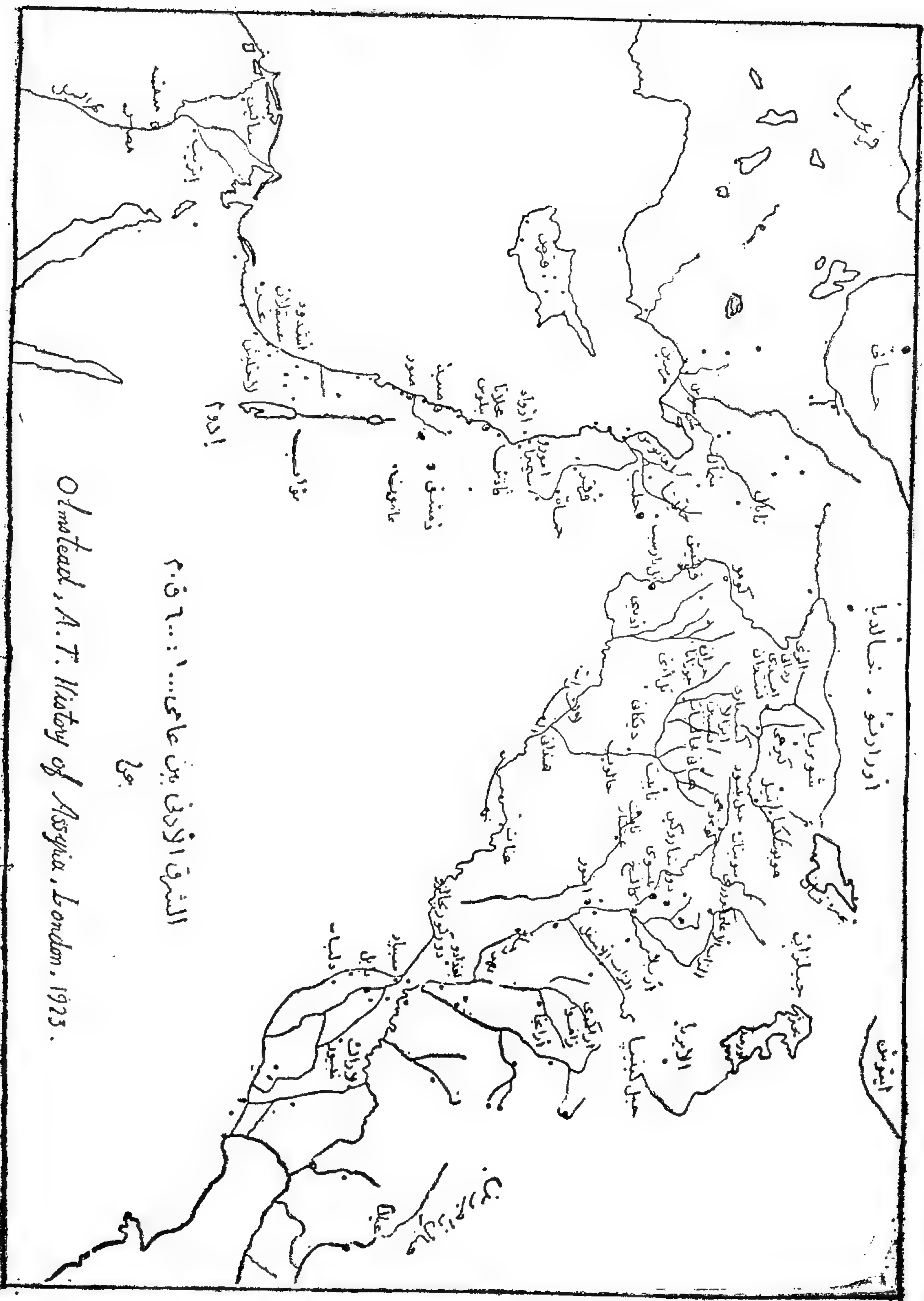
منظر من مدينة « كالح » (نمرود) « آشور — ناصر — بال » الثاني
يقود سلاح العربات في ميدان القتال .
عن : بارو (أندريه) المرجع السابق ، منظر رقم ١٨ ص ٣٠ .



أدوات الحصار الآشورية

Madhloum, Tariq : Assyrian Siege - Engines, Sumer vol. XXI,
A Journal of Archaeology and History in Iraq .
1965 Pl. I , A and B.

عن :



Olmead, A. T. History of Assyria, London, 1923.

المتغيرات الاجتماعية في المجتمع المصرى خلال الحرب العالمية الثانية

دراسة تم عرضها فى الموسم الثقافى

للجمعية المصرية للدراسات التاريخية ١٩٨٥/٨٤

دكتور محمد صابر عرب

مدرس التاريخ الحديث والمعاصر
بجامعة الأزهر

لعل من الدراسات التى ما تزال فى حاجة الى مزيد من اهتمام الباحثين والمؤرخين — هى دراسة التاريخ الاقتصادى والاجتماعى للمجتمع المصرى ، وعلى ما أعنتقد فان المجتمع المصرى لم يشهد طوال فترة التاريخ الحديث طفرة مفاجئة فى شتى مناحى الحياة كالتى شهدتها فترة الحرب العالمية الثانية .

لقد شاعت الظروف أن تتدلح الحرب العالمية الثانية ومصر مكبلة بمعاهدة ١٩٣٦ ، تلك المعاهدة التى ألزمت مصر باعلان الأحكام العرفية ، حيث أتيحت الفرصة لبريطانيا لكى تطلق يدها ليس فى الشئون السياسية فقط ، بل فى الشئون الاقتصادية أيضا واخضاع اقتصاد مصر لخدمة الجيوش المتحالفة ، واذا كانت الحكومة المصرية قد أعلنت الأحكام العرفية منذ بداية الحرب وبدا هذا واضحا فى العديد من القرارات الاستثنائية الا أن ما ترتب على تلك الاجراءات من ردود فعل داخل المجتمع المصرى يعد بعدا اجتماعيا واضحا ، حيث عاشت الجماهير فى حالة أشبه بالمأساة وانتشر الهمس بين أوساط المصريين البسطاء بأن أركان الحرب البريطانية قد اقترحت على الحكومة المصرية إرسال

جيش من المتطوعين لخوض غمار الحرب على الجبهة الأوربية ، كما تردد فى ريف مصر بأن الدواب والمواشى سوف تصادر ، وأن مديرى المديرىات المصريين سوف يستبدلون بضباط انجليز (١) .

وعلى الرغم من أن الحكومة البريطانية قد حاولت فى العديد من المناسبات أن تكذب هذه الدعايات الا أنها لم تستطع بأى حال أن تقلل من حجم الكراهية الشديدة التى يكنها المصريون للاحتلال ولم تتمكن الحكومات المصرية المتعاقبة خلال فترة الحرب من أن تبدد من حالات القلق النفسى الذى سيطر على كل فئات الشعب ولا شك أن حالة الحرب وسيطرة الدول المحاربة على البحار قد جعلت مصر فى عزلة اقتصادية عن العالم ولم تتمكن من تصريف حاصلاتها الزراعية وخصوصا القطن الا الى بريطانيا والولايات المتحدة الأمريكية لدرجة أن انخفض سعر قنطار القطن الى ٢٠ ريال بينما كان يباع فى الأسواق الأجنبية الأخرى بخمسة وثلاثين ريالاً (٢) .

وبالرغم من أن الحكومة البريطانية قد قدرت أهمية الاقتصاد الزراعى المصرى وضرورة توجيهه لسد العجز الواضح فى المواد الغذائية بسبب صعوبة النقل البحرى (٣) الا أن السياسة البريطانية قد أرجعت تردى الحالة الزراعية فى مصر الى دعايات المحور التى تحاول اقناع المصريين بأن سبب شقائهم هم البريطانيون والذين ينتهزون فرصة لحرب ويتحكمون فى أسعار القطن طبقاً لمصالحهم الخاصة .

(١) مارسيل كولومب ، تطور مصر ١٩٢٤ — ١٩٥٠ ترجمة زهير الشايب القاهرة ١٩٧٢ ص ١١٨ ، روز اليوسف ١٢ يولية ١٩٤٤ .

(٢) الوفد المصرى ١٢ اغسطس ١٩٤١ .

(٣) وثائق الخارجية البريطانية برقية رقم ١٣٦٢ من لامبسون الى هاليفاكس ٨ نوفمبر ١٩٣٩ .

ويضيف السفير البريطانى فى تقريره : « أنه لابد من دحض هذه المقولة العدائية •• ومن باب العدل أن نعترف بأن الحرب قد جلبت الشقاء على الشعب المصرى ومن الخطر أن نترك المصريين تحت شعور الاحساس بالظلم ، وخصوصا وأن ما يردده رجل الشارع العادى يتفق بصورة كبيرة مع ما يردده الأعداء (٤) •

وثقة من بريطانيا فى أن مصر لن تتمكن من ايجاد سوق عالمى لتصريف انتاجها بسبب التكتلات الدولية فقد تحكمت فى سوق القطن المصرى بلا أى منافسة وعجزت الحكومة المصرية عن ايجاد سوق بديل لهذا المحصول الذى يعد عمود الاقتصاد للشعب المصرى (٥) •

ومن الطريف أن الصحف البريطانية قد حاولت تبرير فرض هذا السعر المنخفض بحجة أن رفع أسعار القطن لا يفيد سوى حفنة من الباشوات مما أثار قلق هؤلاء الباشوات ، حيث انبرت صحيفة الوفد المصرى قائلة : لمصلحة من يريدون بذور بذور الشقاق بين طبقات المجتمع المصرى واحداث مشكلة اجتماعية من أعقد المشكلات التى أقلق بالأمم كثيرة » (٦) •

وفى الوقت الذى انخفضت فيه أسعار القطن المصرى انخفاضا ملحوظا فقد ارتفعت أسعار باقى المواد الغذائية الأخرى وأهمها القمح ، ولذا فقد بادر مجلس النواب بتشكيل لجنة شئون القطن والمحاصيل الزراعية وخرجت اللجنة بالعديد من التوصيات التى تعبر عن تردى

(٤) المصدر السابق •

(٥) مضابط مجلس الشيوخ — دور الانعقاد السادس عشر جلسة ٨ سبتمبر ١٩٤١ من كلمة النائب يوسف الجندى ص ٨٢٢ •

(٦) صحيفة الوفد المصرى ٢٣/٨/١٩٤١ •

الأوضاع الاقتصادية والاجتماعية ، حيث اعتبرت اللجنة فى احدى توصياتها « أن ريع الزراع يقدر بقيمة التبن فقط » (٧) •

وعلى حد قول أحد الأعضاء تعليقا على هذه الحقيقة الخطيرة :
« لقد كانت اللجنة مسرفة جدا فى تقريرها لأن ارتفاع أسعار السماد وفرض الضريبة الجديدة على الأرض الزراعية يحول دون حصول الفلاح حتى على قيمة التبن » (٨) •

ووفقا لتدهور الحياة الاقتصادية فى مصر عموما وفى القرية المصرية على وجه الخصوص فلقد تدهورت الأوضاع الاجتماعية للفلاح المصرى وخصوصا عامل اليومية حيث انخفضت أسعار العمال الزراعيين الى حد يصعب على العامل أن يوفر قوت يومه ولذا فقد شهدت القاهرة ومدن القناة حيث توجد معسكرات الجيش البريطانى أكبر عملية هجرة شهدتها مصر خلال النصف الأول من هذا القرن •

ولقد شهد المجتمع المصرى خلال الحرب أسلوبا جديدا من الاستغلال ضاعف من تدهور الأوضاع الاجتماعية وهو أسلوب المضاربة بالأراضى الزراعية ، حيث كان استئجار الأراضى الزراعية ثم اعادة تأجيرها أكثر ربحا بالنسبة لكبار ملاك الأراضى (٩) •

وفى محاولة من حكومة مصطفى النحاس لمواجهة تلك الحالة المتردية فقد شكلت لجنة مصرية انجليزية بناء على اقتراح السفير البريطانى بهدف شراء القمح بسعر ثلاث جنيهات للأردب ثم بيعه

(٧) مضابط مجلس النواب الجلسة ٤٦ ، ١٦ يونية ١٩٤٧ ص ١٤ ،

١٥ •

(٨) المصدر السابق من كلمة النائب جلال حسين •

(٩) رفعت السعيد ، تاريخ المنظمات اليسارية ص ٣٤ •

للجمهور بنصف هذا الثمن عن طريق البطاقات التى أعدت لهذا الغرض (١٠) •

الا أن تلك المحاولة لم يقدر لها النجاح سواء بسبب اعتماد جيوش الحلفاء فى أوقات كثيرة على الحاصلات الزراعية المصرية بالاضافة الى قلة المعروض بسبب نقص السماد لعدم امكانية الاستيراد أو بسبب التلاعب فى تلك البطاقات بسبب السياسية الحزبية التى سلكها الوفد •

وعلى الرغم من أن الحكومة البريطانية فى محاولة منها لتبديد حالة القلق التى سيطرت على الشعب المصرى فقد أصدرت بيانا نشرته معظم الصحف المصرية يحمل حملة شديدة على الدعايات المحورية التى يثبته الأعداء من أن وجود القوات المتحالفة هو سبب نقص الغذاء فى مصر وشمل البيان ما يفيد من أنه لا علاقة بين الأزمة الغذائية المتردية فى مصر والقوات المحاربة مؤكدا على أن الحكومة البريطانية قد قامت بتقديم العديد من المواد الغذائية الى الحكومة المصرية (١١) •

وتبدو المغالطات واضحة فى بيان الحكومة البريطانية واذا تغاضينا عن حقيقة مؤكدة وهى أن مصر كانت تصدر فائضا من احتياجاتها الغذائية قبل الحرب يقدر بعشرة ملايين من الجنيهات بخلاف القطن الذى يمثل حلب الاقتصاد المصرى اذا تغاضينا عن كل ذلك وتركنا الأرقام لتتق بمداولها ، حيث بلغت الأرصدة الاسترلينية المستحقة الدفع على الحكومة البريطانية سنة ١٩٤٥ أربعمائة وخمسين مليوناً من الجنيهات وهذه الأرصدة جميعها نظير مواد غذائية وقطنية (١٢) • وكانت سببا من أسباب التضخم وهبوط القيمة الشرائية للنقد مما أدى الى الغلاء

(١٠) مضابط مجلس النواب الجلسة الثامنة ١٢ يناير ١٩٤٣ ص ٢٦٤

(١١) الأهرام ، المصرى ٢١ فبراير ١٩٤٢ •

(١٢) مضابط مجلس النواب دور الانعقاد غير العادى ١٠ أكتوبر

١٩٤٥ ص ٣٤ •

الفاحش فى الأسعار وارتفاع تكاليف المعيشة حيث بلغ هذا الارتفاع مع نهاية الحرب الى ٣٥٠٪ عما كانت عليه قبل الحرب على الرغم من أنها لم تزد فى انجلترا عن ١٣٥ فى المائة وفى الولايات المتحدة عن ١٤٥ فى المائة فى الوقت الذى كانت فيه مصر تنتج حاجاتها من المواد الغذائية والبلاد التى تنتج هذه الحاجات كجنوب افريقيا واستراليا لم تزد تكاليف المعيشة فيها عن ١٢٠ فى المائة (١٣) .

ووفقا لشعار ضرورات الحرب والذى تبنته الحكومات المصرية المتعاقبة خلال الحرب فقد أمكن للعديد من المضاربين وتجار السوق السوداء وسماسرة الحروب من السيطرة على قطاعات كبيرة من الاقتصاد المصرى عن طريق أذونات الاستيراد والتصدير مما لازمه بالضرورة فروق هائلة فى متوسط الدخول نتج عنه تردى واضح فى الحياة الاجتماعية المصرية .

ولقد أدركت حكومة الوفد خطورة الموقف فى القطاع الزراعى ، ولذا فقد تقدمت بمشروع تجميد الأقساط المتأخرة والمستحقة للبنك الزراعى المصرى والبنك العقارى وبنك الأراضى الى نهاية ديسمبر ١٩٤٢ (١٤) ، ولعل الهدف من هذا القانون كان بسبب تفتش معاملات الربا وعجز الفلاح عن السداد وبالتالي الاقدام على بيع الأراضى لصالح المرابين وأغلبهم من عملاء الباشوات مما هدد بضخام الملكيات الصغيرة (١٥) .

(١٣) مجلة روز اليوسف ٢٤ فبراير ١٩٤٥ .

(١٤) مضبطة مجلس النواب الجلسة السابعة ٥ ، ٦ يناير ١٩٤٣ ص ٢٠٤ .

(١٥) مضابط مجلس الشيوخ دور الانعقاد التاسع عشر ص ١٦٨ .

وبصدد الملكيات الزراعية وتطورها تبدو عدة حقائق غاية فى
الخطورة من أهمها :

أولا : أن كبار الملك (أى الذين يملكون ٥٠ فداناً فأكثر) وعددهم
١٢ر١٨ كانوا يملكون ٢ر٥٠٨ر٢٨٦ فداناً (١٦) .

ثانيا : أن مقدار الأراضى التى يملكها كبار الملك كانت فى زيادة
مستمرة وهذه الزيادة لا يمكن أن تكون الا على حساب صغار الملك
الذين يفقدون أملاكهم . ووفق الاحصاءات الرسمية فلقد كان كبار
الملك يملكون فى سنة ١٩٣٩ ٢ر٥٠٨ر٢٨٦ فداناً وفى سنة ١٩٤١
٢ر٥٠٨ر٢٨٦ فداناً وفى نفس الوقت قل عددهم من ١٢٢٤٩ فى سنة
١٩٣٩ الى ١٢٠١٨ فى سنة ١٩٤١ (١٧) وفى سنة ١٩٤٣ قل عددهم الى
١١ر٢٤٤ وتضمنت المساحة التى يمتلكونها ٣ر١١١ر٤١٥ فداناً .

ثالثا : لقد انخفضت قيمة سعر الفدان من الأراضى الزراعية الى
النصف تقريبا عن نظيره قبل سنة ١٩٣٨ (١٨) ولذا فقد شهدت الفترة من
سنة ١٩٣٩ وحتى أوائل ١٩٤٤ أكبر تحول فى شكل الملكيات الزراعية
وكانت جميع هذه التحولات تتم لصالح كبار الملك الذين كانوا لا يقطنون
القرية وانما كانوا يمارسون دورا اقتصاديا خطيرا عن طريق وكلائهم
فى القرية .

ونظرا لأن الظاهرة كانت صارخة بسبب ما ترتب عليها من هزات
اجتماعية عنيفة لذا كان لزاما أن يعاد النظر فى الفروق الطبقيّة

(١٦) ملحق بمضبطة مجلس الشيوخ دور الانعقاد التاسع عشر
حص ١٦٥ ، ١٦٩ ، (مذكرة تفسيرية للقانون) .

(١٧) المصدر السابق .

(١٨) روز اليوسف ١٦ مارس ١٩٤٥ .

الشاسعة داخل المجتمع المصرى ومن هنا فقد قدم النائب محمد خطاب
عضو مجلس الشيوخ بمشروع قانون يحول دون شراء الأراضى للذين
زيدت أملاكهم على خمسين فدانا (١٩) .

واعتقد أن حكومة الوفد عقب ٤ فبراير لم تدرك الدلالات
الاجتماعية التى تركتها آثار الحرب حيث زادت الهوة بين الأغنياء
والفقراء فما بين عامى ١٩٤٠ — ١٩٤٤ وارتفع عدد أصحاب الملايين فى
مصر من ٥٠ الى ٤٠٠ وزادت الودائع فى البنوك من ٤٥ الى ١٢٠ مليون
من الجنيهات (٢٠) .

وعلى الرغم من نمو الصناعات المصرية خلال فترة الحرب بمعدل
٥ر٥٪ سنويا وواكب هذا ارتفاع نسبى فى متوسط دخل الأجور الا أن
هذا الارتفاع لم يكن يمثل القيمة الفعلية لارتفاع الحاجات المعيشية .
ففى الوقت الذى وصل فيه متوسط دخل العامل شهريا الى ٢٩٣ قرشا
فقد ارتفع سعر أردب القمح فى السوق السوداء الى سبعة جنيهات ،
وفى أحيان كثيرة الى عشرة جنيهات (٢١) .

وعلى ضوء الاعتبارات العديدة التى اقتضتها ظروف الحرب فقد
كان من الطبيعى أن يواكب هذا نموا ملحوظا فى الصناعة وخصوصا
فى الصناعات ذات الطابع الاستهلاكى ، الا أنه من الملاحظ تركز الانتاج
الصناعى فى يد قلة من الرأسماليين المصريين بعد أن انعدمت المنافسة

(١٩) المصدرين السابقين .

(٢٠) د. عمر عبد العزيز تاريخ العرب الحديث والمعاصر القاهرة
سنة ١٩٨٠ ص ٥١٤ .

(٢١) مضبطة مجلس النواب — الجلسة الثامنة والأربعون ١٤ يوليو
١٩٤٣ ص ٢٣٣٧ .

بينهم وبين أصحاب المصانع الصغيرة وتفسيرا لهذه الظاهرة ، التى تركت بعدا اجتماعيا خطيرا على المجتمع المصرى خلال تلك الفترة فمن الممكن ردها الى ظهور سياسة الاحتكار فى أشكال متعددة ولفئة ارتبطت مصالحها ببعض العناصر وثيقة الصلة بالحكومة بالاضافة الى اعتماد حكومة الوفد بدا من سنة ١٩٤٢ على بعض العناصر الرأسمالية التى كان من الصعب عليها أن تتجاهل مصالحها الاقتصادية وفى الوقت نفسه فقد ارتبط عدد كبير من الرأسماليين بمصالح الاحتلال الذى سهل لهم الحصول على بعض الامتيازات التى عجز أصحاب المصانع الصغيرة من الحصول عليها •

وفى الوقت الذى شهدت فيه البلاد نموا ملحوظا فى كافة المرافق الاقتصادية فان هذا النمو لم يواكبه تغيرا اجتماعيا بل على العكس فقد تدهورت الأوضاع الاجتماعية لدرجة أن أربعة ملايين شخص من سكان مصر كان يعيش الفرد منهم بإيراد يقل عن جنيه واحد فى الشهر ، وفى الوقت نفسه فقد كانت الضرائب غير المباشرة التى يقع عبؤها على الطبقات الفقيرة تمثل ٧٥٪ من الايرادات العامة وأن مرتبات الموظفين تستغرق ٤١٪ من اجمالى مصروفات الدولة (٢٢) •

وتعرضت البلاد لحالة من النهب لصالح البريطانيين وبعض الرأسماليين المصريين وعلى سبيل المثال فان السلطات البريطانية استغلت فرصة ربط الجنيه المصرى بكتلة الاسترليني ولجأت الى اصدار سندات على الخزانة البريطانية واستخدامها كغطاء مالى لما يصدر من أوراق نقدية مصرية تتسلمها السلطات البريطانية لتشتري بها ما تريد من

(٢٢) حافظ عفيفى . على هامش السياسة المصرية ص ١٦٥ .

السوق المصرية وتسدد بها أجور جنود الاحتلال والعاملين فى المعسكرات وقد أدى ذلك بطبيعة الحال الى تزايد شديد فى كمية الصادر من النقد الورقى (٢٣) .

بالإضافة الى أن مصلحة الجمارك قد أعفت السلطات البريطانية فى مصر من ضرائب مستحقه على السلع المستوردة طيلة فترة الحرب بلغت قيمتها ٦١٧٧٢ر٧٩٠ جنيها مصريا • أما مجموع الضرائب التى تتازلت الحكومة المصرية عن تحصيلها من البضائع المصدرة فبلغت قيمتها ١٠ر١٨٨٨ر٢٢٩ جنيها مصريا (٢٤) .

ومن الطبيعى أن يواكب كل هذا ارتفاعا ملحوظا فى الأسعار ونقصا أكيدا فى الدخل القومى بدا هذا واضحا فى عدم مقدرة الحكومة على استيعاب الكم الهائل من المشاكل الاقتصادية والاجتماعية الناتجة عن الحرب •

وفى الوقت الذى عجزت فيه قطاعات كبيرة من الشعب المصرى عن فهم مقولة أن بريطانيا تحارب من أجل الديمقراطية فى العالم — كان المجتمع المصرى يشهد تحولات اجتماعية فى كافة أنماط الحياة المختلفة ، لعل من أهمها انصراف أعداد هائلة من العمال المنتجين فى شتى المؤسسات الصناعية الصغيرة الى مؤسسات أخرى ذات طابع استهلاكى •• وارتباط ذلك بفكرة الانتماء القومى ، تلك الفكرة التى

(٢٣) راشد البراوى ، محمد عليش . التطور الاقتصادى فى مصر ص ٢٨٣ .

(٢٤) د/ رفعت السعيد تاريخ المنظمات اليسارية فى مصر ١٩٤٠ — ١٩٥٠ ، ص ٥١ .

كانت تتنامى فى ظل المشروعات القومية الكبيرة .. الا أن الارتقاع الباهظ فى تكاليف الحياة قد دفع تلك الجموع العمالية الى البحث عن عمل آخر ، حتى ولو لم يكن فى نفس التخصص طالما أنه يدر عائداً مناسباً .

وبينما كل القوى السياسية المصرية قد انشغلت بالمزايدات الكلامية فقد كانت الفرصة مهيأة لظهور قوى أخرى احتلت حيزاً هاماً على مسرح الأحداث المصرية ونعنى قوى اليسار حيث الدعاية السوفيتية وقد حققت قدراً كبيراً من النجاح وغالباً وبدون قصد فقد كان الأمريكيون والبريطانيون يقومون بمهمة الدعاية للسوفييت والتأكيد على تطورهم العسكرى ، وتقدمهم الاجتماعى والاقتصادى وعللوا هذه الطفرة فى حياة المجتمع الروس بالثورة الروسية التى تمكنت من استيعاب كل المشاكل الاجتماعية للمواطن الروسى^(٢٥) ، وكان من الطبيعى فى مثل هذه الظروف أن تنتشر وبسرعة الأفكار الاشتراكية والماركسية وخصوصاً بين الطبقات الاجتماعية التى أدركت حجم التدهور الاقتصادى والسياسى للمجتمع المصرى ، وعلى الرغم من أن الأفكار اليسارية فى مصر لم تكن وليدة الحرب العالمية الثانية ، إنما ترجع جذورها الى نهاية العقد الثانى من هذا القرن ، حيث نشأ الحزب الشيوعى المصرى الذى تمكن من ضم مجموعات من العمال الذين أسهموا فى ثورة ١٩١٩^(٢٦) .

الا أن ظروف الحرب وما ترتب عليها من علاقات شاذة خلقتها

(٢٥) وثائق الخارجية الأمريكية وثيقة ٢٤٢ من الخارجية الأمريكية الى كيرك فى القاهرة ١٤/١٠/١٩٤٣ .

(٢٦) د/ رفعت السعيد ، تاريخ الحركة الاشتراكية فى مصر القاهرة ١٩٧٥ ص ١٥٨ .

معاهدة ١٩٣٦ قد ساعد على ايجاد المناخ المناسب الذى ترعرت فيه تلك الأفكار بشكل أقلق كل القوى السياسية التقليدية ، ولعل الاحتلال البريطانى قد تغاضى عن النشاط الشيوعى فى مصر على أمل الاستفادة من تأثيرهم الفكرى والسياسى المناهض للفاشية ، على الرغم من أن شعارهم أنهم ضد الفاشية ولكن ليسوا مع الانجليز (٢٧) .

ومع اقتراب الحرب من نهايتها بدأت نذر البطالة تتجمع من جديد ، لأن وجود القوات المتحالفة فى مصر قد أوجد العديد من فرص العمل حتى وصل عدد العمال المصريين العاملين ضمن القوات المتحالفة الى ٣٠٠٠ ر ٣٠٠ ألف سنة ١٩٤٣ (٢٨) .

ونظرا لحاجة القوات المتحالفة الى العمال المصريين فقد كانت تدفع اليهم أجورا سخية نوعا ما وفجأة يتوقف هذا الدخل وتتحول هذه الأعداد الهائلة الى البطالة ، وهكذا اقبلت الموجة الشيوعية لتجد الساحة العمالية مهياة ، ولذا فقد بدأ المد الشيوعى يعرف طريقه بصورة مكثفة نحو العمال .

ولأول مرة فى تاريخ الانتخابات البرلمانية المصرية سنة ١٩٤٤ شهدت البلاد مرشحين يعلنون أنهم يدخلون المعركة الانتخابية على المبادئ الاشتراكية ويلصقون على الجدران اعلانات يقولون فيها :

انتخبوا المرشح الاشتراكى الذى سيناضل فى سبيل الاشتراكية ، وقد انتشرت هذه الاعلانات فى الاسكندرية بصفة خاصة ، حيث تقدم ثلاثة من العمال تؤيدهم مجموعة كبيرة من سكان دوائريهم (٢٩) .

(٢٧) د . رفعت السعيد ، اليسار المصرى ص ٢٧٨ .

(٢٨) د . رؤوف عباس ، الحركة العمالية ص ٢٠١ .

(٢٩) السياسة ، أخبار اليوم ١٠/١٢/١٩٤٤ .

وعلى العموم فان انتشار الاتجاهات اليسارية فى المجتمع المصرى خلال تلك الفترة يعد دليلا أكيدا على وجود هلك هائل فى كل جوانب الحياة المصرية الاقتصادية واجتماعية وسياسية •

وان مجمل نشاط هذه التنظيمات لم تبعد الفكر النظرى المنقول عن مؤلفات — لينين وماركس وستالين — وعلى الرغم من أن عددا كبيرا من المنضمين الى هذه التنظيمات من المصريين المسلمين قد بهرتهم الجوانب الاجتماعية والاقتصادية الا أنهم لم يؤمنوا بالفكر المادى ، حيث دعوا الى التمسك بتعاليم الاسلام مع اعتناقهم لفكرتى العدل الاجتماعى والاقتصادى (٣٠) •

ونظرا لأن قوات الحلفاء فى مصر لم تكن تخضع للقضاء المصرى فى المواد الجنائية (٣١) • فقد تعددت حوادث الاعتداء من الجنود الانجليز والأمريكان على الأهالى المصريين وتتنوعت حالات اعتداء ما بين القتل وهتك العرض الى اقتحام المنازل والسرقة وشهدت مناقشات مجلس النواب والشيوخ اعتراضات مدوية بسبب سلبية الحكومة ازاء هذه التصرفات العاشمة (٣٢) •

ونظرا لتغلغل الوحدات العسكرية داخل القرى والمدن المصرية وما يترتب على ذلك من وقوع العديد من المشاكل فقد تقدم أحد أعضاء مجلس النواب بسؤال الى رئيس الحكومة عن مدا امكانية نقل تلك

(٣٠) تاريخ المنظمات اليسارية مرجع سبق ذكره ص ٣٥٧ •

(٣١) مضابط مجلس الشيوخ دور الانعقاد التاسع عشر ص ٣٧
(نوفمبر ١٩٤٣) ، الأهرام ٣ مارس ١٩٤٣ •

(٣٢) مضابط مجلس النواب الجلسة السابعة عشر ١٦ مارس ١٩٤٣ ص ٧٤٠ ، جلسة أول يونيو ١٩٤٣ ص ١٨٥١ •

الوحدات بعيدا عن الأحياء السكنية (٣٣) ، وقد تذرعت الحكومة بظروف الحرب وحاجة الحلفاء الى القواعد العسكرية القريبة من التجمعات السكنية بسبب الامداد والتموين وغير ذلك . . وعلى حد تعبير رئيس الوزراء : ان الشعب المصرى قد ضحى بالكثير وبمزيد من الصبر ستفى الحليفة بكل مطالبنا (٣٤) وعلى ضوء تطور العلاقات المصرية البريطانية حتى نهاية الحرب فقد ثبت عكس هذا الاعتقاد وبدا واضحا أن معاهدة ١٩٣٦ كانت ، ترضية للزعامات المصرية لم يترتب عليها أى نوع من الاستقلال بل استباححت بريطانيا لنفسها كل موارد الحياة المصرية مما ترتب عليه احداث خلل فى الاقتصاد المصرى لازمة بالضرورة عدم تناسب فى الخدمات العامة مما أثار ألوانا عديدة من المتاعب الاجتماعية وعلى حد تعبير وزير المالية فى بيانه أمام مجلس النواب حيث قال : « ان للحرب أثرا أشد وأخطر ، ولعل أخطر الشرغية أنه يؤدى الى تضخم خلقى حيث يسرى التضخم من مرافق الناس الى أخلاق الناس ومن قيم المال الى قيم الرجال حيث تتضخم المطامع والشكايات ويندفع البعض مخاطرا ، مغامرا ، مقامرا ويبدو ذلك فى التهرب والتهريب واستغلال ضعف الضعفاء وحاجة الفقراء وهكذا ينزلق الضعفاء لا يعينهم الا أن تتضخم بطونهم ولو جرد الفقير من الطعام (٣٥)

وقد يتصور البعض أن الحرب قد أحدثت تقدما ملحوظا فى شتى المجالات الاقتصادية (٣٦) ، الا أن ما واكب ذلك من تناقضات اجتماعية

(٣٣) المصدر السابق ٢٣ ديسمبر ١٩٤٣ ص ٣٥٥ .

(٣٤) نفس المصدر ص ٣٥٨ .

(٣٥) مضابط مجلس النواب الجلسة الخامسة ٢٧ ابريل ٤ مايو ١٩٤٢ من بيان مكرم عبيد ص ١٠٠ .

(٣٦) د. عبد العظيم رمضان الصراع بين الطبقات فى مصر بيروت ١٩٧٨ ص ١٠٧ .

وبلورة ما يسمى بالصراع الطبقي لأول مرة فى مصر يعد أمرا خطيرا وذلك لازدياد حدة الفوارق بين من يملكون ومن لا يملكون الى جانب موجة الغلاء وحدة التضخم ولذا فقد اهتزت المبادئ الأخلاقية •

ويعتقد البعض أن تزدى الأوضاع الاجتماعية فى القرى المصرية خصوصا كان بسبب المعتقدات الاستسلامية التى نجح كبار الملاك فى نشرها باسم الدين وبواسطة استطلاع كبار الملاك اخضاع الفلاحين لنفوذهم الاقتصادى والاجتماعى (٣٧) •

وعلى الرغم من أن الغالبية العظمى من الفلاحين كاد أن يقتلها البؤس والفقر إلا أن ذلك كان راجعا الى السياسات الخاطئة للحكومات المصرية خلال فترة الحرب التى أهملت فى برامجها النهوض بحالة الفلاح المصرى والارتفاع بمستواه الاجتماعى بالاضافة الى أن كل الأحزاب المصرية قد افتقدت الى البرنامج الاجتماعى الذى يستهدف رفع مستوى الفلاح المصرى •

وعلى الرغم من أن بعض الحكومات قد وضعت يدها على أساس المشكلة ، حيث أشارت الحكومة فى أحد تقاريرها الى أهمية التضامن الاجتماعى بين أبناء الوطن على اعتبار أنه لا يمكن أن يتحقق هذا الهدف الا بتحقيق العدالة الاجتماعية برفع مستوى الحياة العامة لطائفة كبيرة من أبناء هذا الوطن تتن تحت أثقال الفقر والمرض والجهل ولا بد من تكاتف كافة الجهود بهدف علاج هذه الأدواء الثلاثة (٣٨) •

(٣٧) المرجع السابق ص ١٨٠ •

(٣٨) مضابط مجلس النواب الجلسة ٣٢ ٣ مارس سنة ١٩٤٠

ص ١٠٠٧ •

الا أنه لم تبذل أى جهود عملية لتحقيق هذه الغاية مما يدفعنا الى الاعتقاد بأن هذا الاعلان كان مجرد المزايدة •

ولم يكن العامل المصرى أحسن حالا من الفلاح •

وعلى الرغم من أن العديد من المؤسسات الصناعية قد حققت ربحا كبيرا خلال سنوات الحرب وصل فى بعض الحالات الى عشرة أمثال رأس المال المستثمر (٣٩) •

الا أن دخل العامل المصرى قد ارتبط بالارتفاع المستمر بالمواد التموينية الأساسية ومن خلال الجدول التالى يمكن معرفة مستوى الحياة التى يحيها العامل المصرى •

اسم الشركة	ايرادتها فى عام ١٩٤٢	متوسط أجر العامل فى اليوم
شركة السكر	٤٣١ر٢٥٥	١٧ قرش
شركة الترام	٢٦٠١ر١٣٤	١٢ قرش
شركة النور	٦٨ر٩٢٠	٨ قروش
شركة الأسمنت	١٩٤٥ر٢٣٨	١٤ قرش
شركة المياه	١١٢٥ر٦٧١	١٢ قرش
شركة استخراج الفوسفات	٤٣٠ر٠٠٠	١٤ قرش
شركة زيت البترول	٤٥١ر٩١٣	١٠ قروش
شركة أتوبيس القاهرة	٧٠ر٠٧٣	١٢ قرش
شركة البيرة	٧٠٣ر٢٢٥	٨ قروش
شركة جناكليس	٢٨٣ر٤١٤	١٢ قرش (٤٠)

(٣٩) السياسة ، الكتلة ٢٨ فبراير ١٩٤٣ •

(٤٠) مجلة روز اليوسف ١٦ مارس ١٩٤٤ •

ويلاحظ أننا إذا وضعنا فى الاعتبار أجرة العمال الدائمين ومعظمهم يعولون أسرا لا يقل عدد أفراد الواحد منها عن ثلاثة ، كما أغفلنا طبقة العمال الذهورات — الذين صدر من أجلهم الأمر العسكرى الذى حدد خمسة قروش كحد أدنى لأجورهم وكانوا قبل ذلك يتناولون أجرا يوميا يتراوح بين قرشين وأربعة قروش ، على ضوء كل ذلك يتبين مدى الغبن الذى يقع على عاتق الطبقة العاملة والتي تعتبر عصب الحياة الاقتصادية .

وعند فحص طلاب الجامعة وهم من وسط يمثل طبقات الشعب العليا — لم يوجد من بينهم من يصلح للخدمة العسكرية سوى نسبة لا تزيد على السدس أما خمسة الأسداس الأخرى فهم غير صالحين جسمانيا للخدمة العسكرية وأما باقى طبقات الشعب فان الأمراض تفتك بهم — بنسب لا تتفق والحياة الآدمية فقد بلغ عدد المصابين بالرمد الحبيبي ١٤٥٠٠٠ ر ١٤٥٠٠٠ أى بنسبة ١٠٪ من عدد السكان وعدد المصابين بالبلهارسيا ١٢٠٠٠ ر ١٢٠٠٠ أى بنسبة ٧٥٪ من السكان وعدد المصابين بالديدان المعوية الأخرى ٨٠٠٠ ر ٨٠٠٠ أى بنسبة ٥٪ من السكان (٤٠) .

ومن خلال بحث أعده الدكتور عبد الواحد الوكيل (وهو حجة فى شئون الصحة العامة) حيث قال :

« اذا جمعنا أمراض المصريين لوجدنا جملتها أكثر من خمسين مليوناً أى أنها تكفى لإصابة شعب من خمسين مليون نفس بحيث يصيب كل شخص منهم مرض واحد فاذا وزعناها على المصريين أصاب كل شخص فى المتوسط ثلاثة أمراض فى وقت واحد (٤٢) .

وتناولت احدى الصحف العلاقة بين تدهور الحياة الاجتماعية

(٤١) د. محمد بهى الدين بركات . صفحات من التاريخ ص ٤٠
دار الهلال سنة ١٩٦١ .

(٤٢) المرجع السابق ص ٤٠ ، ٤١ .

وحالة التسول التى انتشرت فى أنحاء القطر وأرجعت السبب فى انتشار جماعة المتسولين الذين يلجأون الى الاستجداء عن طريق السواعد المشوهة والأرجل المبتورة الى الغلاء المستمر فى وسائل الحياة اليومية وعدم الربط بين هذا الارتفاع والأجور مما أدى الى ترك العمل وتفضيل حياة التسول (٤٣) .

ونظرا لسوء التغذية وظهور ما يشبه المجاعة فى بعض مناطق القطر المصرى فقد انتشرت العديد من الأمراض وخصوصا مرض الملاريا والذى بدأ بصورة واضحة فى مناطق الجنوب وخصوصا فى بلاد النوبة وبعض مناطق مديريتى قنا وجرجا بدأت فى أكتوبر ١٩٤٢ ولأن الحكومة كانت تعلم جيدا أن سوء التغذية قد لعب دورا كبيرا فى حدوث المرض فقد أقرت الحكومة مبلغ ٤٣٠٠ جنيه لتوزيع الأغذية على فقراء المناطق الموبوءة بحيث نال كل فقير مريض كيلة من الأذرة العشوية وأقة من زيت بذرة القطن ونصف أقة سكر (٤٤) .

ويبدو أن الحكومة لم تكن فى حالة تمكنها من القضاء على هذا المرض الذى بدأ ينتشر فى معظم مناطق جنوب مصر ولا أدل على ذلك من أن المبالغ التى خصصت لهذا الغرض لم تكن كافية للحد من هذا الوباء اللعين فقد اعتمدت الحكومة مبلغ ١٥٠٠٠ جنيه لمقاومة البعوض ، ٣٠٠ جنيه ، ٢٣٣ مليما لوضع خطة واقية لمقاومة الملاريا (٤٥) .

وفى منتصف سنة ١٩٤٣ أصيب بهذا المرض أكثر السكان حتى لم ينج منه أحد فى بعض المناطق وتعذر على وزارة الصحة تحديد عدد المرضى على وجه الدقة وارتفعت نسبة الوفيات ارتفاعا يتباين تبعا للحالة

(٤٣) جريدة السياسة ١٩٤٤/٥/٥ .

(٤٤) ملحق رقم ٢ مضبطة مجلس النواب الجلسة السابعة عشر ١٦ مارس ١٩٤٣ ص ٩٣٩ ، المصرى ٢٠ مارس ١٩٤٣ .

(٤٥) المصدر السابق ص ٩٤٠ .

الاقتصادية والاجتماعية من مسكن وملبس وغذاء ووصلت نسبة الوفيات الى ٢٠٪ فى بعض المناطق ، ١٠٪ فى مناطق أخرى (٤٦) .

وعلى الرغم من أن وزارة الصحة قد أصدرت بيانا أرجعت فيه سبب ظهور وباء الملاريا الى سوء التغذية وانتشار الباعوض الا أن الأستاذ الرافعى قد أرجع سبب هذا الوباء الى دخول بعوضة (الجامبيا) من الجنوب بواسطة الطائرات البريطانية حيث يؤكد أنه قد ثبت من الحقائق والبحوث العملية أن تلك البعوضة لم توجد من قبل فى أى مكان من البلاد المصرية أو شمال السودان قبل الحرب ، فلما اشتد القتال سنة ١٩٤٢ كانت منطقة البحر الأبيض المتوسط غير مألوقة فكانت الطائرات البريطانية التى تقصد مواقع الجيش الثامن بشمال افريقيا تسلك طريق غرب افريقيا — الخرطوم — وادى حلفا — القاهرة ، ولم تكن السلطات البريطانية فى السودان بتطهير الطائرات التى تقصد وادى حلفا فمصر ، ومن هنا تسربت بعوضة « الجامبيا » الى النوبة ومنها انتشر بواسطة القطارات ووسائل الاتصال الى المديرية الجنوبية (٤٧) .

وأيا كانت الأسباب التى أدت الى ظهور هذا الوباء الا أن الحكومة المصرية لم تعط لهذا الوضع أهمية تتناسب وخطورة الموقف ويبدو هذا من المبالغ الضئيلة جدا والتى اعتمدت لهذا الغرض ومن هنا فقد استفحل الأمر وتفشى الوباء وتسبب فى وفاة ١٦٤٠٢ (٤٨) ولم تتمكن الحكومة من استئصال هذا الوباء الا فى فبراير ١٩٤٥ على عهد وزارة أحمد ماهر .

(٤٦) مجلة الصحة العامة اعداد وزارة الصحة المصرية لعام ١٩٤٢ ،

١٩٤٣ ، ص ١١٣ ، السياسة ١٦/١٢/١٩٤٤ .

(٤٧) عبد الرحمن الرافعى — فى أعقاب الثورة المصرية ج ٣ ص ١١٢ .

(٤٨) مجلة الصحة العامة مصدر سبق ذكره ص ١٤ ، الرافعى المرجع

السابق ص ١١٣ السياسة ١٦/١٢/١٩٤٤ .

أما مرض التيفوس فقد ارتفعت حالات الإصابة به أيضا ووفق بيان وزير الصحة : لقد زادت الإصابة بمرض التيفوس سنة (١٩٤٢) عن مثلها فى الأعوام السابقة ، وكان أشدها خطورة فى مديريات الوجه البحرى وبعض مناطق الوجه القبلى مما تسبب فى وفاة خمسة أطباء وهم يؤدون واجبهم ، وعندما طلب بعض أعضاء مجلس النواب احصائية بعدد الوفيات التى حدثت بسبب هذا المرض أبدى الوزير عدم امكانية حصر حالات الوفاة فى الوقت الحاضر (٤٩) الا أن بعض الصحف قد نشرت حصرا مبدئيا بعدد الوفيات التى راحت ضحية هذا المرض والذى بلغ على حد قولها ١٢ر٠٠٠ حالة خلال عام ١٩٤٢ فقط (٥٠) .

ولعل أهم الآثار الاجتماعية وأخطرها والتى كانت نتاجا طبيعيا لاختلاط المصريين بالأجانب « الأزياء العامة » وخصوصا لدى السيدات والفتيات فلأول مرة فى تاريخ مصر تخرج الفتاة المصرية شبه متبرجة ووصل الأمر الى حد ظهور المرأة المصرية شبه عارية على الشواطئ وفى الأندية العامة (٥١) ، ولذا فقد تقدم النائب محمد قرنى بك باقتراح يقضى بالزام المرأة المصرية بارتداء الزى الذى يتناسب والسلوك الاجتماعى المصرى (٥٢) .

وعلى الرغم من اعتراض بعض النواب بحجة أن هذا الاقتراح غير جدير بالنظر لتعارضه مع الحرية الشخصية المكفولة فى المادة الرابعة من الدستور علاوة على أنه لا يتمشى مع الروح الاجتماعية الحديثة (٥٣) .

(٤٩) مضبطة مجلس النواب — الجلسة الثامنة والثلاثون ١٩ أغسطس ١٩٤٢ ، ص ١٤٨٥ .
(٥٠) الأهرام ١٨ نوفمبر ١٩٤٢ .
(٥١) السياسة ٢٣/٣/١٩٤٣ .
(٥٢) مضبطة مجلس النواب — الجلسة الثلاثون ١٧ أغسطس ١٩٤٢ ، ص ١٣٨٠ .
(٥٣) المصدر السابق .

وبعرض هذا الاقتراح على مجلس النواب والشيوخ فقد حظى بالأغلبية ولذا فقد صدر القانون رقم ٣٣ لسنة ١٩٤٢ ويقضى فى مادته الأولى بأن كل سيدة مصرية بلغت من العمر ست عشرة سنة يجب أن يكون لباسها الخارجى فى الطرقات والأماكن العامة والشواطىء ساترا لأعضاء الجسم ما عدا الوجه والكفين بحيث تكون مرسلة الى الكفين واصله الى الكعبين ، وألا تكون الملابس محددة لأعضاء الجسم •

وقضت المادة الثانية : بأنه لا يجوز لسيدة مصرية بلغت العمر المنصوص عليه بالمادة الأولى أن تشاهد فى الطرق أو الأماكن العامة وهى مخاصره رجلا أو معه على أى حال منافية للأداب ، كما لا يجوز أن تخالط الرجال فى الاستحمام أو ترى على الشواطىء بلباس البحر •

المادة الثالثة : كل سيدة ارتكبت محظورا مما نص عليه فى هذا القانون تعاقب بانذارها أو ولى أمرها وإذا تكرر منها نفس الأمر يتم تحذيرها للمرة الثانية فإذا لم ترتدع يحكم عليها بغرامة قدرها عشرون جنيتها أو الحبس مدة لا تتجاوز أسبوعا (٥٤) •

ووفق المذكرة الايضاحية التى تقدم بها النائب محمد قرنى والخاصة بهذا القانون فقد بنى اقتراحه على العديد من المبررات التى كانت سببا فى استصدار قانون بهذا الشأن حيث اعتمد النائب فى مذكرته على بعض الحقائق التى ينكرها الاسلام وتتنافى مع طبيعة المرأة المصرية هومن أهمها :

٢ — ظهور المرأة المصرية وهى متبرجة متشبهة بالمرأة الأجنبية فى مظهرها •

(٥٤) قانون رقم ٣٣ لسنة ١٩٤٢ ملحق لسنة ١٩٤٢ ملحق بمضبطة مجلس النواب جلسة ١٧ أغسطس ١٩٤٢ ص ١٣٨١ ، الأهرام أول سبتمبر ١٩٤٣ •

٢ — ظهور المرأة المصرية وهى برفقة جنود وضباط جيش الاحتلال وهى فى حالة منافية للآداب العامة •

٣ — أن كل الشرائع الالهية حتمت بالنص الصريح على النساء أن يدنين عليهن من جلابيبهن وألا يبدن زينتهن الا لبعولتهن الخ (٥٥) •

ووجه هذا الاقتراح ببعض الانتقادات على اعتبار أن الحياة الاجتماعية قد قطعت شوطا بعيدا فيما يختص بالأزياء ومن العبث الرجوع بالأزياء بعد هذا التقدم الى الوراء (٥٦) •

وكان تناول قضية الأزياء فرصة لبعض النواب لكى يتحدثوا عن الجرائم الأخلاقية التى ترتكب جهارا نهارا بلا رادع أو قانون حيث لا يعاقب القانون الفتاة البالغة ستة عشر عاما اذا ارتكبت فعلا خاصا مع شاب تزيد سنه عن الثمانية عشر عاما (٥٧) •

وعلى الرغم من صدور هذا القانون الا أن المرأة المصرية قد تأثرت كثيرا بسبب الحرب وما نتج عنها من سوء الأوضاع الاقتصادية ، ووفق دراسة أعدتها مجلة « كورونيت » احدى دور الصحف الأوربية حيث أرسلت مراسليها الى القاهرة ليكتب لها عن المرأة المصرية والحرب فكتب يقول : حقا لقد تأثرت حياة البعض من الحرب الى أقصى حد ... ويا له من تأثير نشأ عنه انقلاب خطير فى حياة بعض المصريات وعلى ضوء تلك الدراسة التى أجرى بسببها العديد من اللقاءات الشخصية مع بعض النسوة اللائى اخترن مهنة البغاء واختار مراسل تلك الصحيفة بعض النماذج الآتية :

(٥٥) المذكرة الايضاحية للقانون السابق ملحق مضبطة مجلس النواب — المصدر السابق ص ١٤٢٦ •

(٥٦) من كلمة النائب أحمد الحضرى معترضا على الاقتراح (مضبطة مجلس النواب الجلسة الثلاثون) — ١٧ أغسطس ١٩٤٢ ص ١٤٠٦ •

(٥٧) المصدر السابق من كلمة النائب عبده البرتغالى •

١ - اللقاء الأول مع فتاة تعمل فى كباريه « الاكسليسيور » فى الاسكندرية واسمها كيكى ويضيف مراسل المجلة أن كيكى هذه كان اسمها « عائشة » وكانت تعيش فى قرية فى أعماق الريف المصرى وتحدثت معها طويلا وسألتها كيف حدث هذا الانقلاب فى حياتها وكيف أصبح شكلها هكذا وكيف أصبحت تتكلم الانجليزية ويسؤالها عن كل ذلك أجابت : اسألوا الحرب لأنها هى السبب ؟

٢ - واختار مراسل المجلة امرأة أخرى كانت تعمل خادمة فى احدى البيوتات الراقية ووجدت نفسها بلا مقدمات تقع فريسة للاغراءات الشديدة من جنود وضباط الحلفاء ولم تستطع أن تقاوم الكفيار والشامبانيا •

٣ - أما النموذج الثالث : فقد كان مع فتاة يبدو عليها الجمال الشرقى وبالطبع لم تذكر اسمها الحقيقى حيث اختارت لنفسها اسما جديدا « شوشو » وتؤكد تلك الفتاة أنها تنتمى الى احدى البيوتات الراقية وقد وقعت فى حب أحد الضباط الانجليز الذين يعملون ضمن الوحدات المتمركزة فى القاهرة وبعد أن مكنته من نفسها بعد أن وعدها بالزواج فقد تم نقله الى الفرقة الأولى فى الصحراء الغربية حيث لقي حتفه واختارت تلك الفتاة طريق البغاء سترا لفضيحتها وسط أهلها (٥٨) •

وعلى الرغم من اعتقادنا بأن هذا الأثر السيئ لم يشمل الا عددا محدودا من الفتيات المصريات الا أننا لا يمكن أن نغفل هذا الجانب لأهميته الخطيرة وارتباطه الأكيد بتردى الأحوال الاجتماعية وخصوصا فى مدينة الاسكندرية التى تعرضت لقصف الألمان واستشهاد المئات من الرجال واختارت بعض النسوة حياة الليل بعد أن فقدت زوجها (٥٩) •

(٥٨) دراسة عن المرأة المصرية والحرب وأعدتها مجلة « كورونيت » ونشرتها روز اليوسف ١٢ يولية ١٩٤٤ •
(٥٩) روز اليوسف ١٩ يوليو ١٩٤٤ •

وعلى الجانب الآخر فقد أعطت الحرب للمرأة المصرية بعضاً من الحرية وبعضهن قد اشترك في الحياة العامة وتعرض البعض للاعتقال^(٦٠) ويعد اعتقال السيدة / نبوية موسى لأسباب سياسية انقلاباً خطيراً في حياة المرأة المصرية وتعد محاكمة السيدة نبوية موسى أمام المحكمة العسكرية فرصة استغلتها المرأة لكي تطالب بمزيد من الحقوق العامة وفي مقدمة تلك الحقوق حق المرأة في إقامة حزب نسائي حيث صرحت الأستاذة مفيدة عبد الرحمن بأن فكرة إقامة حزب نسائي قد راودت الكثيرات من النساء المتعلّمات وفي مقدمتهن السيدات نعمت راشد ، عطيات الشافعي ، زينب لبيب وبدأت أولى جلسات الهيئة التأسيسية للحزب في أول فبراير ١٩٤٤ ودار الحديث عما يلزم الحزب من مطبوعات وقانون الحزب وغير ذلك من الإجراءات^(٦١) .

الا أن تلك التجربة على ما يبدو لم تحظ بالنجاح حيث فضل بعضهن الاشتراك في الأحزاب التقليدية حتى لا يتهمن بالتعصب من جانب الرجال^(٦٢) . ووصل الأمر الى أن بعض النسوة كفاطمة اليوسف بدأت تحت الفتيات المصريات على الاضراب عن الزواج وخصوصاً العاملات منهن بحجة أن المرأة التي قد يضطرها عملها الى التغيب عن منزلها معظم ساعات اليوم لتعود مرضاها كطبيبة أو لتعد قضاياها كمحامية أو لتشرف على مجلتها كصحفية لا يمكن أن توفق بين عملها ومنزلها ثم أضافت قائلة : أطالبكن يا حضرات الزميلات الناشئات الثائرات ، وأنصحكن بعدم الزواج اذا أردتن المجد والعمل ، تزوجن الثورة على آناية الرجل وغروره^(٦٣) .

(٦٠) المصدر السابق ٢٦ أكتوبر ١٩٤٤ ، السياسة ٢٥ أكتوبر ١٩٤٤ .

(٦١) المصري أول مارس ١٩٤٤ ، السياسة ٢٣ فبراير ١٩٤٤ ، روز اليوسف ٢٤ فبراير ١٩٤٤ .

(٦٢) روز اليوسف ٣ مارس ١٩٤٤ .

(٦٣) روز اليوسف ٢٤ فبراير ١٩٤٢ .

ويلاحظ أن قضية المرأة قد شغلت حيزا كبيرا فى ضمير المجتمع المصرى فى تلك الفترة وليس من قبيل المصادفة أن تظهر تلك الدعوات الغربية والجديدة على المجتمع المصرى وانما كان للآثار التى تركتها الحرب أكبر الأثر فى تمرد المرأة المصرية وظهور تلك الدعوات التى تعد خروجاً صارخاً على تقاليد وعادات المجتمع المصرى فى ذلك الوقت ولم تتوقف مطالب المرأة عند هذا الحد بل تبنت إحدى المجالات الدعوة الى حق المرأة فى دخول الأزهر وأجرت المجلة عدة لقاءات مع بعض الشخصيات العامة حول حق المرأة فى دخول الأزهر وكلها قد أجمعت على حق الفتاة المصرية فى دخول الأزهر •

وخلاصة القول أن الحرب العالمية الثانية (١٩٣٩ — ١٩٤٥) قد تركت آثارها فى كل نواحي الحياة المصرية ، سواء أكانت تلك الآثار بالايجاب أو بالسلب فانها قد أحدثت ردود فعل عنيفة لأنها حدثت طفرة واحدة سواء فى المجالات الاقتصادية أو الاجتماعية وما نوره من أمثلة هو من باب الاستدلال وليس من باب الحصر •

ويبدو أن حكومة الوفد قد قدرت خطورة الآثار الناتجة عن الحرب فيما يتعلق بانحراف الأخلاقيات ولذا فقد أصدر الحاكم العسكرى أمراً بالغاء البغاء الا أنه قد استثنى من هذا القرار عواصم المحافظات والمديريات « (٦٤) •

ولذا فقد تقدم أحد أعضاء مجلس النواب بسؤال الى رئيس مجلس الوزراء والحاكم العسكرى العام عن عدد بيوت الدعارة التى أغلقت فى جميع أنحاء القطر وما الذى عملته الحكومة لهؤلاء البغايا كي

(٦٤) الأهرام ، المصرى ، السياسة ١٣ ابريل سنة ١٩٤٢ (أسـر عسكرى رقم ٢٤٧) •

يصلن الى سبيل الاستقامة ولكي تكون الأسرة المصرية محفوظة فلا يصل اليها شر ؟ (٦٥) •

ولقد أجابت الحكومة بأنه تم اغلاق ٤٠٧ من بيوت العاهرات فى جميع أنحاء البلاد تنفيذا للأمر العسكرى رقم ٢٤٧ الصادر فى ١١ ابريل ١٩٤٢ ، وقد أرسلت وزارة الشئون الاجتماعية الى كل مديرية بكتاب تطلب موافاتها ببعض التفاصيل عما تعتزم المديرية اتخاذه من الاجراءات بالنسبة للبغايا اللائى ستغلق بيوتهن ، وقد اقترحت بعض المديريات تخصيص مكان لايواء البغايا تحت اشراف البوليس وتزويدهن بالمال من مجلس المديرية أو المجلس البلدى حتى يتزوجن أو يجدون عملا شريفا (٦٦) ، ولقد اقترحت الحكومة بناء على رغبات مديري المديريات تأليف لجنة من وزارتى الداخلية والصحة للنظر فى الطرق التى تسهل للمديرية تنفيذ الأمر العسكرى المذكور والتى تكفل النتيجة المنشودة من الغاء البغاء وحماية الناس مما ينجم عنه من آفات وشور (٦٧) •

ويلاحظ أن الحكومة قد حرصت على اصدار القرارات ذات الرغبة الجماهيرية حرصا منها على أن يسترد الوفد بعضا من الأرض التى فقدوها عقب ٤ فبراير ، وانطلاقا من هذا المفهوم فقد أصدر الحاكم العسكرى العام قرارا بالغاء المراهقات على سباق الخيل (٦٨) ، ويلاحظ أن حيثيات القرار لم ترجعه الحكومة الى أسباب اسلامية وانما الى منافاته للاخلاق والسلوك العام •

(٦٥) مضبطة مجلس النواب — الجلسة السابعة عشر — دور الانعقاد العادى الأول ٢٩ من يونية ١٩٤٢ ص ٦١٧ ، ٦١٨ •
(٦٦) نص خطابى مدير الغربية والفيوم الى وزير الشئون الاجتماعية ملحق بمضبطة النواب الجلسة السابعة عشرة يونية ١٩٤٢ ص ٨٥٠ •
(٦٧) مضبطة مجلس النواب — الجلسة السابعة عشر ٢٩ يونية ١٩٤٢ ص ٦١٨ •
(٦٨) المصدر السابق ص ٦١٧ •

ولما كانت الحركة العمالية قد اهترت ثقتها فى الوفد بسبب العديد من الأحداث التى لا تتفق وشعبية الوفد فقد حرصت الحكومة على كسب هذا القطاع الجماهيرى الهام ولذا فقد أصدر النحاس باشا قرارا عم على جميع قطاعات الدولة سواء أكانت قطاعات صناعية أو زراعية يقضى بجعل الحد الأدنى لأجر العامل فى اليوم الواحد خمسة قروش^(٦٩).

ولما كانت الحكومات التى تعاقبت على الحكم بدأ من سنة ١٩٣٦ قد حرصت على كسب ود العمال لأسباب سياسية وحزبية فقد حرصت حكومة الوفد سنة ١٩٣٦ على اقامة نقابة للعمال ترعى مصالحهم الا أن هذا المشروع قد تعثر اصداره بالرغم من تشكيل لجنة لوضع مذكرة تفصيلية بالمشروع وبدأ من حكومة محمود ١٩٣٨ وحتى حكومة حسين سرى قبيل حادث ٤ فبراير فقد حرصت كل الحكومات على النظر والتفكير فى مشروع تلك النقابة الا أنه لم تكن هناك خطوات جيدة للخروج بهذا المشروع الى حيز الوجود حتى كانت حكومة ٤ فبراير حيث صدرت العديد من التشريعات العمالية كان أبرزها قانون الاعتراف بالنقابات العمالية^(٧٠) . ثم أعقب ذلك قانون التأمين الاجبارى ضد حوادث العمل وقانون عقد العمل الفردى وقانون مكافحة الجهل ومحو الأمية بين صفوف الشعب^(٧١) .

أما القانون الخاص بالاعتراف بالنقابات فقد نص فى مادته الأولى على تحديد كلمة « عمال » وهم الذين يقومون بتأدية عمل نظير أجر مادي سواء أكان هذا العمل ماديا أو عقليا وسواء أكان صاحب العمل

(٦٩) المصرى ، الأهرام ٦ مارس ١٩٤٢ .

(٧٠) نص القانون ملحق بمضبطة مجلس النواب — الجلسة السادسة والعشرون — مجموعة مضابط دور الانعقاد الأول ٣ ، ٤ ، ٥ أغسطس ١٩٤٢ ص ١١٠٢ — ١١٠٥ .

(٧١) الأهرام ، المصرى ٦/٩/١٩٤٢ ، الأهرام ١٣/١٠/١٩٤٢ ، فؤاد سراج الدين ، لماذا الحزب الجديد ص ٥٨ .

شخصاً حقيقياً أو معنوياً أما فى مادته الثانية فقد حدد الأشخاص الذين لا يندرجون تحت تلك النقابة وهم :

- (أ) موظفو الحكومة ومجالس المديريات والمجالس البلدية والمحلية والقروية وعمال الجيش والبوليس •
(ب) عمال الزراعة •

- (ج) الوكلاء المفوضون الذين يمثلون أصحاب العمال •

- (د) الممرضون وعمال المستشفيات على أن لهؤلاء الموظفين والمستخدمين والعمال أن ينشئوا لهم جمعيات ترعى مصالحهم المشتركة (٧٢) •

وهكذا ثم التمييز بين العمال الذين لهم حق تأليف النقابات وغيرهم بناء على رغبة الحكومة لأن بعض الأعضاء داخل مجلس النواب والشيوخ كانوا يطالبون بحرمان عمال البيوتات (الخدم) من حق تأليف النقابات بحجة أنه ليس من المعقول أن تتدخل النقابة فى العلاقة بين الخادم ومخدومه وقد يلجأ الخدم الى اعلان الاضطراب وهذا لا يتفق مع العلاقات العائلية والعادات الشرقية ، وأن السبب الذى يدعو عمال الصناعة والتجارة الى تأليف النقابات هو حاجتهم الى الاستقرار النفسى وحمايتهم من أصحاب العمل مع مراعاة أن عمال المصانع والشركات أرفع فى مستواهم الاجتماعى من الخدم والطهاة والسائقين ، وحرصاً من الحكومة على ضمان حق الخدم ومن شاكلهم أضافت الحكومة اقتراحاً يقضى بالاعتراف لهم بحق الدخول فى النقابة بشرط ألا تتدخل النقابة فى العلاقة بين الخادم ومخدومه ، ولذا فإننا نعتقد أن النقابة قد فقدت أهميتها بالنسبة لتلك الطبقة كما أن الحكومة قد جردتهم من

(٧٢) القانون ٨٥ لسنة ١٩٤٢ ملحق بمضبطة مجلس النواب — الجلسة السادسة والعشرون ٣ ، ٤ ، ٥ أغسطس ١٩٤٢ ص ١٢٠٢ •

أهم حق من الحقوق النقابية وهو الاضراب « حيث لا يجوز لهم الاضراب
واذا قرروا الاضراب وجب حل نقاباتهم » (٧٣) ♦

ووفق مضابط مجلس النواب فقد تمسكت الحكومة بحق العمال
الخصوصيون (الخدم — السائقون — وغيرهم) فى الاشتراك فى
النقابة على الرغم من أن الأغلبية البرلمانية كانت تميل الى خروجهم من
النقابة وهذه نقطة تسجل للوفد ولوزير الشئون الاجتماعية عبد الحميد
عبد الحق الذى نجح بمهارة فى اقناع الأعضاء بأن هذا التمييز يغد
مخالفا للدستور ولذا فالحكومة لا يمكنها الفصل بين العمال بغض
النظر عن نوعية العمل ، وهما يؤخذ على هذا المشروع أنه جرد النقابة
من حق ممارسة النشاط السياسى والدينى (٧٤) ♦ على اعتبار أن مثل
تلك النشاطات لا تدخل فى الغرض الذى أنشئت من أجله النقابة ،
كما أنها حرمت عمال الزراعة من الاشتراك فى تلك النقابة على اعتبار أن
من حقهم تكوين نقابة خاصة بهم وكان الأولى عدم التفرقة بين العمال
الصناعيون والزراعيون ومن هنا فقد فشل العمال الزراعيون فى اقامة
نقابة ترعى مصالحهم وتحميهم من بطش أصحاب العمل وفى الوقت
الذى قطعت فيه نقابات العمال شوطا كبيرا فى رفع مستوى العمال
وحماية حقوقهم كان العمال الزراعيون يعيشون فى ظروف اجتماعية
لا تتفق بأى حال والحياة الآدمية ويعتقد بعض المؤرخين المعاصرين أن
حرمان عمال الزراعة من حق تكوين النقابات لهم هو خوف أعضاء مجلس
النواب والشيوخ من أن عمال الزراعة قد يعمدون الى الاضراب مما يثقل
حركة الاقتصاد ويكون مصدر خطر على البلاد وكذلك سرى الخوف
من أن تكون النقابات سبيلا لتسرب المبادئ الشيوعية داخل الريف

(٧٣) مضابط مجلس النواب — الجلسة الخامسة والعشرون ٢٨
يولية ١٩٤٢ ، ص ١١٤٥ ، الجلسة ٢٦ ص ١٢٠٦ — ١٢١٥ .

(٧٤) المصدر السابق .

مما يؤدي الى اثاره النزاع بين الملاك ومزارعيهم (٧٥) . وهذا الرأي يحمل قدرا كبيرا من الحقيقة على الرغم من أن الأعضاء البرلمانيون (وهم من كبار الملاك) لم يعلنوا هذا صراحة .

لقد كان قانون الاعتراف بالنقابات مخيبا لآمال العمال حيث خضعت النقابات لرقابة البوليس وفرض عليها ضرورة ابلاغه عن الاجتماعات التي توسع النقابة عقدها قبل موعدها بوقت كاف ، كما نص القانون على أن من حق الحكومة حل النقابة اذا رأت السلطة أنها انحرفت عن الغرض الذي أقيمت من أجله ولهذا فاننا نعتقد أن الدافع وراء اهتمام الحكومة باقامة نقابة شرعية للعمال كان دافعا حزبيا في الدرجة الأولى .

واستكمالا للأمر التشريعي العمالي فقد أصدرت الحكومة قانونا بتحديد ساعات العمل ، حيث نصت المادة السادسة من هذا القانون على أن مدة العمل الفعلية ثمانى ساعات فى اليوم أو ثمانية وأربعون ساعة فى الأسبوع ، ومدة العمل ليلا ست ساعات ، ونصت المادة السابعة على أن العمل سبع ساعات فى اليوم فى الأعمال الخطرة أو المضرة بالصحة وخمس ساعات اذا كان العمل ليلا ، وقد حدد القانون الأعمال الخطرة أو المضرة بالصحة فيما يأتى :

(أ) أعمال المناجم والمحاجج .

(ب) صناعة المواد الكيماوية والمواد القابلة للانفجار والغازية .

(ج) صناعة المواد السامة أو المضرة بالصحة .

(د) شحن وتفريغ الحبوب والمواد الغذائية (٧٦) .

(٧٥) د. رؤوف عباس . الحركة العمالية فى مصر ١٨٩٩ — ١٩٥٢ ص ١٦٦ .

(٧٦) نص قانون تحديد ساعات العمل ، ملحق بمضبطة مجلس النواب — الجلسة الثلاثون ٧ أغسطس ص ١٣٧٢ ، ١٣٧٣ .

وعلى الرغم من القيود التي فرضت على النشاط النقابى الا أنه قد خطا خطوات هامة مع نهاية سنة ١٩٤٥ حيث كان الاتحاد الدولى لنقابات العمال قد دعا اتحادات العمال أن يرسلوا مندوبيهم فى المؤتمر المزمع اقامته فى باريس وسافر من مصر وفدان يمثلان اللجنة التحضيرية لعمال القطر المصرى ، ومؤتمر نقابات القطر المصرى وأمكن توحيد الوفدين فى وفد واحد حيث نوقشت مشاكل الأجور والبطالة وطرد القوات الأجنبية من وادى النيل وأثر الاستعمار البريطانى على تأخر الصناعة وتفاقم المشكلة الزراعية وتقييد الحريات واستطاع الوفد المصرى أن يحصل من المؤتمر على قرار يندد بالاستعمار البريطانى فى مصر (٧٧) •

ومع الاقتراب من نهاية الحرب بدت مشكلة عمالية ذات نتائج اجتماعية خطيرة فلقد أنشأت السلطة العسكرية البريطانية أثناء الحرب العديد من المصانع التى تخدم أغراض الحرب ولما كانت على وشك الانتهاء منها فإن ألوفاً من العمال الذين يعملون فى هذه المصانع سوف يتعطلون عن العمل وسوف يترتب على ذلك العديد من الآثار الاجتماعية الخطيرة ولذا فقد اقترحت الحكومة المصرية شراء تلك المصانع وقبلة بريطانيا هذا رأى مع تحفظ واحد وهو أن يكون للسلطات البريطانية حق نقل بعض المصانع التى يقتضى نقلها الى الشرق الأقصى (٧٨) (حيث كانت الحرب ما تزال مستمرة) •

ولعل أخطر الآثار الناجمة عن الحرب هذا التغير الواضح فى شكل الحياة وأنماطها المختلفة ، حيث تحولت العديد من الصناعات المصرية الصغيرة الى النمط الاستهلاكى الذى يرتبط بحاجة الأجانب فى مصر

(٧٧) شهدى عطية الشافعى — الحركة الوطنية ١٨٨٢ — ١٩٥٢

ص ٢٢٥ •

(٧٨) د. هيكى مرجع سبق ذكره ج ٢ ص ٢٩٩ •

وارتبط بهذا انقلاب واضح فى الشارع المصرى حيث تحولت العديد من أسماء المحلات الى أسماء أجنبية واقتصرت بعض المحلات فى نشاطاتها على السلع التى تجد اقبالا من الأجانب •

وعجز زعماء الأحزاب من أصحاب الياقات البيضاء عن فهم طبيعة الواقع المصرى ولعل الاحساس بالمستقبل المجهول قد ضاعف من هذا الواقع لديهم مما أوجد قدرا من عدم الثقة فى كافة الأحزاب القائمة ولذا فقد شهدت الفترة التى أعقبت الحرب العديد من أشكال العنف السياسى •

وتعتبر قضية التعليم من أخطر القضايا التى شهدت انقلابا خطيرا فترة الحرب ونظرا لأهميتها فسوف أتناولها فى بحث مستقل ••

ويلاحظ أن النشاطات التبشيرية قد مارست دورها فى ظل الاجراءات التى فرضها الاحتلال خلال فترة الحرب بشكل لفت أنظار العديد من القوى المصرية •

ولعل هذا النوع من النشاط قد بدأ بصورة أكثر وضوحا داخل المدارس الأجنبية حتى كان يفرض على الطلاب حضور الندوات التى تعقد لهذا الغرض ومطالبة الطلاب باعداد بعض البحوث عن موضوعات ذات صبغة تبشيرية مثل سماحة المسيحية وغير ذلك من الموضوعات (٧٩) ومما يلفت النظر انتشار الجماعات التبشيرية وتعدد مسمياتها وكلها تحمل أسماء ذات طابع مهنى مثل جماعة مساعدة الأيتام ، جماعة أصدقاء المرضى وغير ذلك من المسميات ولقد نجحت تقارير البوليس السياسى فى رصد تحركات معظم تلك الجماعات وخصوصا علاقتهم بسفارات دول الحلفاء فى القاهرة حيث كان زعماء تلك الجماعات يترددون على

(٧٩) تقارير البوليس السياسى ، محفظة ١٩٤٣ ملف ١ — ١٣ وثيقة رقم ٨٨ بتاريخ ١٨/٣/١٩٤٣ •

مسفارات فرنسا ، وأمريكا وإنجلترا وخصوصا فى غير أوقات العمل الرسمية (٨٠) مما يزيدنا اعتقادا بأن هذا النوع من النشاطات يعد جزءا من مهام سفراء دول الحلفاء فى القاهرة وفى الوقت الذى كان الوفد يتتبع الخصوم السياسيين ويزج بهم فى السجون بلا تحقيق أو مساءلة أغضت الحكومة أعينها عن هذا النشاط ، ومما يخشع من مسئولية الحكومة أنها كانت على بينة من كل تلك التحركات مما اضطر أحد أعضاء مجلس النواب الى التقدم بسؤال الى وزير الداخلية حول ما تقوم به مستشفى هرمل بالتبشير بين المرضى من الفقراء المسلمين • ولعل أخطر ما فى الأمر أن الحكومة لم تكذب هذا الخبر وانما أعلن وزير الداخلية بأن الوزارة ستخطر ادارة المستشفى بضرورة ابطال هذا النوع من النشاط (٨١) •

ويلاحظ أن الحكومة لم تقدر خطورة الأمر حيث لم تتخذ أى نوع من الاجراءات ضد تلك الجماعات ومن الصعب الحصول على احصائية تحدد حجم الانجازات التى قامت بها تلك الجماعات نظرا للطابع السرى الذى كان مفروضا على هذا النوع من النشاط ولذا فمن الصعب الحكم على النتائج التى حققتها تلك الجماعات •

الا أن ما نستطيع أن نجزم به هو مسئولية الحكومة المصرية وتغافلها عن خطورة الأمر وبلا أى مساءلة لتلك النشاطات •

(٨٠) المصدر السابق وثيقة ١٣٣ بتاريخ ١٩٤٣/٦/٢٥ •

(٨١) مضبطة مجلس النواب الجلسة الثانية والثلاثون ٩ أغسطس

١٩٤٢ — قدم السؤال النائب عبد المجيد الرمالى ص ١٤٨٧ •

مصادر البحث ومراجعته

أولا : وثائق عربية غير منشورة :

١ - مجموعة تقارير الأمن العام والبوليس السياسى وتحمل
عناوين :

تقارير سياسية - تقارير الأمن العام - مسائل سياسية •

ثانيا : وثائق انجليزية غير منشورة وقد تم الاستعانة بالمجموعة الآتية :

No	Date
F. O. 407 / 210	July — Dec 1939
F. O. 407 / 222	Jan — June 1938
F. O. 407 / 222	July — Dec 1938
F. O. 407 / 223	Jan — June 1939
F. O. 407 / 223	July — Dec 1939
F. O. 407 / 225	Jan — Dec 1941
F. O. 407 / 224	Jan — Dec 1940

ثم مجموعة F. O. 371 • وقد اعتمدت فيها على ما يأتى :

F. O. 371 / 31569	1942
F. O. 371 / 41334	1913
F. O. 371 / 45916	1944
F. O. 371 / 45916	1945

ثالثا : وثائق أمريكية غير منشورة :

No	Date
740. 00 / 1138	Apr, 25, 1939
740. 00 / 1138	May, 3, 1939
740. 00 / 1138	Sep, 2, 1939
740. 00 / 11 European	Oct, 1, 1939
883. W. 103	sep, 25, 1939
883. 00 / 1080	Aug, 23. 1939
883. 00 / 1066	Apr. 11, 1939
883. 00 / 1085	Oct, 3, 1939
865 C. 20 / 43	Moy, 6, 1939
740. Coll European	Jul, 9, 1940
741. 83 / 263	Oct, 19, 1940
740. 00 1 European	Jun. 3, 1940
741. 83 / 263	March. 12. 1940
740. 00 1 European	Aug, 19, 1940
740. 00 1 European	Sept, 25, 1940
740. 00 1 European	Sept, 3, 1940
741. 83 / 247	March, 21, 1940
883. 20 / 114	Apr. 1. 1940
741. 83 / 255	Jun, 22, 1940
740. 00 1 European	Mav, 20, 1940
740. 00 1 European	Oct, 18, 1940
740. 00 1 European	July, 2, 1940
741. 83 / 251	May. 17, 1940
741. 83. 250	Apr, 23, 1940

No	Date
741. 83. 224	Mar, 20, 1940
741. 83. 248	Apr, 4, 1940
741. 83. 246	Mar. 9, 1940
741. 83. 252	May, 23, 1940
883. 00 / 1209	Aug, 25, 1941
883. 00 1, Farouk	Mar, 14, 1941
F. W. 883. 00	Apr. 2, 1941
F. W. 883. 00	Mar, 23, 1941
F. W. 883. 00	Mar, 20, 1941
F. W. 883. 00	Mar, 21, 1941
F. W. 862.20283	June, 30, 1442
740. 00 1. 2601 C.	Dec, 1, 1942
F. W. 862. 20283	June, 15, 1942
800. 24 / 1303	Oct, 14, 1943

رابعاً : وثائق عربية منشورة :

- ١ — مضابط مجلس النواب ١٩٣٦ — ١٩٤٥ وتضم عشر مجلدات •
- ٢ — مضابط مجلس الشيوخ ١٩٣٦ — ١٩٤٥ وتضم تسع مجلدات
- ٤ — تقرير لجنة التحقيق فى التصرفات الماسة بنزاهة الحكم فى عهد الوزارة النحاسية •

خامساً : مذكرات منشورة :

- ١ — ابراهيم امام (رئيس البوليس السياسى) صحيفة الجمهورية يناير ١٩٥٦ •
- ٢ — اسماعيل صدقى (مذكراتى) دار الهلال القاهرة ١٩٥٥ •

٣ — أنور السادات (صفحات مجهولة) كتب للجميع نوفمبر
١٩٥٤ •

٤ — أنور السادات (البحث عن الذات) القاهرة ١٩٧٨ •

٥ — حسن البنا (مذكرات الدعوة والداعية) بيروت ١٩٧٤ •

٦ — حسن يوسف (القصر ودوره فى السياسة المصرية) ١٩٢٢ —
١٩٥٢ القاهرة ١٩٨٢ •

٧ — صلاح الشاهد (زكرياتى فى عهدى) القاهرة ١٩٧٦ •

٨ — كريم ثابت (أسرار السياسة المصرية) صحيفة الجمهورية
يونيو ١٩٥٥ •

٩ — محمد حسين هيكل (مذكرات فى السياسة المصرية ج ٢)
القاهرة ١٩٥٣ •

١٠ — محمد نجيب (كلمتى للتاريخ) القاهرة ١٩٨١ •

١١ — محمد التابعى (أسرار السياسة المصرية) القاهرة ١٩٧٢ •

١٢ — مكرم عبيد (مذكراتى) صحيفة الكتلة ١٩٤٥ •

سادسا : المؤلفات والدراسات :

١ — أحمد مرتضى المراغى • غرائب من عهد فاروق بيروت ١٩٧٦ •

٢ — جلال الدين الحمامسى • حوار وراء الأسوار الطبعة الرابعة
القاهرة ١٩٧٦ •

٣ — جى ديورين • الحرب العالمية الثانية من وجهة النظر
السوفيتية ترجمة أحمد عبد الرحيم مصطفى القاهرة ١٩٦٨ •

- ٤ — رفعت السعيد • الصحافة اليسارية فى مصر ١٩٢٥ — ١٩٤٨
القاهرة ١٩٧٧ •
- ٥ — رفعت السعيد • تاريخ المنظمات اليسارية فى مصر القاهرة
١٩٧٦ •
- ٦ — د • رؤوف عباس • الحركة العمالية فى مصر القاهرة ١٩٧٦ •
- ٧ — شـهـدى عطيه الشافعى • تطور الحركة الوطنية المصرية
١٨٨٢ — ١٩٢٦ القاهرة ١٩٥٧ •
- ٨ — د • عاصم الدسوقي • مصر والحرب العالمية الثانية ١٩٣٩ —
١٩٤٥ القاهرة ١٩٧٦ •
- ٩ — عبد الرحمن الرافعى • فى أعقاب الثورة المصرية ج ٣
القاهرة ١٩٥١ •
- ١٠ — د • عبد العظيم رمضان • تطور الحركة الوطنية فى مصر
١٩٣٧ — ١٩٤٨ القاهرة ١٩٧٣ •
- ١١ — د • عبد العظيم رمضان • الصراع بين الوفد والعرش
١٩٣٦ — ١٩٤٩ بيروت ١٩٧٨ •
- ١٣ — لوكار هيزويز • ألمانيا الهتلرية والمشرق العربى ترجمة
أحمد عبد الرحيم مصطفى القاهرة ١٩٦٨ •
- ١٣ — مارسيل كولومب • تطور مصر ١٩٢٤ — ١٩٥٠ ترجمة
زهير الشايب ١٩٧٢ •
- ١٤ — محمد بهى الدين بركات • صفحات من التاريخ القاهرة
١٩٦١ •

- ١٥— محمد زكى عبد القادر • محنة الدستور القاهرة ١٩٥٥ •
- ١٦— محمد رشدى • التطور الاقتصادى فى مصر ج ٢ القاهرة ١٩٧٢ •
- ١٧ — د • يونان لبيب رزق • تاريخ الوزارات المصرية ١٩٣٨ — ١٩٥٣ القاهرة ١٩٧٥ •

سابعاً : الدوريات :

- ١ — الأهرام ١٩٣٩ — ١٩٤٥ •
- ٢ — السياسة ١٩٣٦ — ١٩٤٥ (يومية وأسبوعية) •
- ٣ — أخبار اليوم ١٩٤٤ — ١٩٤٥ •
- ٤ — المصرى ١٩٣٩ — ١٩٤٥ •
- ٥ — الجمهورية يونيو ، يوليو ١٩٥٥ ، يناير ١٩٥٩ •
- ٦ — الاخوان المسلمون ١٩٤٢ — ١٩٤٥ •
- ٧ — روز اليوسف ١٩٣٨ — ١٩٤٥ •
- ٨ — الكتلة ١٩٤٣ — ١٩٤٥ •



مجلة البحوث والدراسات العربية

تصدر سنويا عن معهد البحوث والدراسات العربية

- صدر العدد الأول من المجلة في مارس (آذار) ١٩٦٩ .
- تعنى المجلة بنشر البحوث العلمية والدراسات الأصلية التي لم يسبق نشرها ، و يتقدم بها الأساتذة والباحثون من أعضاء هيئات التدريس بالجامعات العربية وغيرهم ، وذلك في المجالات المتصلة ببحث القضايا والمشكلات العربية المعاصرة في أبعادها السياسية ، والاقتصادية ، والاجتماعية ، والتاريخية ، والجغرافية ، والقانونية . كما تعنى بإبراز الملامح الرئيسة للأدب والفكر العربي المعاصر ، وبخاصة ما يعكس منها الروابط الثقافية بين الأقطار العربية ، إلى جانب إهتمامها الخاص بالدراسات الفلسطينية .
- تخضع البحوث المنشورة في هذه المجلة للتحكيم العلمى الذى يتولاه أساتذة متخصصون في الجامعات العربية وفق ضوابط موضوعية .
- يراعى في البحث أن يتراوح حجمه بين ستة آلاف وثمانية آلاف كلمة ، وأن يرفق به موجز بإحدى اللغات الأوروبية لا يزيد عن ألف كلمة ، و يطبق هذا أيضا على البحوث المقدمة للنشر بلغات أجنبية .
- يشفع الكاتب بحثه بتعريف موجز بسيرته الذاتية والعلمية .
- تقدم إدارة المجلة لمن ينشر بحثه مكافأة رمزية شرفية ، بالإضافة إلى عدد المجلة الذى نشر به البحث ، وعشر بن فصله منه .
- البحوث المنشورة تعبر عن آراء كتابها ، ولا تحمل بالضرورة وجهة نظر المعهد ، أو أية جهة أخرى يرتبط بها صاحب البحث .

● ترسل المكاتبات الخاصة بالمجلة على العنوان التالى :

الأستاذ الدكتور / محمد صفى الدين أبو العز

رئيس معهد البحوث والدراسات العربية

٦ شارع الطلبة - جاردن سیتی - القاهرة (ص . ب ٢٢٩)

تلفرافيا : ایر یالیا ، تلیفون : ٣٥٤٠٦٥١ - ٣٥٤١٨١٩ - ٣٥٥١٦٤٨

□ الاشتراكات :

ثمان العدد الواحد ثلاثة جنيهات مصرية (ثلاثة دولارات أمريكية) فضلا عن رسوم البريد .

Bulletin of Arab Research and Studies



Arab League Educational, Cultural
and Scientific Organization

**Published Annually by the
Institute of Arab Research and Studies**

- First Published in March 1969.
 - Contributions are invited from all over the Arab World especially from members of the teaching staff of Arab Universities. The focal domain of this Bulletin embraces all studies and researches relevant to current Arab problems in the fields of: Politics, Economics, Sociology, Law, Geography, History, Arabic Literature and Palestinian Studies.
 - All papers accepted for publication are subject to scientific refereeing by specialized Professors according to objective criteria.
 - Papers written in Arabic or in any other foreign language must be accompanied with a résumé or abstract of not more than 1000 words. The average length suggested is 6000 words.
 - A short account of the author's C.V. should be sent to the Editor.
 - Each contributor will receive a volume of the Bulletin and 20 off-prints of his paper free of charge.
 - Contributors to this Bulletin express their own opinions which should not be interpreted as the official view of the Institute or any other organization with which they may be connected.
 - All correspondences should be addressed to the following:
Prof. Dr. M.S. Abulezz President of the Institute of Arab Research and Studies.
1, Sharia El-Tolombat, Garden City,
Cairo, Egypt, (P.O. Box 229).
Telex: 92642 ALECSO UN.
- ❑ Single copies cost (\$4) plus postage.

العلاقات السرية بين الملك فؤاد

والخديو عباس حلمى

الدكتور عبد الوهاب بكر

حفلت العلاقات الأسرية على مستوى البيت العلوى (١٨٠٥ — ١٩٥٢) بالكثير من مظاهر التنافس والتحاسد ، وأفرز هذا عداوات شديدة وبغضا متبادلا عنيفا •

ويرجع العداء بين أفراد هذه الأسرة الى مرض المناصب والخشية على المراكز ، والخوف من الدسائس — ومقابلة ذلك كله بالأذى والعدوان •

ولعل أول الغيث فى هذا الشكل من العلاقات هو ذلك الذى حدث فى عهد عباس حلمى الأول (١٨٤٨ — ١٨٥٤) عندما استشرى الكره بينه وبين أعمامه وعماته وأبناء عمومته — وعلى الأخص عمه محمد سعيد (١٨٥٤ — ١٨٦٣) وعمته الأميرة نازلى ، وما انتهى اليه الأمر من مصرعه على يد مملوكين تابعين له بتحريض من هذه الأميرة •

ولقد بدأ اسماعيل (١٨٦٣ — ١٨٧٩) حياته الخديوية باهمال الاهتمام بتشيع جنازة عمه (سعيد) وعدم الاعتناء بتأدية ما يليق بمقامه ، وأسرع بدفنه فى الاسكندرية دون أى مظهر من مظاهر الحفاوة والرعاية ثم ما لبث أن استصدر فى عام ١٨٦٦م فرمان الوراثة الذى حصر أرث الخديوية المصرية فى أولاده (الأكبر) ثم بعده الى أكبر

أولاد هذا الأكبر (على النسب المستقيم الذكورى على الدوام) (١) .
ناسخا بذلك فرمان الوراثة الصادر لجده محمد على باشا (١٨٠٥ —
١٨٤٨) (٢) — فى يونيو ١٨٤١ — حارما بذلك أخاه الأمير (مصطفى
فاضل) وعمه الأمير (عبد الحليم) من حقهما فى الوراثة المكفول لهما
بمقتضى فرمان ١٨٤١ ، ومكتسبا عد اوتهما التى طالت لسنوات عديدة
ذخر خلالها تاريخ الأسرة بحوادث الكيد والوقيعه والدس ما بين
الآستانة والمحروسة .

ولقد كان المفترض أن تستقر الأحوال بفسوخ الأمر الواقع
وأعمال نصوص فرمان ١٨٦٦ و ١٨٧٣م فيما يتعلق بقضية الوراثة —
وانتقال السلطة بهدوء من اسماعيل الى ابنه (١٨٧٩) ومن توفيق
(١٨٧٩ — ١٨٩٢) الى ابنه عباس حلمى الثانى (١٨٩٢ — ١٩١٤)
فى عام ١٨٩٢ بعد وفاة توفيق بالطبع — لولا تلك المتغيرات التى
أفرزتها ظروف قيام الحرب العظمى (١٩١٤ — ١٩١٨) .

كانت علاقات الخديو عباس حلمى بالوجود البريطانى فى مصر
متردية منذ بداية عهده — وعزمت بريطانيا على عزله فى أكثر من
مناسبة (٣) — حتى سافر فى مايو ١٩١٤ الى الآستانة ، ونشبت
الحرب فى الرابع من أغسطس ١٩١٤ ودخلت تركيا الحرب فى التاسع
والعشرين من أكتوبر ١٩١٤ — وأعلنت بريطانيا الأحكام العرفية فى
الثانى من نوفمبر ١٩١٤ — ومنعت الخديو عباس من العودة الى مصر
وأعلنت الحماية على البلاد فى الثامن عشر من ديسمبر ١٩١٤ ، ثم
أعلنت خلع عباس فى اليوم التالى وعينت حسين كامل (١٩١٤ —

(١) فرمان الشامل الصادر فى عام ١٨٧٣ — راجع « تاريخ مصر
السياسى فى الأزمنة الحديثة » ل محمد رفعت باشا — المطبعة الأميرية بالقاهرة
١٩٥٢ ص ٢٩٥ ملحق (هـ) .

(٢) المرجع السابق ص ٢٩١ ملحق (ب) .

(٣) د. يونان لبيب رزق « تاريخ الوزارات المصرية » ص ١٣٢ — ١٨٢

١٩١٧) سلطانا على مصر فى نفس اليوم — وبدأت محاولات عباس حلمى لاسترداد عرشه المسلوب خاصة بعد أن قامت السلطة العسكرية البريطانية بتصفية أملاكه فى ظل الأحكام العرفية •

كانت أول محاولة للخديوى المخلوع هى تدبير الاستعانة برجال (الخفر) فى القطر المصرى لاشتعال نار الثورة لكن محاولاته فى هذا الصدد باءت بالفشل (٤) — واعتمد على دخول مصر مع قوات الجيش الرابع بقيادة (جمال باشا) فى حملته الأولى على قناة السويس ، لكن فشل الحملة فى عبور القناة وعدم اشتعال الثورة التى كان الأتراك يتوقعون وقوعها فى مصر مع وصول أنباء احتلالهم للأسماعيلية (٥) — واستبعاد الحكومة التركية له من المشاركة فى الحملة أفقده الأمل فى الوصول الى عرشه عن طريق هذه الترتيبات (٦) •

هنا بدأت محاولات عباس للعودة تأخذ الشكل التأمري المعتمد على استخدام الأعوان لتدبير المؤامرات • ونحن وان كنا لا نملك دليلا على أن محاولتى الاغتيال اللتان تعرض لهما السلطان (حسين كامل) فى ١٩١٥/٤/٨ و ١٩١٥/٧/٩ هما من تدبير الخديو المخلوع — فان اتفاق (السيد محمد الباشا وأحمد عبد الحى كيره) على اغتيال محمد سعيد باشا ، الذى أبلغ به (عبد الحميد المنصورى) دار الحماية البريطانية فى ١٩١٩/٦/٢٢ كان من تدبير عباس دون أدنى شك —

(٤) د. محمد أنيس « صفحات مجهولة من التاريخ المصرى » — روز اليوسف ١٩٧٣ ص ٢٦ — ٢٨ •

(٥) « مذكرات جمال باشا » تعريب على أحمد شكرى — مكتبة الهلال — القاهرة ١٩٣٢ — ص ٢٦٦ •

(٦) د. لطيفة محمد سالم « الصراع العسكرى بين الدولة العثمانية وبريطانيا فى مصر » ١٩١٤ — ١٩١٨ « المجلة التاريخية المصرية » — المجلدان ٢٨ و ٢٩ (١٩٨١ — ١٩٨٢) ص ٣٧٦ — ٣٧٧ •

غالباشا وكيره كانا من رجاله وكانت صلاته بهما قد بدأت فى (روما)
التي ذهب اليها بعد الهدنة (٧) .

توفى السلطان حسين كامل فى التاسع من اكتوبر
١٩١٧ وعين الانجليز (فؤادا) سلطانا على مصر فى اليوم التالى .
وفى عهده أخذت العلاقات بين الرجلين طابعا يتسم بالشراسة التي
ميزت علاقات اسماعيل بالأميرين (أحمد فاضل) و (محمد عبد الحليم) .

فما أن صدر تصريح فبراير ١٩٢٢ حتى شرع (فؤاد) فى اتخاذ
ما يلزم لتثبيت موقعه الجديد فأعلن فى ١٥ مارس تسمية نفسه
(ملكا) — وأتبع ذلك بإصدار نظام وراثة العرش فى ١٣ أبريل ١٩٢٢
ونص فيه على وراثية الملك فى الأسرة العلوية — وانتقال ولاية الملك
من صاحب العرش الى أكبر أبنائه ثم الى أكبر أبناء ذلك الابن الأكبر
— كما حدد فى الأمر أن ولاية الملك من بعده « لولانا المحبوب الأمير
فاروق » (٨) . وأصدر فى ١٠ يونيو ١٩٢٢ قانونا بنظام الأسرة المالكة
شمل ما له حق الولاية على الأسرة — والطبقات التي ينحصر فيها
لقب الأمانة ونظام توارث ذلك اللقب وتشكيل مجلس البلاط — وحدد
فى ٢١ يونيو أسماء أعضاء الأسرة المالكة الذين يطلق عليهم لقب النبيل
والنبيلة (٩) .

كان (فؤادا) يصدر فى هذا كله عن رغبة فى ازالة كل ما يتعلق
بابن أخيه تماما وقطعه عن كل ما يتعلق بمصر . والمتأمل لنصوص
القانون ٢٨ لسنة ١٩٢٢ الخاص باقرار تصفية أملاك عباس وتضييق

(٧) « صفحات مجهولة من التاريخ المصرى » مرجع سبق ذكره ص ٥٨
St. Antony's College - Oxford, M. E. Center - Russell's Private - JQ 3801 -, DT 107 «Alist about the political Crimes which
took place between the years 1910 — 1946.

(٨) عبد الرحمن الرافعى « فى أعقاب الثورة المصرية » ج ١ ص ٤٩ —

(٩) المرجع السابق ص ٥١ .

ما له من الحقوق يستطيع أن يكتشف دون كثير عناء أن روح التشفى والانتقام كانت تسيطر على فؤاد عند اصداره لهذا القانون ، فقد نص المشروع على :

— الموافقة على التصفية التى عملت لأملاك عباس وجعلها نهائية •

— عدم قبول أية دعوى قضائية سواء أكانت مرفوعة أم سترفع فيما بعد بقصد الغاء أو سحب أو تعديل أعمال التصفية السابق الاشارة اليها •

— تسليم الناتج من هذه التصفية الى صاحب الشأن والموافقة على سقوط حقه فى هذا الناتج لصالح الحكومة فى حالة امتناعه عن استلامه فى مدة خمس سنوات •

— منع عباس من السكن أو الإقامة فى الأراضى المصرية •

— حرمانه من التمتع بحقوقه السياسية فى مصر ومن القيام بوظائفه الشرعية ومن حق امتلاك أموال منقولة وغير منقولة •

وأخيرا القيام فى المستقبل بإدارة وتصفية كل ما يمكن أن يكون له من أموال نقدية أو غير نقدية سواء آلت اليه بالميراث الشرعى أو من طريق الحق المكتسب على أن يتبع فى ذلك نفس الذى اتبع فى شأن تصفية أمواله (١٠) •

ولكى يمنع (فؤاد) أى محاولة لاحداث تعديل فى هذا القانون الذى ضيق على عباس فانه أدخله ضمن مواد الدستور المصرى الصادر

(١٠) الدولة المصرية « مجلس النواب » الهيئة النيابية الثالثة .
مجموعة مضابط الانعقاد العادى الثانى المجلد الأول (١٨ نوفمبر ١٩٢٦ — ٢٨ مارس ١٩٢٧) . مضبطة الجلسة التاسعة والعشرين لمجلس النواب ١٩٢٧/٢/١٤ ص ٤٤٦ — ٤٥٢ وقد صدر هذا القانون فى ١٩٢٢/٧/١٧ وأقر ما قامت به السلطة العسكرية البريطانية من تصفية لأملاك عباس حلمى الثانى بعد اصدار بريطانيا قرارها بخلعه فى ١٩١٤/١٢/١٩ .

فى ١٩ أبريل ١٩٢٣ ، اذ نصت المادة ١٦٨ من هذا الدستور على اعتبار أحكام هذا القانون كأن لها صفة دستورية ولا يصح اقتراح تنقيحه (١١) .

بل أنه لكى يقطع الطريق على أى تفسير أو تأويل يغير المعنى الذى قصده فى قانونه هذا — فقد أصدر فى ٢٩ ديسمبر ١٩٢٤ مرسوما يقانون أكد فيه أن كل دعوى رفعها عباس أو ترفع عليه وكل اجراء اتخذه ضده سواء باسمه شخصيا أو باسم دائرته أو بواستطها أو باسم حارس مصف أو مدير . . . الخ — يجب أن يقضى بعدم قبولهما وبرفضهما حتما ومن تلقاء المحكمة نفسها أيا كانت الحالة التى عليها الدعوى (١٢) .

ومن جانبه لم يكن الخديوى عباس ساكنا ، فقد اشتغل طوال فترات وجوده فى الآستانة وجنيف وروما بالاتصال بأعوانه وخلصائه للعمل معا من أجل عودته الى مصر — وأنتجت هذه الاتصالات والتدبيرات اجراءات من جانب الملك فؤاد ونظامه الحاكم فى مصر .

. عندما أقدم عبد اللطيف عبد الخالق الدلبشانى طالب الطب فى برلين — على الشروع فى اغتيال (سعد زغلول باشا) فى ١٢/٧/١٩٢٤ (الجناية ١٨٥٣ الأزيكية ١٩٢٤) تقدم محمد توفيق فاضل أحد أفراد حاشية الخديو السابق والذى كان قد طرد من خدمته فى مارس ١٩٢٣ — فى ٢٩ يوليو الى المحقق وأبلغه بمعلومات تتصل من وجهة نظره بالتحقيق (١٣) . كشف التحقيق الذى تفرع عن قضية سعد زغلول عن اتهام كل من (ابراهيم عبد اللطيف — حسن حسنى شفيق — محمد

(١١) عبد الرحمن الرافعى ، المرجع السابق ص ٢٥٤ « دستور الدولة المصرية » ١٩ أبريل ١٩٢٣ .

(١٢) مضبطة الجلسة التاسعة والعشرين لمجلس النواب فى ١٤/٢/١٩٢٧ — مرجع سبق ذكره .

(١٣) د. محمد أنيس « المصدر نفسه » ص ١٣٤ — ١٥٤ .

سيف الدين — على أحمد عزت — السيد حسنين القصبى — والسيد عبد الهادى القصبى) بالتآمر فى القاهرة وطنطا فى الفترة أكتوبر ١٩٢٠ — يوليو ١٩٢٤ لاستخدام العنف والمفرقات لتغيير الدستور ونظام قوارث العرش فى مصر ، وتدمير المباني الحكومية — والاتفاق على ادخال الخديو السابق الى مصر واعلانه ملكا لمصر بالقوة واستخدام الديناميت ، لتدمير القناطر والكبارى لمنع من يعارضهم فى تنفيذ مؤامراتهم — لكن القضية حفظت فى ١٨/١٢/١٩٢٤ لعدم كفاية الأدلة (١٤) .

هذه القضية هى المدخل الى ما نقدمه من وثائق تكشف عن العلاقات بين الغريمين (فؤاد وعباس) أو بكلمات أخرى مدى النجاح الذى أحرزه القصر فى مجال رصد مؤامرات الخديو السابق وتدميرها قبل أن تنتج الأثر المطلوب . وفى هذه القضية كان (حسن نشأت) رجل القصر قد نجح فى زرع عميل له بين المتآمرين ، والذى كان من رجال الخديو فى نفس الوقت (محمد على المصرى) والذى قام بكشف كل ما لديه من معلومات عن عمليات الخديو السابق من ادخال المتفجرات الى مصر ، والمنشورات ضد الملك فؤاد ، والخطابات للشخصيات التى كان يتصل بها فى مصر . الأمر الذى مكن (حسن نشأت) من توجيه جهاز الأمن الرسمى لعمليات رصد وضبط محاولات تهريب الأسلحة التى كان الخديو يرسلها الى مصر من استانبول عن طريق (السلوم) (١٥) .

كشفت الوثائق التى ظهرت حتى الآن من أوراق حسن نشأت (١٦)

(14) Russel's private papers. op. cit.,

(١٥) دار الوثائق القومية — محفظة { داخلية « أمن » ملف ٦ « تقرير عن مأمورية السلوم » ٢ مايو ١٩٢٤ — أمر صادر من سعادة حسن نشأت باشا بقيام محرر التقرير ومقابلة اليوزباشى السيد عبد الرحمن واليوزباشى على أفندى وفى الموظفين بإدارة الأمن العام والاتصال بهدير خفر السواحل المستر (دوتس بك) والبحث عن أسلحة مهربة من اسلامبول . . . الخ .

(١٦) راجع الدكتور / محمد أنيس « صفحات مجهولة من التاريخ

المصرى » .

عن نشاط عباس حلمى ضد الملك فؤاد فى أوروبا وعلاقاته بالطلبة المصريين فى (جنيف) و (روما) و (برلين) و (الآستانة) — ومحاولات الملك فؤاد — عن طريق رجله نشأت — التجسس عليه ، وفرض مجموعات المصريين من حوله — وضرب تجمعات الطلبة المصريين فى أوروبا • وفى هذا المقام فانه استخدم اما بعضا من رجال قصره (يونس ثابت — محمد بدر جركس) أو بعضا من المصريين المحيطين بالخدو السابق أمكن استمالتهم وتوظيفهم لأغراضه (محمد على المصرى) وأخيرا الجهاز الدبلوماسى المصرى فى (اليونان) و (ألمانيا) وغيرهما • والحق (مراقبين للطلبة) من الموظفين المصريين بالبعثات الدبلوماسية المصرية (١٧) على الطلبة المصريين فى الخارج وكتابة التقارير عن نشاطهم •

والوثائق التى نقدمها فى هذه الدراسة تكشف عن نشاط آخر للخدو فى مناطق أخرى لم تتعرض لها أوراق (نشأت) استخدم القصر فى مواجهته (وزارة الداخلية) الى جانب حسن نشأت •

بطل هذه الوثائق تركى يدعى (أحمد نجاتى) عمل ما بين مصر و (بيروت) وكشف عن علاقات للخدو مع جماعات لم يعرف عن صلاته بها أحد من قبل — كما كشف عن نشاط جديد للخدو فى بلاد الشام •

ويبدو أن نجاتى هذا كان موظفا فى وزارة الداخلية المصرية — وتكشف تقاريره عن أنه كان يتقاضى راتبا أو مكافأة شهرية قدرها ثمانية جنيهات — كما أنه كان يرأس (محمود فهمى القيسى باشا) مدير ادارة عموم الأمن العام بوزارة الداخلية فى عام ١٩٢٤ وحسن نشأت فى نفس الوقت — كذلك فانه كان يعمل بصفة مؤقتة وكان يطمع

(١٧) أوراق محمد فريد « مذكراتى بعد الهجرة ١٩٠٤ — ١٩١٩ » المجلد الأول مركز وثائق وتاريخ مصر المعاصر — ص ٩٨ و ١٠٦ ودار الوثائق القومية محفظة ٩ داخلية ملف ٦ تقرير القائمقام محمد كامل الرحمانى مفتش الداخلية ١٩٢٤/٧/٢٦ •

فى أن يلحق بوظيفة دائمة — كما أنه كان يكتب تقاريره باللغة التركية التى يتولى أحد المترجمين الأتراك ترجمتها الى العربية •

فى تقريره الأول الى حسن نشأت باشا والمحضر بتاريخ ١٩٢٤/١/١ يكشف (أحمد نجاتى) عن المهمة التى كلفه بها (نشأت) وهى مراقبة عبد الرحمن عزام ^(١٨) والتعرف على الاجتماعات التى كانت تعقد فى منزله بضاحية حلوان — مما يعنى أن عزام كان له نشاط سياسى موال للخديو السابق وأنه كان تحت مراقبة حسن نشأت الذى كان يتابع نشاطه ويخطر به الملك فؤاد أولا بأول ^(١٩) • ومن حلوان انتقل نجاتى الى (بيروت) حيث تنكر فى زى (ماسح أحذية) وتنقل بين (بيروت) و (حلب) التى اشتغل فيها ببيع طوابع البريد ، ومن (حلب) انتقل الى (دمشق) حيث اشتغل مصورا — وفى السادس والعشرين من سبتمبر ١٩٢٤ بعث بتقريره الى نشأت •

فى هذا التقرير كشف (نجاتى) عن شراء (الخديو عباس) لجريدة تصدر فى بيروت باسم (أبابيل) وأنه يتولى الانفاق على كل

(١٨) سياسى مصرى تعلم فى أوروبا ، وأثناء حرب البلقان عام ١٩١٣ التحق بالجيش العثمانى وانضم بعد ذلك الى الأنشطة الطلابية العربية فى أوروبا خلال الحرب الأولى — عمل مع محمد فريد خلال تلك الفترة واتصل بالألمان عام ١٩١٨ وقام بطبع منشورات أرسلها الى مصر عبر طرابلس الغرب — وقام بتوصيل أخبار مصر للطلبة المصريين فى ألمانيا — اشترك فى عدة معارك بالصحراء الغربية ١٩١٥ — ١٩١٧ وانضم الى الحركة الوطنية بزعامة سعد زغلول . شغل منصب وزير الأوقاف فى وزارة على ماهر الثانية (١٨ أغسطس ١٩٣٩ — ٢٧ يونيو ١٩٤٠) حتى ١٢/٢٠/١٩٣٩ ثم وزارة الشؤون الاجتماعية فى نفس الوزارة من ١٢/٢٠/١٩٣٩ الى ١٩٤٠/٦/٢٧ . أول من شغل منصب الأمين العام لجامعة الدول العربية حتى استقالته منها بعد قيام ثورة يوليو ١٩٥٢ . راجع « أوراق محمد فريد » ص ١٤٠ ، ٣٩٢ ، ٤٠٠ .

(١٩) دار الوثائق القومية محفظة مجلس الوزراء لسنة ١٩٢٤ (بدون رقم) ملف يحتوى على تقارير ملاحقة نشاط الخديو عباس حلمى ويضم أحد عشر تقريراً — التقرير رقم (١) .

ما تتطلبه احتياجاتها — وان هيئة تحرير هذه الجريدة كانوا (رفيع جواد — رفيق خالد — وحسن الخيار) وكان مخابرها المتجول (أرتيست برهان الدين) وأن الجريدة ستنتقل الى (يافا) بعد ذلك •

كما أبلغ بأن العائلة السلطانية كانت فى بيروت فى ذلك الوقت وان الأشخاص الذين يقومون بمهمة المخابرات بين الخديو السابق وبين السلطان محمد وحيد الدين فى الشام وسويسرا هم (محمود ماهر متصرف جنات قلعة السابق — عارف باشا سكرتير الخديو السابق — واسماعيل الكوملنجى الموظف العثمانى الكبير) •

ومن خلال عمله الذى انتحله فى دمشق (كمصور) استطاع أن يلتقط صوراً فوتوغرافية للشخصيات ذات الصلة بالخديو عباس والذين يحتمل تردددهم على مصر — وأرسل هذه الصور الى نشأت ومعها ايضاحات عن أصحابها — فكتب على ظهر صورة (كاظم جوهرى بك) انه المدير السابق « لبورصة بولى » وانه كان ضابطاً فى حرس قصر الخديوى فى جبوقلى باستانبول — وان الخديو توسط له حتى ترقى الى مدير « لبورصة بولى » الى جانب بيانات أخرى • وعلى صورة (على فؤاد) بك ذكر (نجاتى) انه كان جاسوساً لحساب الفرنسيين على الحدود السورية ثم استغنى عنه ، فالتحق بخدمة الخديو ، وكان فى ذلك الوقت على وشك القدوم الى مصر • واثبت على صورة (عرفه لى مراد أفندى) أنه صديق (لعالى فؤاد بك) وأنه دائم التردد على مصر متظاهراً بتجارة المجوهرات والذهب والسجاد — وأنه يردد دعاية مفادها أن مجهودات الحكومة المصرية لا قيمة لها وأن عودة سيد مصر السابق مؤكدة •

وقد استطاع (نجاتى) تجنيد أحد أصحاب شركات السيارات فى بيروت واسمه (سعد الدين الطرابلسى بك) وكانت شركته تقوم بنقل المسافرين من بيروت الى الاسكندرية وجبل لبنان وجبل الدروز

وحيثما وريافا ومعان و عمان ودمشق وبيغداد • ومن خلال عمله هذا توافرت لديه معلومات عن الأتراك الذين يقدون الى بيروت ، فأفهمه (نجاتي) أنه صحفى وكتب معه شرطا بمساعدته عند قدومه الى مصر لبعض الأمور التجارية، فى مقابل أن يعطيه معلومات عن الأتراك الذين يردون الى بيروت وأماكن اقامتهم وأسمائهم وأعمالهم فى تلك المدينة على أن يوافيه بهذه المعلومات على عنوانه بالقاهرة رقم ٨٠ شارع محمد على •

واستطاع (نجاتي) خلال اقامته فى دمشق أن يحدد مكان تجمع الشخصيات التى لها صلة بالخديو السابق (كادريس فؤاد) و (حسن حلمى) أخيه ، والشريف يحيى عدنان أحد أبناء عمومه الملك حسين ابن على الذى كان ملكا للحجاز فى ذلك الوقت — والذى طلب الملك فؤاد عمل بعض التحريات عنه ، وأثبت (نجاتي) فى تقريره خطورة هذا الرجل على أمن مصر • ولم يفته أن يلتقط له صورة فوتوغرافية باعتباره مصورا •

وفى نهاية تقريره طلب (نجاتي) التحرى عن أميرالاي (عميد) يدعى (نصوحى بك) بالاسكندرية وعن الأشخاص الذين يتصل بهم هناك (٢٠) •

فى الأسبوع الأول من ديسمبر ١٩٢٤ بعث (أحمد نجاتي) بتقريره الثالث الى (نشأت باشا) • وفى هذا التقرير الذى يبدو أنه أرسله من القاهرة تحدث (نجاتي) عن (حبيب هانم) معرفا اياها بأنها (من المنسوبين الى الخديو السابق) • أفاد التقرير (نجاتي) أن (حبيب هانم) جاءت الى القاهرة فى ٣ نوفمبر ١٩٢٤ وأقامت عند الأميرة أمينة والددة الخديو عباس ، وبعد عدة أيام سافرت الى بورسعيد •

(٢٠) دار الوثائق القومية . المرجع السابق تقرير رقم (٢) — ملحق رقم (١) •

ووقت كتابة تقريره كانت تقيم هناك عند (مصطفى أفندى رياض)
باشكاتب (قره قول) قسم العرب •

شرح (نجاتى) فى تقريره أسلوب عمل (حبيبه هانم) فى خدمة
الخدو السابق فقال أنها تقوم بوظيفة خادمة فى محلات الأشخاص
الذين ترى أنه يمكن أن يصيب الخديو منهم ضرر وبعد أن تقوم بعملها
تترك المحل الذى تخدم فيه منتحلة لذلك سببا واذا لم توفق لعمل
بنفسها فانها تستعين ببضعة نساء أخريات مثلها يقمن بعملها •

كما حدد أسماء عدة أشخاص يعملون معها هم (عبد الحميد أفندى
رفعت — سيد الشيدى — البكباشى (المقدم) أدهم بك — ومظهر
أفندى) ، وذكر أنهم موجودون معها فى مصر ويعملون معها فى
(استانبول) — وركز (نجاتى) فى تقريره على (البكباشى ادهم) (٢١) •

وذكر (نجاتى) فى تقريره عزمه على السفر الى بورسعيد فى
الثامن ديسمبر ١٩٢٤ والبقاء هناك لمدة شهر يراقب خلاله (من يأتون
من بيروت وغيرها من المحلات الأخرى ومن يجىء من رفقاء البكباشى
أدهم بك وأريد أن أفهم اذا كانوا على اتصال مع حبيبه هانم أم لا) •

وقد أستطاع (نجاتى) حسبما جاء فى تقريره — أن يجند
(صلاح الدين بك) أخ (محمود مظهر) الطالب بمدرسة البحرية

(٢١) كان عبد الحميد رفعت أحد مستشارى الخديوى المخلوع وكان
يعمل معه فى قصر والدته بجهة (بك) وقصره (بجبوقلى) على الساحل
الآسيوى من الأستانة — وكان دور عبد الحميد رفعت هو التجسس على
من يخشى الخديو شرهم وأداء بعض المهام الصغيرة — راجع د. محمد
أنيس « صفحات مجهولة من التاريخ المصرى » ص ٦٣ ، ٦٧ ، ١١٥ ، ١١٦

التجارية الذى أطلق النار على الخديو عباس فى ٢٥ يوليو ١٩١٤ (٢٢) مستغلاً روح العداء والرغبة فى الانتقام عنده (فهذا الشخص هو الآن صديق صادق لى وأنى أريد أن أشركه فى مسعى لنقوم 'معا بايفاء حسن الخدمة الى حضرة صاحب الجلالة حبيبنا وولى نعمتنا الملك وقد قال لى صلاح الدين بك وهو ييكى أنه مستعد لأن ينتقم من الخديوى لأخيه الذى ذهب ضحيته فى ريعان شبابه) •

وتتضح قدرات (نجاتى) البوليسية فى تجنيد الشخصيات الصالحة للعمل لصالح القصر فى اختياره (لصلاح الدين) أولاً • ثم ذكره لمؤهلاته فى المجال الذى كان ينوى تجنيده للعمل فيه (التجسس على الخديو وكشف المتعاونين معه) فهذا الشاب الذى حضر حديثاً من استانبول يعرف الأشخاص المقربين من الخديوى جيداً ويمكننى أن أستفيد منه فى كل شىء ••••• وصلاح الدين بك يعرف الألمانية والانكليزية والعربية والتركية) •

(٢٢) أثناء خروج الخديوى عباس حلمى الثانى من (الباب العالى) فى الآستانة بعد ظهر السبت ٢٥ يوليو ١٩١٤ أطلق محمود مظهر الطالب بمدرسة البحرية التجارية نيران مسدسه عليه فأصابه بأربع رصاصات فى خده الأيمن ، وأصاب صهره جلال الدين باشا فريد واثنين من المارة ، فإطلق ياور الخديوى الرصاص على الجانى فقتله — وكان عمر مظهر وقت ارتكابه الحادث تسعة عشر عاماً وهو ابن المرحوم أحمد مظهر بك رئيس محكمة بنى سويف فى ذلك الوقت — وكان أصغر اخوته ، وأمه جركسية الأصل .

أما جلال الدين فريد باشا فهو جلال الدين فريد فلورا باشا قبوكتخدا (ممثل) الخديوى عباس حلمى الثانى بالآستانة اعتباراً من ١٠/١١/١٩١٢ وحتى ١٨/١٢/١٩١٤ عندما ألغيت القبوكتخدائية الخديوية على أثر نشوب الحرب العالمية — شغل جلال الدين باشا وظيفة سكرتير سفارة تركيا ببباريس منذ ١٩٠٧ وحتى نوفمبر ١٩١٢ . عند إلغاء القبوكتخدائية ظل يواصل عمله ممثلاً لمصر فى الآستانة وبقيت حكومة الآستانة معترفة به كممثل لمصر لديها . وقام بأعمال رعاية المصريين الذين احتجزتهم ظروف الحرب فى الآستانة — راجع دار الوثائق القومية — محفظة مجلس الوزراء لسنة ١٩٢٧ . وثيقة ٢٤٥ رقم ١/١٩٧ متنوعة .

ونعود الى (حبيبه هانم) جاسوسة الخديوى على أعوان الملك
فؤاد — للتعرف على حقيقتها : لقد كشف لنا (أحمد نجاتى) فى تقريره
هذا بعضا من جوانب شخصيتها عندما قال أنها عينت فى الحرب العامة
(يقصد الحرب العظمى ١٩١٤ — ١٩١٨) بأمر سيف الدين بك قائم مقام
أركان حرب ومدير الاستعلامات فى الشعبة الثانية (أى جهاز
المخابرات) بوزارة الحربية (التركية) بوظيفة رقيب (Censor)
فى قلم الرقابة — وأنها كانت ما بين الثلاثين والخامسة والثلاثين فى
ذلك الوقت لأن (نجاتى) قدر عمرها فى تقريره المؤرخ ديسمبر ١٩٢٤
بأربعين الى خمسة وأربعين عاما • أما باقى جوانب شخصية (حبيبه
هانم) فيكشفها تقرير (محمد بك بدر جركس) أحد رجال القصر
الملكى الذى أوفده الملك فؤاد فى مايو ١٩٢٤ للتجسس على الخديوى •

كان محمد بك بدر جركس قد وصل الى الآستانة للتعرف على
الشبكة التى يديرها الخديوى للتجسس على القصر الملكى — وكانت
خطته هى الدخول فى زمرة الخديوى والاندساس بينهم ليعرف خبايا
عمليات الخديوى ضد الملك •

أمكن (لمحمد بدر) أن يتصل (بعبد الحميد رفعت) الوارد ذكره
فى تقرير (نجاتى) وطلب منه أن يساعده فى مقابلة الخديوى ليقدم
فروض الطاعة باعتباره أحد المخلصين له — وبالفعل فان (عبد الحميد
رفعت) أبلغ جاسوس القصر (بدر جركس) بموعد المقابلة ، وفى الفترة
الواقعة بين لقائه بعبد الحميد رفعت وموعد لقاء الخديوى ، وهى عدة
أيام حضرت سيدة الى الفندق الذى يقيم به (بدر) وطلبت مقابلته •
ولندع (محمد بدر جركس) يصف فى تقريره الذى أرسله للملك فؤاد
فى ١٢ مايو ١٩٢٤ قصة هذه السيدة •

« وجدتها سيدة تبلغ من نحو الأربعين ، قبيحة المنظر ولكنها
على جانب عظيم من الدهاء سمراء اللون قليلا قصيرة القامة كبيرة

العينين يلوح الذكاء الشديد منهما ••• قالت لى أنا مصرية ومقيمة بالآستانة من مدة وانى أتكلم بالألمانى والفرنسـاوى والطيانى والانجليزى قراءة وكتابة واسمى (حبيبه) وقد توظفت مديرة القلم الافرنجى ببوستة الآستانة فى زمن الحرب وبقيت بوظيفتى هذه عشر سنوات ثم عزلت وانى اشتغل الآن فى التجارة لبيوت عائلات الأتراك الكبيرة » (٢٣) •

أفهمت (حبيبه) محمد بدر أنها علمت بحضوره الى الآستانة وأنها حضرت لتعرض عليه خدماتها اذا رغب فى الزواج بتركية من استانبول ، وشرحت له أسلوبها فى عرض عرائسها على الراغبين والذى كان يتلخص فى رسم صور الفتيات التركيات (عرايا) بعد التأثير عليهن ، ثم عرض هذه الصور على أمثال (بدر) وشفعت عرضها هذا بتقديم صورتين عاريتين لفتاتين ادعت أنهما من بنات العائلات العريقة وطلبت من (بدر) فى المقابل أن يقدم لها بياناته لكى تعرضها على الطرف الآخر (أهل العروس) وكانت البيانات هى :

اسم الأب — وظيفته ومكانها — عمر العريس — محل سكنه فى مصر — حالته الاجتماعية — مهنته — ثروته ومقدارها — أطيانه ان وجد — صلاته بالشخصيات الكبيرة فى مصر (٢٤) • وهى أسئلة تكشف بسهولة عن حقيقة الدور الذى يلعبه سائلها — فاذا أضفنا الى ذلك أن (بدرا) كان قد اكتشف أن الصور التى قدمتها له (حبيبه) هى صور من تلك التى تباع فى المحلات والمسامه (كارت بوسثال) وأنه شك فى ادعاء حبيبه الغير مبرر بعلمها بحضوره الى الآستانة الى جانب روح الحذر التى تكون موجودة دائما عند المشتغل بالعمل السرى — اذا استحضرننا هذا كله فان كشف (بدر) لجاسوسة الخديوى كان أمرا سهلا —

(٢٣) د. محمد أنيس صفحات مجهولة ص ٨٥٨ •

(٢٤) المرجع السابق ص ٨١ — ٩٠ •

لكن الذى يعنيننا ليس هو ذلك ، وانما هو الاكتشاف المبكر من جانب (عباس) لرجال (فؤاد) واتخاذ الاجراءات المضادة لاجهاض تحركاتهم وكشفها ، ومحاولات (زرع) الجواسيس من جانب الملك فؤاد فى قلب حاشية واعوان ابن أخيه ، وهو أسلوب بوليسى قديم شاع استعماله فى العشرينات (٢٥) ولا زالت أجهزة الأمن السياسية تستخدمه حتى الآن •

من خلال المعلومات التى أوردها (أحمد نجاتى) فى تقريره بتاريخ ديسمبر ١٩٢٤ وتقرير (محمد بدر جركس) يمكن القاء الضوء على شخصية (حبيب هانم) كنموذج لذلك النوع من الجواسيس والأعوان الذين كان كل من (فؤاد) وعباس يستخدمهم فى حربهما الخفية •

فى ختام تقريره الى (نشأت باشا) طلب (نجاتى) موافاته بقائمة بأسماء الأشخاص المنسوبين الى عائلة من يدعى (اسماعيل باشا الكردى) •

ومن الثابت من واقع تقرير (نجاتى) أن رجال الملك فؤاد كانوا يعملون فى مهمتهم بالتنسيق مع البوليس المصرى • فقد قدم (نجاتى) فى نهاية تقريره قائمة بأسماء ستة أتراك من الجنسين ممن يشتغلون بالتمثيل والمقيمين بالآسكانة وذكر أن ثلاثة منهم قد حضروا من الاسكندرية فى الرابع عشر من نوفمبر عام ١٩٢٤ الى القاهرة وأقاموا (بلوكاندة) ماجستيك بحارة الزهار بشارع كامل قسم الأربكية — أما الثلاثة الآخرين فقد سافروا الى الاسكندرية من القاهرة فى السادس والعشرين من ذلك الشهر • وذكر (أحمد نجاتى) فى نهاية تقريره أنه حصل على القائمة « بواسطة حسين أفندى عبد الكريم أحد

(٢٥) راجع القضية (١١٠) جنيات السيدة زينب لسنة ١٩٥٢ (مقتل السردار) ودور محمد نجيب الهلباوى فيها •

رجال البوليس السرى الذى كان يشتغل معى فى الداخلية أثناء
اشتغالى فيها » (٢٦) •

فى ٨ ديسمبر ١٩٢٤ قدم (نجاتى) تقريراً آخر (لنشأت) ذكر
فيه أن (البكباشى أدهم) الذى ورد ذكره فى تقريره السابق كان
يقيم مع شخص آخر يدعى (صلاح) عند الأمير (محمد على توفيق)
أخ الخديوى عباس • وهذه المعلومة تعد غريبة بالنظر للسياسة التى
كان يتبعها الأمير (محمد على توفيق) تجاه علاقة أخيه بالانجليز والتى
كان يختلف معه فيها خشية على أمواله من المصادرة — وهى سياسة
لا يتصور معها أن يتعاون معه فى قضية تمس أمن (الملك فؤاد)
المشمول بحماية الانجليز (٢٧) •

ويوضح تقرير (نجاتى) أن عمليات المراقبة واقتفاء الأثر كانت
تشمل كل من له صلة بالخديوى السابق من قريب أو بعيد ، بما فى ذلك
العاملين فى دائرته أو دوائر أقاربه — فقد كان (محمد نديم) كاتب
تركى والد الخديوى محل مراقبة (نجاتى) شأنه فى ذلك شأن
(حبيب هانم) التى ذكر (نجاتى) فى تقريره هذا أنها كانت تقيم فى
(شارع الحميدى ببورسعيد) •

وقد أبدى (نجاتى) فى تقريره (لنشأت باشا) رغبته فى السفر

(٢٦) دار الوثائق القومية . نفس المرجع تقرير رقم (٣) •
(٢٧) وولى العهد خلال فترة حكم الملك السابق فاروق (١٩٣٧ —
١٩٥٢) حتى قيام ثورة يوليو ١٩٥٢ — اتخذ موقف المحايد فى نزاع أخيه
(عباس) مع انجلترا لكى لا يغضبها خشية مصادرة أمواله فى مصر —
كان يكره الدولة العثمانية ولا يخفى عداوته لها — اختلف مع أخيه بعد عزله
واشتغل فى عام ١٩١٥ بمشروع تقديم مقترحات للحصول على ضمانات
من تركيا وألمانيا بشأن المستقبل وضمان حالة مصر بعد الحرب — كان
متعاوناً مع الانجليز — راجع محمد فريد « مذكراتى بعد الهجرة » ١٩٠٤ —
١٩١٩ ، ص ١١٥ ، ١١٦ ، ١١٧ ، ١٩٥ ، ١٩٩ ، ٢٠٠ ، ٢٣٣ ، ٢٣٤ ،
٢٣٩ ، ٢٤٠ ، ٢٤٣ ، ٢٤٦ ، ٣٠٣ ، ٤٠٦ •

الى (بيروت) لمقابلة عميله (سعد الدين الطرابلسى) صاحب شركة السيارات فى بيروت الذى ورد ذكره فى تقريره بتاريخ ٢٦/٩/١٩٢٤ سنة ١٩٢٤ (٢٨) • والذى كان قد اتفق معه على تزويده بالمعلومات عن الأتراك الذين يفدون الى بيروت •

فى تقاريره الى مدير عموم الأمن العام بوزارة الداخلية (محمود غمى القيسى باشا) اختص (نجاتى) جهاز البوليس بمعلومات خطيرة لم يبلغها (لنشأت) رغم توافق تواريخ تقاريره الى الرجلين — فتقاريره الى نشأت كانت فى ١/١/١٩٢٤ ، ٢٦/٩/١٩٢٤ ، ١/١٢/١٩٢٤ ، ٨/١٢/١٩٤ — وتقاريره الى (القيسى) كانت فى ١٨/٩/١٩٢٤ ، ٢٤/٩/١٩٢٤ ، ٢٢/٩/١٩٢٤ ، ١/١٠/١٩٢٤ ، ١٣/١٢/١٩٢٤ •

ولا تفسير لذلك الا أن تكون هناك تقارير أخرى لم نطلع عليها ، وتضمنت هذه المعلومات — أو أن يكون جهاز البوليس فى وزارة الداخلية و (نشأت) كيانا واحدا منفتحان على بعضها فى هذا الشأن • بمعنى أن أمن القصر هو أمن الدولة ومن ثم فلا حاجة عند (نجاتى) للفصل بينهما وهو ما نميل الى الأخذ به •

كما يلاحظ أن (أحمد نجاتى) قد اتخذ لنفسه فى تقاريره لمدير الأمن العام لقب (مأمور استخبارات عموم الأمن العام تارة — ومأمور عموم الأمن العام تارة أخرى — ووضع علامة x محل توقيعه فى تقريرين من هذه التقارير (١٤/٩/١٩٢٤) ، (٢٢/٩/١٩٢٤) — ربما رغبة فى التخفى حيث كان قد شكأ فى تقريره الى (نشأت) بتاريخ أول ديسمبر ١٩٢٤ من (أن التقارير التى أرسلتها اليها) وزارة الداخلية) كانت تترجم بواسطة شخص يعرف التركية فهذا الشخص

(٢٨) دار الوثائق القومية • نفس المرجع تقرير رقم (٤) •

صار واسطة لتعريف الأتراك الموجودين هنا بى وقد علمت ذلك بمزيد التأثير ، (٢٩) أى أنه كان قد (احترق) كمرشد بلغة البوليس •

يكشف التقرير الأول من (نجاتى) الى (القيسى باشا) بتاريخ ٨ ديسمبر ١٩٢٤ أن وزارة الداخلية كانت قد كلفتة بعمل سياحة فى سوريا وفلسطين لجمع المعلومات عن الخديوى السابق وأعوانه • وبعد جولته هذه كتب تقريره هذا الذى كشف فيه عن وجود جمعية سرية فى مصر باسم « جمعية ادريس فؤاد » وقد ورد اسمه فى تقريره الثانى (لنشأت) بتاريخ ١٩٢٤/٩/٢٦ باعتباره أحد المتعاونين مع الخديو السابق فى بيروت — وأن من أغراض هذه الجمعية مراقبة من يأتى الى مصر والتجسس على الحكومة المصرية وابلاغ ما تسفر عنه تحريات هذه الجمعية الى المكتب الثانى البريطانى (المخابرات) فى فندق (عدن بالاس) بالقاهرة • وذكر (نجاتى) أن من أعضاء هذه الجمعية (رفيع جواد) الذى نسب اليه (نجاتى) فى تقريره لنشأت بتاريخ ١٩٢٤/٩/٢٦ انه من أعضاء هيئة تحرير جريدة ابابيل التى كان الخديو السابق يسيطر عليها (٣٠) • وشيخ الاسلام (الخوجه صبرى) والبكباشى (المقدم) (نورى ماناو أوغلى) — كما ألمح (نجاتى) الى أن هذه الجمعية كانت تحظى برعاية (الأمير فيصل) (والأمير عبد الله) — وتفتح هذه الجزئية المجال لمناقشة العلاقات العراقية المصرية فى العشرينات على اعتبار أن (الأمير فيصل) بن الحسين بن على كان ملكا للعراق فى ذلك الوقت — هذا اذا كان (نجاتى) يقصده — أما اذا كان المقصود هو الأمير (فيصل بن عبد العزيز آل سعود) فقد كان منشغلا فى ذلك الوقت بعمليات فتح الحجاز التى انتهت بالاستيلاء على (مكة) من (آل عون) فى ١٣ أكتوبر ١٩٢٤ • وعلى أى حال فقد كانت علاقات كل من العراق و (سلطنة نجد)

(٢٩) راجع التقرير رقم (٣) •

(٣٠) راجع التقرير رقم (٢) •

بريطانيا فى ذلك الوقت طيبة — نظرا لامتناع بريطانيا عن التدخل لانقاذ (الملك حسين بن على) من الغزو السعودى • هذا فيما يتعلق بآل سعود • وبالنظر لدور بريطانيا فى ايجاد عرش (لفیصل) فى العراق بعد طرده من (سوريا) • وتفتح هذه الجزئية المجال لمناقشة علاقات امارة شرقى الأردن التى كان الأمير عبد الله بن الحسين أميرا عليها منذ عام ١٩١٩ بمصر — وكذلك علاقات سلطنة نجد بمصر •••• وهذا كله بهدف التعرف على السر فى (النفقات ومساعدة) الأمير فیصل (أيا كان هو) — والأمير (عبد الله) لجمعية (ادريس فؤاد) التى كانت تتجسس على مصر لصالح بريطانيا (٣١) •

فى تقريره الثانى الى (القيسى) والمؤرخ ١٤ سبتمبر ١٩٢٤ تحدث (نجاتى) عن أعوان الخديو عباس الذين أسماهم (العباسيون)، وذكر انه وجدهم فى موقعهم وتعرف على ثلاثة منهم هم (مصطفى أفندى أبو الحطب) و (ابراهيم البندانى) و (عبد اللطيف أفندى الباروتى) — ونجح فى عقد صداقة مع تركيين وصلا الى بيروت على باخرة تحمل العلم العثمانى ، هما (توفيق بك) و (فريد شوكت) وكانا يسألان عن (ادريس فؤاد) رئيس الجمعية التى أشار اليها فى تقريره السابق (للقيسى) — وقد أشار (نجاتى) فى تقريره الى أنه قد نجح مع زميلين له فى (تصوير المطبعة) ومن المحتمل أن هذه المطبعة كانت تطبع ما يحتاج اليه (عباس) فى صراعه مع عمه (فؤاد) ، أو أنها كانت مطبعة جريدة (أبابيل) التى أشار اليها (نجاتى) فى تقاريره السابقة (٣٢) •

قدم (أحمد نجاتى) فى تقريره الثالث المؤرخ أول أكتوبر ١٩٢٤ معلومات عن الشخصيات المتعاونة مع الخديو السابق — فعرف (محمود ماهر) الوارد ذكره فى تقريره الى (نشأت) بتاريخ ٢٦ سبتمبر

(٣١) دار الوثائق القومية . نفس المرجع التقرير رقم (٥) .

(٣٢) دار الوثائق القومية . نفس المرجع التقرير رقم (٦) .

١٩٢٤ والذي قال عنه أنه أحد الأشخاص الذين يقومون بمهمة الوساطة بين الخديو والسلطان محمد وحيد الدين — بأنه كان مأمور البروباغنده السرية (الدعاية السرية) للخديو والكاتب التركي لوالدته • أما (محمود نديم) الذي أشار إليه في تقريره بتاريخ ٨ ديسمبر ١٩٢٤ على أنه كاتب تركي والد الخديو — فقد ذكر في تقريره الى (القيسى) أنه كان مدرسا في إحدى المدارس المصرية •

وقد أبدى (نجاتي) في هذا التقرير تخوفه من انكشاف أمره لدى (الأتراك) الذين كانوا يتعقبونه ويسألونه عن مهمته والجهة التي قدم منها — وطلب تزويده بذاكرة شخصية وسلاح لكي يتمكن من اتمام مهمته (٣٣) •

في العاشر من أكتوبر ١٩٢٤ قدم (أحمد نجاتي) تقريراً مطولاً الى ادارة عموم الأمن العام تحدث فيه عن عدة قضايا يعنينا منها مقاصد جمعية ادريس فؤاد التي لخصها (نجاتي) في تبليغ أضرار مصر الى الشعبة الثانية البريطانية • وأن لهذه الجمعية فرع في الشام كان يديره (حسن حلمي) شقيق ادريس فؤاد — وتقوم بنفس مهام الجمعية الأولى • وعرف (نجاتي) (ادريس فؤاد وحسن حلمي) بأنهما نجلا الصدر الأعظم (كامل باشا) (٣٤) — وقد تغلغل هذه

(٣٣) دار الوثائق القومية نفس المرجع التقرير رقم (٧) •

(٣٤) هو قبرصلى محمد كامل باشا (١٨٣٢ — ١٩١٣) اشتهل حاكماً في بعض الولايات العربية ، وقبرص ثم وزيراً للمؤسسات الدينية (١٨٧٩ ، ١٨٨٢) ووزيراً للتعليم (١٨٨٠) — ثم صدراً أعظم ١٨٨٥ — ١٨٩١ ، وأول صدر أعظم بعد الاعلان الدستوري في عام ١٩٠٨ (١٩٠٨ — ١٩٠٩) ... وصدراً أعظم (٢٩ أكتوبر ١٩١٢) حتى الانقلاب الحكومي من حزب الاتحاد والترقي ضده في ٢٣ يناير ١٩١٣ والذي نتج عنه تعيين الفريق محمود شوكت باشا صدراً أعظم حتى مقتله على يد أنصار حزب الاتحاد الحر (Liberal Union) في ١٥ يونيو ١٩١٣ • راجع :

Stanford J. Shaw. Ezel Kural shaw (History of the ottoman Empire and Modern Turkey Vol. II. pp. 220, 274. 276, 291, 294, 296, 453, 454.

الجمعية فى فروع الجهاز الادارى فى مصر ، فكان (دره لى ابراهيم والميرالاي نصوحى بك) من أعضائها ويعملان فى قلم الجوازات بالاسكندرية •

وعن جريدة (أبابيل) ذكر (نجاشى) أن الشركاء فى ادارتها (رفيع جواد) صاحب جريدة (علمدار) سابقا و (رفيق خالد) أحد محررى جريدة (صباح بيام) سابقا • والممثل (برهان الدين) و (حسين الخيار) و (يوسف شاشاتى) صاحب الجريدة — وان الذين يمولون الجريدة هم (الأمير عبد الله) و (السلطان محمد وحيد الدين) (٣٥) والخديو (عباس حلمى) (٣٦) •

وحتى الثالث عشر من ديسمبر ١٩٢٤ كان (أحمد نجاشى) يجهد نفسه فى التعرف على صلة (البكباشى أدهم) الذى كان قد سافر فى ذلك اليوم الى (بورسعيد) — (بحبيبه هانم) التى ورد ذكرها فى تقاريره الى (نشأت باشا) (٣٧) •

والى جانب الجواسيس المحترفين الذين اشتغلوا بتنفيذ خطط الخصمين فقد اشتغل جهاز البوليس السياسى بعمليات تعقب أعوان الخديو فى الداخل والتسلل داخل تجمعاتهم •

غير أن أهم ما يلفت النظر فى تقارير الأمن السياسى هذه هو

(٣٥) بعد خلع السلطان عبد الحميد الثانى فى ١٩٠٩ عين السلطان محمد رشاد (محمد الخامس) حتى وفاته عام ١٩١٨ — ثم تولى بعده السلطان محمد وحيد الدين (محمد السادس) حتى إلغاء السلطنة فى أول نوفمبر ١٩٢٢ والابقاء على الخلافة • وفى ٧ نوفمبر ١٩٢٢ هرب محمد وحيد الدين على ظهر سفينة بريطانية تاركا البلاد كآخر السلاطين • واختار المجلس الوطنى (الكمالى) الخليفة عبد المجيد (١٨٦٨ — ١٩٤٤) خليفة للمسلمين حتى إلغاء الخلافة والعصر العثمانى فى ٣ مارس عام ١٩٢٤ • راجع الدكتور / أحمد عبد الرحيم مصطفى « فى أصول التاريخ العثمانى » دار الشروق — الطبعة الأولى ١٩٨٢ ص ٢٦٩ ، ٢٧٣ ، ٣١٠ ، ٣١٤ •

(٣٦) دار الوثائق القومية — نفس المرجع التقرير رقم (٨) •

(٣٧) دار الوثائق القومية نفس المرجع تقرير رقم (٩) •

ذلك الربط التام بين نشاط الخديو السابق والحزب الوطنى ، والقناعة التامة عند مسئولى الجهاز بأن الحزب متعاون تماما مع الخديو فى قضية استرداد عرشه رغم ما كان معروفا عن انقسام الحزب فى المنفى بين متعاون معه وناء عنه (٣٨) ، وهو ما يثير قضية جهل أجهزة الأمن السياسى فى ذلك الوقت بحقائق القضايا السياسية .

تضمن تقرير الأمن السياسى الذى نحن بصددده والصادر فى عام ١٩٢٤ أعمال مراقبة الحزب الوطنى — والطلبة — والشيوعيين على مدى الربع الأول من العام ، وفيه خلط محرر التقرير بين اعتناق من ورد ذكرهم فيه للأفكار الشيوعية — وميولهم التركية ، ومساعيهم كأعضاء فى الحزب الوطنى (فى قلب المملكة وارجاع الخديو السابق) (٣٩) .

وشمل التقرير أعمال مراقبة الأتراك الموالين للخديو السابق بالاسكندرية وعلاقات كبار مهربي المخدرات المصريين بالخديو ومساعيه لشراء السفن لتهريب الأسلحة والذخائر والمطبوعات التى مصر بمعاونتهم (٤٠) .

(٣٨) محمد فريد « مذكراتى بعد الهجرة ١٩٠٤ — ١٩١٤ » مرجع سبق ذكره .

(٣٩) دار الوثائق القومية — نفس المرجع . التقرير رقم (١٠) وهو

يحمل عنوان $\begin{matrix} S \\ K \end{matrix}$ ويتضمن أعمال مراقبة وتحريات أيام ٢ — ٣ يناير

١٩٢٤ — ١٣ ، ١٦ ، ١٧ ، ٢٠ ، ٢٥ ، ٢٧ ، ٢٨ ، ٢٩ فبراير ١٩٢٤ — ١٦ ، ١٨ مارس ١٩٢٤ — وقد جاء فى الجزء الخاص بمراقبة من يدعى (الأستاذ دجوى) المحامى بالسويس أنه كان يميل الى الشيوعية المعتدلة وعضو لجنة الحزب الوطنى فى مديرية الشرقية . وأن أهالى الزقازيق يعتقدون أنه تركى الميول ويسعى كغيره من أعضاء الحزب الوطنى فى قلب المملكة وارجاع الخديو السابق — وتاريخ هذا التقرير هو ٢ يناير ١٩٢٤ . (٤٠) دار الوثائق — المرجع السابق — ويذكر هذا التقرير المؤرخ فى ٢٧ فبراير ١٩٢٤ أن (حسين الجريدلى المشهور بتهريب الحشيش له علاقة بالخديوى السابق وعلم أن الخديوى سبق واشترى مركب خاصة على حسابه وسلمها لحسين المذكور ليهرب فيها ما يرسل من الخارج بواسطة الخديوى السابق من الأسلحة والذخائر والمطبوعات .

على مدى عام واحد فقط كشفت التقارير التى تضمنتها هذه الدراسة عن عمليات تجسس وتجسس مضاد كان طرفاها الملك فؤاد — وابن أخيه الخديو المخلوع (عباس حلمى توفيق) • وقد شملت هذه العمليات مراقبة الاجتماعات ، ومتابعة الشخصيات ، وكشف الأنشطة ، وتجنيد الأعوان ، واجهاض المؤامرات •

واستخدم الذين قاموا بتنفيذ هذه المهام مختلف الوسائل من تنكر ، وانتحال وظائف ومهن وحرف • وتتنقلوا بين أكثر من قطر •

واستلزم القيام بهذه المهام استخدام جواسيس محترفين ، ورجال قصور ، ودبلوماسيين ونساء ، وأتراك ، ومصريين — وأجهزة حكومية ، وموظفين كبار (٤١) •

وإذا كانت هذه التقارير قد كشفت عن خبايا فترة من تاريخ مصر المعاصر — فأنها قد كشفت أيضا عن خبايا النفس البشرية ، وما يمكن أن تقارفه هذه النفس من استخدام لأحط الوسائل وأحقرها فى صراعها من أجل السلطة •

(٤١) محمود فهمى القيسى باشا :

ولد نحو سنة ١٨٨٢ وتخرج فى مدرسة الحقوق سنة ١٩٠٤ فعين كاتباً مؤقتاً بالنيابة لدى المحاكم الأهلية ثم رقى فى نفس السنة معاوناً للنيابة . وتدرج فى وظائف النيابة حتى منح فى سنة ١٩١٥ رتبة البكوية من الدرجة الثانية ثم نقل فى سنة ١٩٢٣ الى وزارة الداخلية حيث عين مساعداً لمدير ادارة عموم الأمن العام ثم رقى فى نفس السنة مديراً لها ومنح رتبة البكوية من الدرجة الأولى كما منح فى سنة ١٩٢٥ رتبة الباشوية ، وعين مندوباً أول لمصر فى مؤتمر مراقبة التجارة بالسلاح الذى انعقد فى جنيف فى تلك السنة وفى سنة ١٩٢٩ عين وكيلاً لوزارة الداخلية ثم اختير وزيراً للداخلية فى مارس سنة ١٩٣٣ ثم فى سبتمبر من تلك السنة واختير فى سنة ١٩٤٠ وزيراً للدفاع الوطنى . وقد انتخب عضواً بمجلس النواب فى دورات عديدة ، ثم توفى عندما كان نائباً عن دائرة (منشأة مطاى) فى سنة ١٩٤٦ راجع اللواء ابراهيم محمد الفحام « أعلام الادارة والشرطة فى مصر الحديثة — ١٨٨٢ — ١٩٥٢ » دراسة تحت الطبع — مركز بحوث الشرق الأوسط — جامعة عين شمس .

« ملحق ١ »

سعاد تلو حسن نشأت باشا حضر تـلـرـيـنـه — عـرـض و تـقـديـم

الى الجناب السامى

يعرض عبدكم — عرضت فى تقريرى الذى قدمته منذ ١٥ أو ٢٠ يوما تقريبا الى جنابكم السامى أن واحدة تسمى (حبيبـه هانـم) من المنسـوبـين الى الخـديـوى السابـق حـضـرت الى القاـهـرة و يـعـد أن قـضـت فيها بضعة أيام سافرت الى بورت سعيد وقلت أنها الآن هناك •

(حبيبـه هانـم) جـاءت الى القاـهـرة فى ٣ نوفمبر سنة ١٩٢٤ و يـعـد الاقامة عند الأميرة أمينة والدة الخديوى عباس حلمى باشا بضعة أيام ذهبت الى بورت سعيد وهى الآن موجودة هناك عند (مصطفى أفندى رياض) باشكاتب قسم العرب وهذا هو عنوان خطاباتها (بورت سعيد : مصطفى أفندى رياض باشكاتب قرة قول قسم العرب ومنه الى الست حبيبـه هانـم) وعلى حسب ظنى القاصر فان حبيبـه هانـم تقوم بخدمة فى دائرة ضيقة جدا وهى ذكية جدا وعمرها ما بين ٤٠ و ٤٥ ولكى تقوم بوظيفتها على وجه حسن فأنها تقوم بوظيفة خادمة فى محلات الأشخاص الذين ترى أنه يمكن أن يصيب الخديوى منهم ضرر وبعد أن تقوم بعملها تترك المحل الذى تخدم فيه منتحلة لذلك سببا وإذا لم توفق لعمل فانها تستعين ببضعة نساء أخريات مثلها يقمن بعملها • (حبيبـه هانـم) فى الحرب العامة تعينت بأمر سيف الدين بك قائم مقام أركان حرب ومدير الاستعلامات فى الشعبة الثانية بوزارة الحربية بوظيفة رقيب (سانسور) فى قلم الرقابة ومكثت فى الوظيفة المذكورة مدة طويلة فى سنى الحرب ونظرا للمعلومات الأخيرة التى حصلت عليها فأنها تريد الاقتران برجل من أقرانها • جعله الله عرسا مباركا •

يقال أنه يوجد مع حبيبه هانم أشخاص اسمهم : عبد الحميد أفندى رفعت ، سيد الشيدى ، مظهر أفندى ، بيكباشى أدهم بك فهؤلاء الأشخاص الذين ذكرت أسماءهم هم اخوان حبيبه هانم فى المسعى فى استانبول ويقال أنهم الآن موجودون هنا ولكن بين هؤلاء (البيكباشى أدهم بك) يوجد ايضا حات كافية عنه فى تقريرى الذى كتبته من بيروت وانى فى ذلك التقرير لم أكتب عن البيكباشى أدهم بك فقط بل أعطيت ايضا حات عن أشخاص كثيرين غيره ولكن لم يعتنى به فى ذلك الوقت • هناك مروة عملتها معى الداخلية وهى (أن التقارير التى أرسلتها اليها كانت تترجم بواسطة شخص يعرف التركية فهذا الشخص صار واسطة لتعريف الأتراك الموجودين هنا بى وقد علمت ذلك بمزيد التأثير •

سأرجو بعض أشياء ، اذا وجدت مناسبة من جانب دولتكم ، لى أقوم فى كل وقت بأخبار سيدى ولكن يمكن انباؤه وبسرعة بخلاف ما كان سابقا •

انى سأسافر ثانيا الى بورت سعيد فى ٨ ديسمبر ١٩٢٤ يوم الاثنين وأريد البقاء هناك مدة شهر تقريبا وفى ظرف الشهر سأراقب من يأتون من بيروت وغيرها من المحلات الأخرى ومن يجرى من رفقاء البيكباشى أدهم بك وأريد أن أفهم اذا كانوا على اتصال مع حبيبه هانم أم لا •

ثانيا : كنت أعطيت لحضرتكم معلومات قصيرة عن شخص اسمه صلاح الدين بك فهذا الشخص هو أخ محمود مظهر الذى كان طالبا بمدرسة التجارة البحرية باستانبول واعتدى على الخديوى ثم قتل بصورة فظيعة من طرف الخديوى فهذا الشخص هو الآن صديق صادق لى وأنى أريد أن أشركه فى مسعى لنقوم معا بإيفاء حسن الخدمة الى حضرة صاحب الجلالة حبيبنا وولى نعمتنا الملك وقد قال لى صلاح

الدين بك وهو ييكي أنه مستعد لأن ينتقم من الخديوى لأخيه الذى ذهب ضحيته فى ريعان شبابه فهذا الشاب الذى حضر حديثا من استانبول يعرف الأشخاص المقربين من الخديوى جيدا ويمكننى أن أستفيد منه فى كل شىء وبما أن الزمن أبو العجائب فان كل انسان يمشى على حسب الزمان والسياسة فلا تلتفتوا قطعيا الى التقارير التى تقدم اليكم من طرف بعض الأشخاص لتضيع من وقتكم الثمين فى زمن مشاغلكم هذه فسواء كنت أنا أو صديقى صلاح الدين بك فيمكننا اخطاركم بالحوادث الحقيقية وصلاح الدين بك يعرف الألمانية والانكليزية والعربية والتركية • ثم أرجو التفضل على خادمكم بكشف صغير بأسماء الأشخاص المنسوبين الى عائلة اسماعيل باشا الكردى وأنى مع تقبيل أياديكم الكريمة أقدم احتراماتى أفندم •

الأشخاص المذكورين بالكشف طيه كلهم أتراك وقسم منهم موجود بالاسكندرية وقسم منهم هنا وقد حصلت على هذا الكشف بواسطة حسين أفندى عبد الكريم أحد رجال البوليس السرى الذى كان يشتغل معى فى الداخلية أثناء اشتغالى فيها وحسين أفندى عبد الكريم هذا مع أنه صديقى القديم فى المسعى فان لديه وثيقة البوليس وبهذه الوساطة حصلت على هذا الكشف ونظرا لأن هؤلاء الأشخاص جاءوا حديثا من استانبول فسأعمل تحقيق عن متصلون بهم وأعرض ذلك على سيدى •

الكشف

الاسم واللقب	الجنسية	الصناعة	الاقامة
محمد الصنعاوى	تركى	ممثل	الآستانة
نورية الصنعاوى	تركية	ممثلة	الآستانة
أنور الصنعاوى	تركى	ممثل	الآستانة
توفيق اسماعيل	تركى	ممثل	الآستانة
خالد أمين	تركى	ممثل	الآستانة
أحمد رشاد	تركى	ممثل	الآستانة

الثلاثة الأولون حضروا من الاسكندرية يوم ١٤ / ١١ / ١٩٢٤
الساعة ٧ مساء

وسافروا الى الاسكندرية الساعة عشرة صباحا يوم ٢٦ / ١١ /
١٩٢٤ •

أما الثلاثة الآخرون فهم موجودون باللوكاندة لغاية الآن وهى
لوكاندة ماجستيك بحارة الزهار بشارع كامل قسم الأزبكية •

مصادر الدراسة

(أ) الوثائق :

غير المنشورة :

١ — دار الوثائق القومية بالقلعة •

(أ) محفظة مجلس الوزراء لسنة ١٩٢٤ بدون رقم — ملف يحوى أحد عشر تقريراً تتعلق بملاحقة نشاط الخديو السابق عباس حلمى •

(ب) محفظة داخلية ٤ (أمن) ملف ٦ — تقرير عن مأمورية السلوم بتاريخ ٢ مايو ١٩٢٤ — وتقرير القائمقام محمد كامل الرحمانى بتاريخ ٢٦/٧/١٩٢٤ •

(ج) محفظة مجلس الوزراء لسنة ١٩٢٧ بدون رقم — وثيقة ٢٤٥ رقم ١/١٩٧ متنوعة •

٢ — المتحف القضائى — القضية ١١٠ جنايات السيدة زينب لسنة ١٩٢٥ (مقتل السردار) •

3 — St. Antony's College - Oxford - Middle East Center -
Russel's Private Papers - JQ 3801 - DT 107 A list about the political
crimes which took place between the years 1910 , 1946.

المنشورة :

١ — الدولة المصرية (مجلس النواب) — الهيئة النيابية الثالثة —
مجموعة مضابط الانعقاد العادى الثانى — المجلد الأول
(١٨ نوفمبر ١٩٢٦ — ٢٨ مارس ١٩٢٧) — مضبطة الجلسة
التاسعة والعشرين لمجلس النواب ١٤/٢/١٩٢٧ •

(ب) المذكرات :

أوراق محمد فريد « مذكراتى بعد الهجرة » (١٩٠٤ — ١٩١٤)
— مركز وثائق وتاريخ مصر المعاصر — سلسلة المذكرات
التاريخية •

مذكرات جمال باشا ، تعريب على أحمد شكرى — مكتبة الهلال.
— القاهرة ١٩٢٣ •

(ج) المؤلفات :

باللغة العربية : أحمد عبد الرحيم مصطفى (الدكتور) « أصول
التاريخ العثمانى » دار الشروق ، الطبعة الأولى — ١٩٨٢ •

— عبد الرحمن الرافعى « فى أعقاب الثورة المصرية » — كتاب
الشعب — ج ١ — القاهرة ١٩٦٩ •

— محمد أنيس (الدكتور) « صفحات مجهولة من التاريخ المصرى
أو سنوات الصراع العنيف بين فؤاد وعباس — كتاب روز
اليوسف — العدد الثانى — ابريل عام ١٩٧٣ •

— محمد رفعت « تاريخ مصر السياسى فى الأزمنة الحديثة »
المطبعة الأميرية القاهرة ١٩٥٢ •

— يونان لبيب رزق (الدكتور) « تاريخ الوزارات المصرية » —
مركز الدراسات السياسية والاستراتيجية الأهرام ١٩٧٥ •

باللغة الانجليزية :

Stanford J. shaw & Ezel Kural shaw « History of the ottoman Empire and Modern Turkey » Vol. II. Cambridge University press
Cambridge — 1977.

(د) المقالات والبحوث : لطيفة محمد سالم « الصراع العسكرى بين الدولة العثمانية وبريطانيا فى مصر ١٩١٤ — ١٩١٨ » المجلة التاريخية المصرية — المجلدان ٢٨ و ٢٩ (١٩٨١ — ١٩٨٢) •

التوسع الفرنسي في افريقيا الاستوائية في النصف الثاني من القرن التاسع عشر

د. الهام محمد ذهني

مدرس التاريخ الحديث

بكلية الدراسات الانسانية — جامعة الأزهر

ان لفرنسا تاريخا قديما في الاستعمار ، اذ كونت امبراطورية استعمارية كبيرة في نصفى الكرة الأرضية ، بدأت في القرن السابع عشر ساهم في بنائها ريشيليو وكولبير وعرفت هذه الامبراطورية في التاريخ الفرنسي بالامبراطورية الأولى ، وقد أفل نجمها في عام ١٧٦٣ حين أجبرت فرنسا على التخلي لانجلترا عن كندا والهند في معاهدة صلح باريس التي أعقبت حرب السنوات السبع ، ثم تلاشت هذه الامبراطورية تقريبا على اثر استيلاء الأسطول البريطانى عليها أثناء حروب نابليون ، بحيث لم تترك معاهدة باريس — المعقودة في ٣٠ مايو ١٨١٤ — لفرنسا من حطامها (١) سوى مستعمرات ضئيلة الشأن (٢) .

(١) محمد محمد حسنين : الاتحاد الفرنسي — الجماعة الفرنسية فيما وراء البحار القاهرة ١٩٦٠ ص ٢ .
(٢) هي المحطات التجارية بالهند الفرنسية وهي موانئ يانون ، بوند شيرى ، كاريكال على ساحل الكروماندل ، وما هي على ساحل الملبار ، وشندر ناجور على دلتا نهر الجانج في البنغال ، وجزيرة ريو نيون في المحيط الهندي ، جيان الفرنسية بأمريكا الجنوبية ، والمحطات التجارية بالسنغال في افريقيا الغربية ، وجزر الانتيل (المارتينيك) والجواد لوب في البحر الكاريبي ، وجزر سان بير وميكلون في أمريكا الشمالية .

أما الامبراطورية الثانية التي كونتها فرنسا فقد بدأت باحتلال الجزائر عام ١٨٣٠ ، وإذا كان غزو الجزائر لم يلق قبولا كبيرا بين الناس ، إلا أن التقدم الفرنسى ظل فى القارة الافريقية يتسم بالبطء ، فقد ظل رأى العام الفرنسى منقسما على نفسه بين المؤيدين للتوسع الاستعمارى والمعارضين له ، وبين أنصار الملكية والجمهورية ولكل فريق رأيه الخاص به فأنصار الجمهورية احترموا مبادئ السيادة والحرية والمساواة ، أما أنصار الملكية فكانوا يريدون عودة أمجاد لويس الرابع عشر ونابليون بونابرت وقد رأوا ضرورة امتداد الحضارة الفرنسية الى الأمم الأخرى (٣) .

ورغم أن ملكية يوليو منحت فرنسا السلام الطويل ، إلا أن هذا السلام لم يقنع شعبا كالشعب الفرنسى بالمجد ، فقد رأى لويس فيليب أن مسئولية حكومته هى رفع المستوى الاقتصادى لبلاده واحلال السلام لتنمية تجارة فرنسا (٤) . وبسقوط حكومة لويس فيليب وعلان الجمهورية الثانية ثم قيام الامبراطورية الثانية ، بدأ عهد جديد فى فرنسا فقد اتبع نابليون الثالث سياسة استعمارية ، وقد اعتمدت حكومته على العسكريين من جهة ، والحزب الكاثولى من جهة أخرى ، وكلا الحزبين من أنصار التوسع العسكرى ، وقد وجهت هذه العناصر سياسة فرنسا حتى الحرب السبعينية وانعكست هذه السياسة الاستعمارية على القارة الافريقية (٥) .

وقد تعرضت سياسة فرنسا التوسعية فى القارة للأخطار

(3) Fage. : An introduction to the history of west Africa . Cambridge 1959 p. 141.

(٤) عبد العزيز نوار : التاريخ الحديث ، أوروبا منذ الثورة
الثورة حتى الحرب الفرنسية البروسية (١٧٨٩ — ١٨٧١) دار الفكر
١٩٨٥ ص ٢٧٥ .

(٥) صلاح العقاد : مغرب الاستعمار الفرنسى ص ٤٨ .

والانحسار بسبب نشوب الحرب السبعينية ، واضطراب أحوال فرنسا الداخلية ، إلا أن الجمهورية الثالثة ١٨٧١ — ١٩١٤ انتهجت بدورها سياسة توسعية فى القارة وكان جول فرى قائدا لهذه السياسة (٦) .

ورغم التشجيع الذى حظى به التيار الاستعمارى الذى نادى بالتوسع فيما وراء البحار إلا أنه ظهر تيار معارض لهذه الفكرة ، رأى أنصاره أن استرداد الالزاس واللورين أهم فى المرتبة الأولى من المحافظة على المستعمرات الفرنسية وأنه من الأجدى لفرنسا أن توقف نمو امبراطوريتها وتركز قوتها ضد المانيا (٧) .

وفى النهاية حسم الأمر لصالح أنصار التوسع والاستعمار وساعدت الظروف الدولية فرنسا على تحقيق أطماعها وخاصة بعد انعقاد مؤتمر برلين ١٨٨٤ — ١٨٨٥ وهو مؤتمر استعمارى عقد بين الدول الأوروبية المعنية بالاستعمار ، لاقرار الوضع القائم فى القارة الأفريقية ولتنظيم سلب ماتبقى من أراضى القارة وإذا كان المؤتمر قد عقد أساسا لتنظيم التجارة فى حوض الكونغو ، ولإقرار حرية الملاحة فى النيجر ، إلا أنه وضع مبادئ عامة لمنع اصطدام الدول الأوروبية الاستعمارية بعضها ببعض فى القارة (٨) .

اندفعت فرنسا بعد المؤتمر شأنها شأن الدول الأوروبية الاستعمارية نحو القارة لتدعيم مراكزها التى حصلت عليها من قبل ومكاسبها ، واستغلت بدايتها المبكرة فى ميدان الاستعمار بفضل

(6) Hanotaux, G : Mon temps la troisième république Gambetta et Jules Ferry. Paris tome II p. 426.

(٧) عبد العزيز نوار : التاريخ المعاصر ، أوروبا من الحروب البروسية الى الحرب العالمية الثانية (١٨٧١ — ١٩٤٥) — القاهرة ١٩٧٧ ص ٤٩ .

(8) Betts, R. : The Scramble For Africa U.S.A. 1966 p. 23.

قواتها البحرية ، وتمكنت من الاستيلاء على أكبر مساحة من القارة الأفريقية فكانت في غرب إفريقيا ما عرف باتحاد إفريقيا الغربية الفرنسية A.O.F. عام ١٨٩٥ وقد ضمت إليه كلا من السنغال وغينيا الفرنسية والسودان الفرنسي وداهومى وساحل العاج وأراضى النيجر ثم ضمت موريتانيا (٩) .

كذلك كونت فرنسا من الأقاليم التى سيطرت عليها فى إفريقيا الاستوائية ما عرف باتحاد إفريقيا الاستوائية الفرنسية Afrique Equatoriale Française وكانت أقاليم الاتحادين متجاورة ، ولذلك كان من السهل عليها تجميعها فى وحدة واحدة لتسهيل إدارتها والتحكم فيها ومن ثم عرفت باسم الأقاليم المجموعة أو المتجاورة Territoires groupés ، أما فى شرق إفريقيا فقد كونت فرنسا مستعمرات فى كل من مدغشقر ، جزر القمر ، الصومال الفرنسى وكانت هذه المستعمرات متباعدة ، فمدغشقر وجزر القمر فى المحيط الهندى بينما الصومال الفرنسى على ساحل البحر الأحمر المواجه لعدن ، ولذلك وحدت فرنسا هذه المستعمرات وأطلقت عليها اسم الأقاليم الموحدة Territoires unitaires تمييزا لها عن الأقاليم المجموعة التى تجاورت فيها المستعمرات الفرنسية (١٠) .

تكونت إفريقيا الاستوائية الفرنسية من أربع أقاليم الجابون وعاصمته ليبرفيل ، الكونغو الأوسط وعاصمته بوانت نوار ، أوبانجى تشارى وعاصمته بانجى ، تشاد وعاصمته فورلامى وكانت هذه الأقاليم تعرف من قبل باسم الكونغو الفرنسى ثم صدر مرسوم ١٥ يناير ١٩١٠ أعطاها هذا الاسم (١١) .

(9) Ajayi, J. History of west Africa. Great Britain 1974 vol. II p 437 — 438.

(١٠) محمد محمد حسنين : المرجع السابق ص ١١٤ .

(١١) المرجع السابق ص ١١٥ .

لم تكن مهمة فرنسا ميسرة للسيطرة على أقاليم افريقيا الاستوائية وتحقيق هدفها الاستعماري ، فقد واجهت مصاعب داخلية تمثلت في المقاومة العنيفة التي ظهرت في بعض الأقاليم وخاصة في تشاد ، كذلك كان عليها التصدي لأطماع الدول الاستعمارية الأخرى الطامعة بالمنطقة ، فدارت بينها وبين بلجيكا منافسة شديدة في الكونغو وبينها وبين بريطانيا في الجابون ، وبينها وبين ألمانيا في منطقة اوبانجي تشاري ، ولذلك فقد كانت مهمة فرنسا لتكوين افريقيا الاستوائية الفرنسية صعبة تطلبت منها الكثير من الجهد ، ولكنها نجحت في النهاية في تحقيق مشروعها الاستعماري الكبير في المنطقة .

حينما نتحدث عن افريقيا الاستوائية الفرنسية ، فينبغي لنا أن نبدأ بالحديث عن الجابون باعتبارها من أولى المناطق التي وصل اليها الفرنسيون وقد تشابهت الجابون بالسنغال، حيث لعبت الأخيرة دورا هاما في التغلغل الفرنسي في غرب القارة وكانت بمثابة القاعدة الأساسية للفرنسيين للانطلاق نحو المناطق الداخلية حتى وصلوا الى تشاد ، ولعبت الجابون دورا هاما أيضا في التغلغل الفرنسي في افريقيا الاستوائية ، واتخذت منها فرنسا قاعدة ومركزا رئيسيا لها في المنطقة ، بالإضافة الى تمتع الجابون بخاصية هامة ألا وهي غناها بمواردها الطبيعية اذ تكثر فيها الغابات والمناجم مما أتاح للفرنسيين فرصة كبيرة لاستغلالها (١٢) .

وقد وقع عبء اكتشاف افريقيا الاستوائية بصفة عامة ، والجابون بصفة خاصة على عاتق رجال البحرية الفرنسية والمستكشفين الفرنسيين ، ومن المعروف أن رجال البحرية الفرنسية لعبوا دورا هاما

(12) Thompson, Virginia French west Africa lond. 1958 p. 342.

ليس في افريقيا الاستوائية فحسب ، وانما في غرب وشرق القارة
الافريقية ومهدوا لتعميق النفوذ الفرنسي في تلك الجهات (١٣) .

ولا جدال أن البرتغال كانت من أولى الدول الأوروبية التي
وصلت الى ساحل غينيا والى المناطق الواقعة جنوبه (١٤) فأرسلت
البعثات التبشيرية كما حاولت الاتصال بالأفارقة في المناطق الداخلية
لخدمة أغراضها التجارية ، ونجحت في احتكار وتصدير بعض المنتجات
كالمعادن والزجاج واستبدلتها بالذهب والعاج والرقيق (١٥) .

ولكن لم تستفد البرتغال من كشوفها في المنطقة، قدر استفادة
الفرنسيين الذين أسسوا الشركات التجارية فاحتكروا التجارة من
سيراليون حتى رأس لوبيه ، كما احتكرت شركة الهند الشرقية
الفرنسية وشركة غينيا التجارة حتى رأس الرجاء الصالح وعلى
طول ساحل أنجولا . وفي القرن الثامن عشر كان البحارة الفرنسيون
على علم تام بهذه السواحل وبلغ عدد الوكالات الفرنسية العاملة في
المنطقة في عام ١٧٨٥ أكثر من سبعين وكالة أسسها التجار الفرنسيون
القادمون من نانت ومارسيليا وبوردو (١٦) .

اعتمدت التجارة الفرنسية على المبادلة فحمل الفرنسيون
الأقمشة والمنسوجات والطبائق والأغذية من أجل الحصول على

(13) Hanotaux, G : Histoire des Colonies Francaises et de
L'expansion de La France dans le monde Tome IV parir 1929 p. 329.

(١٤) وصلت السفن البرتغالية الى المحيط الأطلنطي ، وعبرت خط
الاستواء ووصل كل من Fernanvaz, Lopez Gonsalvez الى المنطقة
التي عرفت باسمها أي الى رأس لوبيه والى خليج فرنانفاز . كذلك
وصل ديغو كام الى مصب الكونغو وكان يسمى زائر نسبة الى مملكة
افريقية قوية .

(15) Hanotaux : op cit p 360.

(16) Ibid p. 364.

المنتجات الافريقية مثل العاج والذهب والأخشاب وجوز الهند بالإضافة الى الرقيق واستمر التفوق التجارى الفرنسى حاسما فى المنطقة الممتدة من الجابون حتى رأس الرجاء الصالح حتى أواخر القرن الثامن عشر (١٧) ♦

وبالإضافة الى اهتمام الفرنسيين بالتجارة اهتموا بنشر ثقافتهم وديانتهم ♦ فقدمت البعثات التبشيرية الى الجابون وساهم رجال الدين فى اكتشاف المنطقة والقاء الضوء عليها مثل القس برويار Proyar الذى عمل فى جنوب الجابون فى لوانجو Loango ونشر عام ١٧٧٦ كتابا هاما عن المنطقة (١٨) ♦ وتركز عمل البعثات التبشيرية فى الجابون فى المناطق الواقعة جنوبها فتوغلت هذه البعثات فى لوانجو وبوانت نوار ♦ بينما تركزت فى الجابون فى المنطقة التى تأسست فيها مدينة ليبرفيل الحالية (١٩) ♦

جذبت المنطقة اهتمام رجال البحرية الفرنسية فى أوائل القرن التاسع عشر ورأوا أن الجابون تصلح لكى تكون قاعدة للبحرية الفرنسية فى المنطقة ، ففى عام ١٨٠٥ كتب الأدميرال لينوا Linois الى وزير البحرية الفرنسية يدعوه للاهتمام بالجابون وتقوية الصلات معها ومع المناطق الواقعة جنوبها نظرا لأهمية موقعها على الساحل (٢٠) ♦

(17) Ibid p. 365.

(18) Histoire du Loango, Kakongo et autres royaumes d'Afrique redigée d'après les memoires des prefts apostoliques de la mission Française.

(19) The Cambridge history of Africa from 1790 — 1870 Great Britain 1976. vol. 5 p. 3111 .

(20) Hanotaux, G : op. cit vol IV p. 370.

واذا كانت فرنسا قد انشغلت بالحروب النابوليونية عن الجابون ، الا أن منطقة ساحل غينيا جذبت انتباه رجال البحرية الفرنسية منذ الثلاثينيات من القرن التاسع عشر فعملوا على انشاء الحصون فى ساحل العاج ، وفى ساحل العبيد ، ولعب التجار الفرنسيون دورا بارزا فى ساحل غينيا حتى تم انشاء حصنين فى ساحل العاج فى كل من جران يسام واسينى كذلك تم انشاء حصن فرنسى ثالث فى الجابون التى أصبحت تمثل قاعدة بحرية هامة للنشاط الفرنسى فى المنطقة (٢١) .

وفى الواقع أن الاهتمام بالجابون لم يقتصر على الضباط الفرنسيين فحسب وانما اهتم بالمنطقة رجال البحرية البريطانية فقد أرسلت بعثة مكونة من الكابتن توكى Tuckg والملازم هوكى Hawkey الى المنطقة منذ عام ١٨١٦ وتجول الكابتن توكى فى سواحل الجابون ووصل الى رأس لوبيه وتعرف على أجزاء من نهر الجابون ، ولكن البحرية البريطانية خلال هذه الفترة فضلت العمل فى ساحل غينيا مما أتاح الفرصة للفرنسيين لتدعيم سيطرتهم فى الجابون (٢٢) .

يرجع الفضل الى يوييه ويلوميه القائد البحرى الفرنسى فى تدعيم سيطرة بلاده على ساحل غينيا ، فعقد المعاهدات التجارية فى ساحل العاج ودعم صلاته بالزعماء المحليين وأطلق على المراكز التجارية فى ساحل العاج اسم وكالات الجنوب Comptoirs du Sud واستتبع تدعيم السيطرة الفرنسية فى ساحل العاج تدعيمها فى

(21) Brunshwig, H. : L'Avenement de L'Afrique Noire au xix siècle paris 1963 p. 59.

(22) M. A. C. : Histoire Complète des voyages et decouvertes en Afrirque paris 1921 p. 6.

الجابون أيضا فزار بوييه المنطقة فى عام ١٨٣٧ ثم زارها للمرة الثانية عام ١٨٣٩. على ظهر السفينة الفرنسية Malouine ونجح بوييه فى التفاوض مع زعماء القبائل الرئيسية وزعماء القرى فى الجابون، وفى ٩ فبراير ١٨٣٩ وقع مع زعيم الضفة الشمالية للجابون الملك دنييس أول معاهدة فرنسية وافق فيها الملك على اقامة المنشآت الفرنسية ، وكانت هذه المعاهدة بداية لتكوين افريقيا الاستوائية الفرنسية وقبل الملك دنييس اعلان الحماية الفرنسية على اراضيه . وقد قدر لهذا الملك أن يلعب دورا هاما فى المنطقة فقد عمل كوسيط تجارى بين الفرنسيين وبين سكان المناطق الداخلية فى الجابون واعتنق المسيحية وأرسل أولاده الى مدارس البعثات التبشيرية وتوفى فى عام ١٨٧٦ بعد أن ساهم بدور كبير فى تركيز النشاط الفرنسى فى الجابون (٢٣) .

وفى عام ١٨٤١ وقع بوييه مع الملك لويس فى منطقة بوانت بنجارا Point Pungara معاهدة حماية ، وقد حذى بقية الزعماء المحليين حذو الملك لويس فوقعوا معاهدات الحماية فى أبريل عام ١٨٤٣ مع القائد الفرنسى بودان Baudin ، كذلك قبل ملك منطقة Quabens الحماية الفرنسية على اراضيه ، وفى يوليو ١٨٤٤ وقع القائد الفرنسى داريكو Darricau معاهدات حماية مع زعماء الجزر وشبه الجزر الواقعة عند روافد الجابون ومنهم الملك جلاس وبناء على أوامر حاكم السنغال تم بناء حصن فرنسى فى الجابون هو حصن دومال Fort D'Aumal وذلك فى ١١ يونيو ١٨٤٣ (٢٤) .

على أن توقيع هذه المعاهدات أثار غيرة وحسد ضباط البحرية

(23) Hanotaux, G : op. cit tome IV p 373 .

(24) Ibid p. 374.

البريطانية العاملين فى ساحل غينيا ، فبدأوا فى اثاره المتاعب
للفرنسيين وحرصوا الملك جلاس على رفض المعاهدة التى وقعها من
قبل مع الفرنسيين ولكن فرنسا تمسكت بالمعاهدات التى عقدتها مع
الزعماء المحليين فى الجابون فقد ترايدت أهمية المنطقة خلال هذه
الفترة واعتبرتها فرنسا من أهم قواعدها البحرية على أن تمسك
فرنسا بالمعاهدات التى وقعتها لم ينفى التنافس بينها وبين بريطانيا
فى المنطقة فسرعان ما أثرت مشكلة أخرى بين الطرفين بشأن تجارة
الرقيق ، وصدرت التعليمات الى الضباط الفرنسيين بمحاربة هذه
التجارة ابتداء من السنغال حتى الجابون ، وفى نوفمبر ١٨٤٥ صدرت
التعليمات من جورية فى السنغال الى قادة الجابون بضرورة اصدار
اعلان رسمى الى سكان الجابون تضمن عدة مواد نصت المادة الأولى
منه بأنه على السكان الخاضعين للنفوذ والقوانين الفرنسية عليهم
الامتناع عن تجارة الرقيق وعن التجارة مع التجار البرازيليين ،
ونصت المادة الثانية من الاعلان على أن يقوم قائد حصن دوما
بتعريف الزعماء المحليين بأخطار هذه التجارة وضرورة منعها فى
أراضيهم وابلاغهم أنها محرمة قانونا ، وأن الفرنسيين سوف
يحاولون تعويض هؤلاء الزعماء عن الأسرى من الرقيق عن طريق
الاستفادة منهم بدلا من بيعهم ، ونصت المادة الثالثة على قائد حصن
دوما اعطاء الحرية التامة للتجارة الشرعية وحرية اقامة المنشآت
للأوروبيين ولكن بشرط أن تكون هذه المنشآت خاضعة للحماية
الفرنسية وتحت اشراف فرنسا ، ونصت المادة الرابعة على معرفة
الجهة التى يقصدها تجار الرقيق ومعرفة المنشآت التى تتاجر فى
هذه التجارة والعمل على تدميرها ، كذلك أكد الاعلان على ضرورة
مصادرة السفن التى تصل الى الجابون ولا تحمل أوراق رسمية
ونصت المادة الخامسة على ضرورة مراقبة التجار البرازيليين ومنعهم

من التجارة اذ شكل هؤلاء التجار خطرا كبيرا لنشاطهم فى هذا المجال (٢٥) .

وقد تعقب الضباط البريطانيين بدورهم تجار البرازيل لمنعهم من تجارة الرقيق وترتب على ذلك توتر العلاقة بينهم وبين الفرنسيين لأن عمالية مطاردة تجار الرقيق تمت فى بعض الأحيان بدون الحصول على اذن مسبق من السلطات الفرنسية وتوغل الضباط البريطانيون فى اراضى اعتبرت لها فرنسا تابعة لها ولذلك أرسل الكونت انواير الى اللورد ابردين فى عام ١٨٤٦ يشكو من تصرفات هؤلاء الضباط وذكر منهم القائد البريطانى بوسنكيه Bosanquet قائد السفينة Alert الذى قام بعدة عمليات عسكرية فى الجابون أثناء مطاردته للتجار البرازيليين دون استئذان السلطات الفرنسية ، كذلك رفض أوامر التحية للعلم الفرنسى (٢٦) .

وقد خشيت الحكومة البريطانية من توتر العلاقة بينها وبين فرنسا ولذلك قامت بمساءلة الكابتن بوسنكيه لتوضيح موقفه أمام الحكومة الفرنسية (٢٧) .

وقد دافع بوسنكيه عن موقفه بأنه تلقى معلومات عن وجود تجار للرقيق فى المنطقة وأكد أن العمليات العسكرية التى قام بها ضدهم كانت على بعد خمسة أميال من منشآت فرنسا فى الجابون

(25) F. O. 403 / 4 N° 127. instructions pour le bâtiment stationnaire dans le Gabon. Gorée Ee 4 Nov. 1845.

(26) F. O. 403 / 4 N° 130 The Earl Aberdeen to Lord William Hervey. Foreign Office June 1846.

(27) Ibid N. 132 The Secretary to the Admiralty to MR. Addington Admiralty July 7. 1846.

وعلى تصرفه بأنه علم بوجود شحنة كبيرة من الأرقاء على وشك الإبحار من الجابون فحاول منعها (٢٨) .

وهكذا نلمس حرص فرنسا على التمسك بالجابون ومنع أى دولة أوروبية أخرى من أن يكون لها نفوذ فيها ، واكتسبت المنطقة أهمية جديدة بالإضافة الى كونها قاعدة بحرية وذلك عند انشاء مدينة ليبرفيل ١٨٤٩ على غرار فريتاون وقد بدأ الفرنسيون فى انزال العبيد المحررين على الساحل منذ عام ١٨٤٨ وأصبحت ليبرفيل محطة هامة لتموين السفن الفرنسية بما تحتاج اليه وخاصة الفحم (٢٩) .

وخلال عهد حكومة الامبراطورية الثانية اتبع الفرنسيون سياسة أكثر نشاطا فى المنطقة فتزايدت البعثات العلمية والاستكشافية والتبشيرية وفى الفترة ما بين ١٨٥٧ — ١٨٥٩ استطاع بول دى شيلو Paul De chaillu اكتشاف نهر أوجويه والتعرف على روافده ودون ملاحظاته فى كتاب قيم ، وفى عام ١٨٦٢ أعلن الأدميرال ديدلو Didclot السيطرة الفرنسية من رأس لوبيه حتى دلتا بوانت بنجوار الواقعة على الضفة الشمالية للجابون وتم رفع الأعلام الفرنسية عليها (٣٠) .

رغم اهتمام حكومة الامبراطورية الثانية بالجابون الا أنه ظهرت خلال الستينات من القرن التاسع عشر فكرة تدعو الى مبادلة الجابون مع بريطانيا فى مقابل حصول فرنسا على غمبيا وكان من أنصار هذا رأى فيدهرب حاكم السنغال وكتب مذكرة بذلك الى الامبراطور

(28) Ibid N. 132 inclosure Commander Bosanquet to the Admiralty Clay - Hill Lodge July 4, 1846.

(29) Hanotoux, G : op. cit p. 375.

(30) Ibid p. 378.

جابليون الثالث وقد استند فيدهرب في رأيه على أن من مصلحة فرنسا التوسع جنوبا من السنغال وضم أراضي غينيا ولكن الحكومة البريطانية رفضت التخلي عن غينيا وأثيرت الفكرة مرة أخرى في الثمانينات من القرن التاسع عشر عندما بدأت بريطانيا تسعى لتكوين حزام من الأراضي يمتد من ساحل غينيا ويسير جنوبا حتى الجابون ففكر بعض الساسة البريطانيين في امكانية ضم الجابون ولكن كان من الصعب على الفرنسيين في ذلك الوقت التخلي عنها لتزايد أهميتها كذلك لتزايد أهمية ساحل غينيا (٣١) .

على أن هذا النشاط الفرنسي المكثف في الجابون خلال عهد الامبراطورية الثانية سرعان ما تعرض للتقلص والانهيـار بسبب نشوب الحرب السبعينية مما أدى الى هجر فرنسا منشآتها في الجابون ، وفي ساحل غينيا وساحل العاج والبيد ولكن سرعان ما بدأت فرنسا تستعيد نشاطها في المنطقة مرة أخرى ولكن بصورة أكثر عمقا عن السنوات السابقة (٣٢) .

وجدير بالذكر أن بريطانيا خلال فترة السبعينات من القرن التاسع عشر فكرت في مد نفوذها جنوب ساحل غينيا أي من لاجوس حتى المنشآت الفرنسية في الجابون واستندت على سبب هام وهو انسحاب فرنسا من تلك المنطقة وهجر منشآتها ورغم وجود مشجعين لهذه الفكرة إلا أنها لقيت معارضة من قبل بعض الساسة البريطانيين لأنهم رأوا أن تدعيم السيطرة البريطانية على هذه الرقعة الكبيرة الممتدة من لاجوس حتى الجابون سيؤدي الى ارهاق ادارة ساحل الذهب التي تركزت فيها ادارة ساحل غينيا (٣٣) .

(31) Anstey, Roger : Britain and the Congo in the Nineteenth Century. Oxford 1962. p. 102.

(32) Avicé, E. La Côte Divoire. Paris 1951 p. 38.

(33) Thompson, V op. cit., p. 163.

عادت فرنسا الى الجابون أكثر نشاطا ووطدت نفوذها من جديد
فى ساحل العبيد وساحل العاج واستعادت منشآتها فى تلك المناطق
منذ عام ١٨٧٩ (٣٤) .

كان نشاط دى برازا فى الجابون من أهم العوامل التى ساهمت
فى تدعيم السيطرة الفرنسية عليها ورغم أن اسم دى برازا يقتصر
بالكونغو الفرنسى الا أنه بدأ عمله فى المنطقة فى الجابون أولا
واستطاع دى برازا الوصول الى نهر أوجويه وخلال عشرين شهرا
كشف عن ٧٠ كم من النهر وتعرف على المنابع العليا فيه ، وذلك فى
عام ١٨٧٦ ، كما نجح دى برازا فى تأسيس مدينة فرانس فيل ، وعاد
الى فرنسا عام ١٨٧٨ ثم مال بث أن عاد الى المنطقة موفدا من الشعبة
الفرنسية للجمعية الافريقية عام ١٨٧٩ ولكن فى هذه المرة ركز
جهوده صوب الكونغو (٣٥) .

ويرجع السبب فى تركيز نشاط دى برازا فى الكونغو أنه أكد
أن نهر الجابون لايساعد كثيرا على التوغل فى داخل القارة للتوسع
وأن نهر الكونغو يتيح لفرنسا فرصة أكبر للتوسع فى المناطق
الداخلية ولكنه أكد أهمية الجابون كقاعدة بحرية هامة (٣٦) .

والواقع أن قادة الجمهورية الثالثة انتهجوا سياسة توسعية فى
افريقيا وحرصوا على ربط السنغال بالنيجر واكتشاف الأراضى
الداخلية لداهومى وساحل العاج مع تحقيق الاتصال بينهما وبين
النيجر والعمل على ربط غرب افريقيا بكل من شمال افريقيا وافريقية

(34) Ibid, p. 163.

(٣٥) زاهر رياض : الاستعمار الأوروبى لأفريقيا — القاهرة
١٩٦٠ ص ٧٣ .

(36) Thompson, V : op.cit p. 8

الاستوائية ومد النشاط الفرنسى من البحر المتوسط حتى الكونغو وقد تحققت هذه السياسة بالفعل (٣٧) .

كثف الفرنسيون نشاطهم فى الجابون باعتبارها مفتاح افريقيا الاستوائية ونظرا لتزايد أهميتها لم تعد تابعة للسنگال وانما انفصلت عنها عام ١٨٨١ وأصبحت هى بدورها قاعدة هامة ومركزا رئيسيا للانطلاق نحو المناطق الداخلية وحلت لييرفيل محل داکار فى ادارة المنطقة (٣٨) .

وفى عام ١٨٨٣ بلغ عدد المراكز الفرنسية الممتدة على طول وادى أوجويه حوالى عشرين مركز ووقعت المعاهدات مع القبائل الوطنية فى المنطقة (٣٩) .

ونجح دى برازا فى تحقيق هدفه فى الجابون اذ تكونت جمعية أعالى أوجويه كانت مهمتها الأساسية هى التوسع فى أعالى هذا النهر ولفتح طريق من مصب الكونغو الى أعالى النيل والأفاداة من المنطقة من الناحية التجارية (٤٠) .

وهكذا حقق الفرنسيون هدفهم فى الجابون ودعموا مراكزهم فيها لكى يتمكنوا من التوغل فى المناطق الداخلية .

أما الاقليم الثانى من أقاليم افريقيا الاستوائية التى اهتمت فرنسا بالسيطرة عليه فهو الكونغو الأوسط أو ما عرف بالكونغو

(37) Hanotaux. G : op. cit p. 273 .

(38) Thompson, V . op. cit p. 5.

(39) Ibid p. 8 .

(٤٠) شوقى الجمل : تاريخ كشف افريقيا واستعمارها — القاهرة ١٩٧١ ص ٢٩٥ .

الفرنسي • وفى الواقع أن فرنسا لم تكن الدولة الوحيدة المهتمة بهذه المنطقة فالملك ليوبولد ملك بلجيكا كانت له أطماع استعمارية فى القارة الافريقية وخاصة فى الكونغو ، فقد أدرك أن أوروبا ليست الميدان الصحيح لنشاطه وأن افريقيا هى الميدان الذى يمكنه من تحقيق أحلامه التوسعية (٤١) •

وضع ليوبولد نصب عينيه هدفا هاما وهو تكوين مستعمرة بلجيكية فى الكونغو ، وأعلن ذلك أمام البرلمان البلجيكى وبرر سياسته أن بلاده بلاد صناعية وتجارية ، وأنه لم يعد أمامه مجال للتوسع فى أوروبا ، وأن الجهود التى يمكن الافادة منها وتؤتى ثمارها هى فى القارة الافريقية ، ولذلك بث دعاية كبيرة عن القارة ساعده فى ذلك السياسى البلجيكى الشهير اميل باننج Emile Banning (٤٢) •

ولكن اهتمام ليوبولد بافريقيا وبمنطقة الكونغو لم يأت من فراغ فقد سبقه جهود المستكشفين الأوروبيين وخاصة البريطانيين ففى عام ١٨٧٢ أرسلت الجمعية الجغرافية الكابتن كمرون الذى وصل الى زنجبار ومنها اندفع نحو المناطق الداخلية من القارة حتى وصل الى نهر اللوالابا وهو أحد فروع نهر الكونغو ونجح كمرون فى عقد عدة معاهدات مع الحكام الوطنيين فى منطقة الكونغو الأدنى ، وفى عام ١٨٧٥ عاد الى بلاده وأشار الى أهمية المنطقة وثروتها الطبيعية (٤٣) •

شجعت كبار الشخصيات فى بريطانيا ارسال البعثات التيشيرية

(41) Robinson, R : Africa and The Victorians N. Y 1961 p. 326.

(42) Ibid p. 326.

(43) Ibid p. 169 .

والكشفية الى المنطقة ، كذلك شارك فى هذا التشجيع كبار رجال الصناعة مثل روبرت ارثنجتون الذى خصص أموالا للبعثات الكشفية والتبشيرية فى أعالي حوض الكونغو ، وأكد أن وصول كمرون الى اللوالابا سيشيح الفرصة للبعثات المسيحية للعمل فى المنطقة (٤٤) .

ورغم اهتمام بريطانيا بمنطقة الكونغو الا أن الفضل الأكبر فى القاء الضوء عليها يرجع الى ستانلى وهو من أصل إيرلندى عمل لحساب صحيفة النيويورك هيرالد الأمريكية ، وبدأ رحلته ١٨٧٤ وكان الهدف منها الطواف ببحيرة فيكتوريا وبحيرة تنجانيقا ، والوصول الى نهر اللوالابا ، وأثبت ستانلى فى رحلته أن نهر اللوالابا متصل بالكونغو ، وفى عام ١٨٧٧ وصل الى الشلالات التى عرفت باسمه ثم وصل الى المدينة التى عرفت فيما بعد باسم ستانلى بول ، وأخيرا تابع رحلته حتى وصل قرب مصب الكونغو عند مدينة بوما . وترجع أهمية رحلة ستانلى أنها أوضحت شبكة المجارى المائية الأفريقية وكشفت الغموض عن الكثير منها (٤٥) .

جذبت جهود ستانلى فى الكونغو فى الفترة ما بين ١٨٧٤ — ١٨٧٧ أنظار الملك ليوبولد فدعا الى عقد مؤتمر فى بروكسل ١٨٧٦ وكان الهدف من المؤتمر الكشف عن الأقاليم الواقعة فى داخل إفريقيا ، وخاصة الأقاليم الواقعة بين المحيطين الأطلنطى والهندي ، والكشف عن الأقاليم الشمالية والجنوبية بين حدود مصر والسودان فى الشمال وحوض الزمبيزى فى الجنوب ، كذلك ارسال المكتشفين لاقامة المحطات العلمية والطبية لتكون قاعدة للعمليات التوسعية (٤٦) .

(44) Anstey, R : op. cit p. 34.

(٤٥) شوقى الجمل ، المرجع السابق ص ١٠٤ .

(46) Eucher, Le p : Le Congo. Paris 1894 p. 214 .

وكذلك العمل على القضاء على تجارة الرقيق المنتشرة فى المناطق الداخلية ووضع حد لها واقامة مراكز لمراقبتها (٤٧) •

أسفر المؤتمر عن صدور عدة قرارات منها تأليف الهيئة الدولية لاكتشاف افريقيا وادخال الحضارة فيها وأكد ليوبولد بعد المؤتمر ، أن بروكسل ستكون مركز الحركة الحضارية فى أوروبا ، كذلك نتج عن المؤتمر تكوين شعبة محلية تابعة للهيئة الدولية فتكونت الشعبة الفرنسية على رأسها دى برازا كذلك تكونت الشعبة البلجيكية والتي انبثق منها لجنة عرفت باسم لجنة دراسة الكونغو الأعلى (٤٨) Comité d'étude du Haut congo

جذب ليوبولد ستانلى للعمل معه فقبل وخاصة بعد أن فشلت جهود الأخير لجذب انتباه حزب الأحرار الحاكم فى بريطانيا • وقد أفاد ليوبولد من ستانلى فائدة كبيرة ، فقد عاد الى الكونغو ١٨٧٩ وكان الهدف الأساسى لبعثته ، هو فتح طريق المواصلات والملاحة بين الكونغو ومدينة ستانلى بول فى الداخل والمناطق الساحلية، ونجح ستانلى فى مهمته وأسس عام ١٨٨٠ عدة محطات فى الكونغو باسم لجنة دراسة الكونغو الأعلى كما عقد المعاهدات مع الزعماء المحليين ، وفى عام ١٨٨١ أسس مدينة ليوبولد فيل تليدا لاسم الملك ليوبولد (٤٩) •

بعد أن حقق ستانلى نجاحا كبيرا فى منطقة الكونغو أصبح هدف ليوبولد هو الحصول على اعتراف بدولة الكونغو الحرة ولذلك حاول اقناع رجال الأعمال البريطانيين بممارسة نشاطهم

(47) Castelin, A : The Congo state Lond 1907 p. 26.

(48) Ibid p. 28.

(49) Robinson : op. cit p. 170.

التجارى فى المنطقة ، وأكد لهم ان تجارتهم ستكون أكثر أمنا تحت ادارته مما لو كانت تحت ادارة فرنسا أو البرتغال (٥٠) .

كذلك سعى لاحتكار تجارة الصمغ والعاج فى حوض الكونغو ، مما أثار الشركات التجارية الفرنسية العاملة فى الضفة اليمنى لنهر الكونغو (٥١) .

وفى الوقت الذى كان فيه ستانلى يعمل جاهدا لنشر نفوذ الملك ليوبولد على أكبر مساحة من حوض الكونغو ، فعقد مع الزعماء الوطنيين المعاهدات التى تربطهم به حتى قيل أنه عقد ما يقرب من خمسمائة معاهدة ، كان دى برازا يعمل على الضفة اليمنى لنهر الكونغو (٥٢) .

والواقع أننا لانستطيع التحدث عن الكونغو الفرنسى دون أن نذكر جهود دى برازا فى المنطقة فاليه يرجع الفضل فى اقرار وتدعيم نفوذ فرنسا ، وان كانت هناك جهود أخرى بذلت فى المنطقة، الا أنها لم تكن بنفس أهمية جهود دى برازا ، فقد عمل فى المنطقة من قبل الملازم ايمس Aymes الذى تعرف على أجزاء من مصب نهر أوجويه ، ونجح فى عقد المعاهدات مع الزعماء الوطنيين .

وقد عهد الى دى برازا استكمال أعمال الملازم ايمس ولكنه كان على درجة كبيرة من الطموح ، فقدم مشروعا الى وزير البحرية والمستعمرات طالب فيه بضرورة اقرار النفوذ الفرنسى فى الكونغو

(50) Anene. J : Africa in the Nineteenth and twentieth centuries Lond 1972 p. 121.

(51) Williams, B. : Modern Africa 1972 p. 40.

(٥٢) شوقى الجمل : المرجع السابق ص ٣٠٠ .

وكتب مذكرة بذلك فى ٢٣ يناير ١٨٧٤ « رأيت أثناء وصولى الى الجابون امكانية اكتشاف مجرى نهر أوجويه ولهذا النهر أهمية اقتصادية كبيرة تمكننا من التوغل فى المناطق الداخلية للقارة الافريقية » (٥٣) .

وبذلك يمكن أن نقول ان دى برازا أغاد من اكتشافاته فى نهر أوجويه فى الجابون للتوسع فى المناطق الداخلية ، وقد قبل وزير البحرية مشروع دى برازا الذى وصل الى داکار ١٨٧٥ ومنها اتجه الى الجابون ثم الكونغو وتقدم فى المنطقة حتى وصل الى بحيرة الیما Alima وتقع على ضفة الكونغو الیمنى ومنها اتجه الى أراضى جماعات باتيكيه Batékes ونجح فى التعرف على أجزاء من نهر الكونغو كان ستانلى قد وصل اليها من قبل (٥٤) .

عاد دى برازا الى الكونغو مرة ثانية عام ١٨٧٩ موفدا من قبل جمعية الدراسات الافريقية لكشف المنطقة الممتدة من الجابون الى تشاد ، فى الوقت الذى تقدم ستانلى فى المنطقة موفدا من قبل الشعبة البلجيكية ولذلك دار سباق بين الطرفين كل منهما يحاول ربط الكونغو بالجهة التى يعمل لحسابها (٥٥) .

نجح دى برازا فى عقد المعاهدات مع الزعماء الوطنيين لقبول السيطرة الفرنسية وأسس قرب مصب الكونغو وعلى الضفة الیمنى محطة لخدمة أغراض الفرنسيين فى المكان الذى أطلق عليه اسم برازافيل تخايذا لذكراه (٥٦) .

(53) Hanotaux, G : op. cit p. 387 .

(54) Ibid pp. 390 — 392 .

(٥٥) شوقى الجمل : المرجع السابق ص ٥٠٦ .

(٥٦) المرجع السابق ص ٥٠٦ .

على أن أهم نجاح حققه دي برازا هو أنه استطاع الاتفاق مع الملك ماكوكو Makoko الذى تقع بلاده بين قرية نينتشو Nyantchou الواقعة على نهر الكونغو وبين مبيه Mbé فى الداخل • وترجع أهمية الاتفاق مع ماكوكو انه كان له نفوذ كبير على جماعات باتيكيه Batekes التى تقطن الضفة اليمنى للنهر ، كذلك كان له سيطرة على المناطق الداخلية ، وقد تقابل دي برازا مع مبعوث الملك ماكوكو الذى أطلعته برغبة الملك فى توطيد عرى الصداقة مع الفرنسيين فقام دي برازا بنفسه بزيارة الملك ونجح فى اقناعه بتوقيع معاهدة حماية فى ١٠ سبتمبر ١٨٨٠ تنازل بمقتضاها عن الأراضى الواقعة شمال محطة برازافيل وعن منطقة نيومبى Nympey وقبل رفع العلم الفرنسى على أراضيه (٥٧) •

كذلك وقع دي برازا معاهدات حماية مع الزعماء المحليين الذين تقع أراضيتهم قرب أملاك الملك ماكوكو وأسس محطة فرنسية فى ضفة كيلا Kila (٥٨) ثم أسس دي برازا محطة ثالثة فى اليما ، ويبدو أن مهمة دي برازا فى هذه المنطقة لم تكن ميسرة إذ رفض سكان اليما فى البداية انشاء محطة فى أراضيتهم ولكنهم سرعان ما اضطروا لقبول الأمر الواقع ، ولذلك وصفهم دي برازا فى تقاريره بالوحشية ، ولكنه فى الوقت نفسه دعا حكومته لتوطيد الصلات معهم ، كما أرسل الى المنطقة الكابتن فرومان Froment فى نوفمبر ١٨٨٥ لدراسة السكان وعاداتهم وتقاليدهم (٥٩) •

وهكذا فى خلال عامين من وصول دي برازا ، الى الكونغو حصل لفرنسا على مساحات شاسعة من الأراضى وأسس العديد من

(57) Hanotaux, G : op. cit p. 402.

(58) Ibid p. 403.

(59i) Vidrovitch, Catherine : Brazza et La prise de possession du Congo 1883 — 1885. Paris 1969 p. 453.

المحطات الفرنسية لتدعيم النفوذ الفرنسي بالاضافة الى تدوينه الملاحظات العلمية القيمة وكتابة التقارير التى أفادت منها الحكومة الفرنسية فائدة كبيرة (٦٠) .

عاد دى برازا الى فرنسا عام ١٨٨٢ ، ووافق البرلمان الفرنسى على المعاهدة التى عقدها مع الملك ماكوكو ، ويرجع السبب فى موافقة البرلمان الفرنسى أن أعضاء البرلمان كانوا مدفوعين بدافع الحماس الوطنى وخاصة بعد احتلال بريطانيا لمصر أكثر من دافع الدراسة السلمية للمزايا الاقتصادية المنتظرة للمعاهدة (٦١) .

كما أحدثت معاهدة ماكوكو رد فعل فى عواصم الدول الأوروبية وخاصة بلجيكا فأعلن الملك ليوبولد عن تخوفه من أعمال دى برازا فى المنطقة ودفع ستانلى الى مهاجمة بعض المراكز الفرنسية الواقعة على الضفة اليمنى للكونغو ولكن القوات الفرنسية تصدت له (٦٢) .

كذلك احتج التجار البريطانيون على نشاط دى برازا فى الكونغو وحذروا الحكومة البريطانية من تصاعد النفوذ الفرنسى الذى من الممكن أن يؤدى الى عرقلة الملاحة والتجارة فى النهر ، ورفع أعضاء غرفة مانشستر التجارية مذكرة الى اللورد جرانفيل فى ١٣ نوفمبر ١٨٨٢ حثوا فيها الحكومة البريطانية على اتخاذ موقف حاسم ازاء التغلغل الفرنسى فى الكونغو ، وطالبوا بإنشاء مركز بريطانى على النهر . وذلك لأن القنصلية البريطانية فى لواندا من الصعب عليها مراقبة المنطقة . كما أكدوا على الحكومة بضرورة مراعاة مصالح البريطانيين التجارية (٦٣) .

(60) Hanotaux : op. cit p. 404.

(٦١) شوقى الجمل : المرجع السابق ص ٥٠٧ .

(62) Hanotaux, op. cit p. 406.

(63) Anstey, R : op. cit p. 116 .

وقد وجهت الحكومة البريطانية التساؤلات للسفير الفرنسي في لندن للتأكد من عدم عرقلة تجارة البريطانيين في المنطقة ، ولكن أنصار التوسع البريطاني مثل ماكينون وكيرك^(٦٤) لعبوا دورا بارزا في الضغط على الحكومة البريطانية فأكد كيرك خطورة معاهدة ماكوكو التي وقعها مع دي برازا وأرسل الى اللورد جرانفيل في ١٩ مارس ١٨٨٣ مذكرة طالب فيها بضرورة عقد معاهدة بريطانية مماثلة مع الملك ماكوكو لتتيح لبريطانيا حرية الملاحة والتجارة في الكونغو^(٦٥) .

عاد دي برازا الى الكونغو في مهمة علمية ، وحصل على لقب مفوض حكومة الجمهورية الفرنسية في الغرب الافريقي ، وأسفرت بعثته الثالثة ١٨٨٣ عن التوغل في الكونغو . ونجح في السيطرة على عدة نقاط على الساحل ، وخاصة في بوانت نوار كما عمل على مراقبة عملاء ستانلي وفتح الطريق بين اليما والكونغو . . . وهكذا يتضح لنا أنه عند انعقاد مؤتمر برلين ١٨٨٤ ، ١٨٨٥ كان دي برازا قد دعم بالفعل السيطرة الفرنسية على الضفة اليمنى لنهر الكونغو ، وحصل لفرنسا على مكاسب كبيرة أفادت منها في تأكيد نفوذها عند انعقاد المؤتمر^(٦٦) .

أرادت بريطانيا أن تثبت وجودها في المنطقة وخاصة بعد نشاط دي برازا المكثف ونشاط ستانلي ، فتفاوضت مع البرتغال لعقد معاهدة بينهما في ٢٦ فبراير ١٨٨٤ ، اعترفت فيها بأحقية البرتغال في الاستيلاء على اقليم الكونغو بين خطي عرضي ٩٢ ، ٨ جنوبا ، على أن تكفل حرية الملاحة في كل من الكونغو والنيجر وأن تعمل

(٦٤) عملا في سواحل افريقيا الشرقية .

(65) Anstey, R : op. cit p. 129.

(66) Hanotaux, G : op. cit pp. 410 — 412.

الدولتان سويا على محاربة تجارة الرقيق (٦٧) ولكن ذاع خبر المعاهدة قبل التصديق عليها واحتجت فرنسا على ادعاءات البرتغال في الكونغو وأبلغ ليونز Lyons السفير البريطاني حكومته في ٢٣ مايو ١٨٨٣ أن المسيو لاکور Challemel - Lacour يعارض ادعاءات البرتغال وإن فرنسا لن تعترف بالمعاهدة لو وقعت بين الطرفين ، كذلك أثارت المعاهدة بلجيكا فقد أدركت أن المعاهدة تمهيدا لسيطرة بريطانيا على المنطقة ، واعترضت الولايات المتحدة الأمريكية على المعاهدة ، أما إيطاليا وأسبانيا فلم تعترضا لأن لم تكن لهما مصالح في الكونغو (٦٨) وواصلت فرنسا ضغطها على الحكومة البريطانية واتخذت من المسألة المصرية واحتلال بريطانيا لمصر وسيلة للضغط وقدم جول فرى احتجاجا على المعاهدة في مذكرة رفعها الى الحكومة البريطانية في ١٣ مارس ١٨٨٤ • وقد اقتنعت بريطانيا في نهاية الأمر بضرورة تخليها عن المعاهدة لأن دول أوروبا أيضا لوحت لها بالمسألة المصرية (٦٩) •

أصبح واضحا أن الخلاف بين فرنسا وبلجيكا على الكونغو لا بد من حله عن طريق مؤتمر دولي وذكر السياسي البلجيكي اميل باننج أن المسألة الأفريقية برمتها هي الشغل الشاغل للدول الأوروبية (٧٠) وقد سعى بسمارك لعقد مؤتمر برلين لحل مشكلة الكونغو وكان المؤتمر محاولة منه ومن جول فرى وزير خارجية فرنسا لاستخدام الطرق الدبلوماسية لاقتطاع القارة • وحضر المؤتمر الدول الأوروبية المعنية بالقارة ولعب بسمارك دورا هاما في الموازنة بين هذه الدول (٧١)

(٦٧) شوقي الجمل المرجع السابق ص ٢٩٩ •

(68) Anstey, : op. cit p. 161.

(69) Robinson, R : op. cit p. 172 — 175.

(٧٠) شوقي الجمل المرجع السابق ص ٣٠٧ •

(71) Carrié,A : The Concert of Europe U. S. A. 1968 p. 310.

وإذا كان المؤتمر قد عقد أساسا لبحث مشكلة الكونغو إلا أنه مالمبث أن امتد ليشمّل عدة مشكلات وتم فيه التوصل الى اتفاقات هامة تلتزم بها الدول الأوروبية (٧٢) على أن أهم ما أسفر عنه المؤتمر هو أن الدول الأوروبية تكتلت ضد الاتفاق البريطاني البرتغالي ، اذ أدركت أن بريطانيا تريد اعطاء الكونغو للبرتغال كخطوة تمهيدية لتصفية ممتلكاتها ووضع يدها عليها • كما اعترفت الدول الأوروبية بدولة الكونغو الحرة (٧٣) •

سعت فرنسا لتحديد الحدود بين دولة الكونغو الحرة وبين مناطق نفوذها على الضفة اليمنى للنهر فدارت المفاوضات بين الدولتين الى أن تم فى النهاية تحديد الحدود فيما بينهما • وقد أرسل رئيس الهيئة الدولية للكونغو الى وزير خارجية فرنسا يؤكد تمسك الهيئة ببعض المناطق مثل وادى Niadi - Quillou ولكن بعد عدة مراسلات بين رئيس الهيئة الدولية للكونغو Strauch وجول فرى قرر الطرفان ضرورة تبادل المذكرات فيما بينهما تمهيدا لتحديد الحدود (٧٤) •

تم الاتفاق بين فرنسا والهيئة الدولية على اعتبار الفواصل الطبيعية حدا وخطا للفصل بين ممتلكات كل منهما • كذلك تم تكوين

(٧٢) جياذ اقليم الكونغو — حرية الملاحة فيه — حرية الملاحة والتجارة فى حوض الكونغو والنيجر وكل الأمم — عدم فرض أية دولة حماية على المناطق الساحلية دوات أن تعلن ذلك للدول الأخرى — عدم اعلان الحماية — دون أن تكون مؤيدة بامتلاك فعلى •

(٧٣) شوقى الجمل : المرجع السابق ص ٣٠٣ •

(74) Hertslet, E. The Map of Africa by treaty vol II p. 562. No. 151 exchange of notes between the Congo Free state and France, respecting the right of preemption of France over the territory of the Congo free State April - May 1884.

لجنة للقيام بعملية تحديد الحدود ، وطالب الجانب البلجيكي بضرورة اعتراف فرنسا بعلم الهيئة الدولية للكونغو وتم توقيع الاتفاق في ١٢ مارس ١٨٨٥ (٧٥) •

ورغم هذه الاتفاقات الا انه حدث خلاف بين الدولتين بشأن اقليم مايونجا Mayonga كاد أن يؤدي الى توتر الموقف بينهما ، ولكن أمكن التوصل الى اتفاق بشأن تحديد الحدود في هذا الاقليم وذلك في ٢٢ نوفمبر ١٨٨٥ • وبذلك تم حصر الخلاف فيما بينهما (٧٦) •

على أن أهم اتفاق عقد بين الجانبين كان معاهدة ٢٩ أبريل ١٨٨٧ تعهدت فيها دولة الكونغو الحرة على أن يكون نهر الاوبانجى وهو فرع من فروع الكونغو الغربى هو الحد الفاصل بين الحدود الفرنسية وحدود دولة الكونغو الحرة واعتبرت المنطقة الواقعة شمال الاوبانجى تابعة لفرنسا ، والمنطقة الواقعة جنوبه تابعة لدولة الكونغو الحرة ، كذلك تعهدت دولة الكونغو الحرة بعدم التدخل فى الشؤون السياسية للصفة الشمالية للاوبانجى وتعهدت فرنسا أيضا من جانبها بعدم التدخل فى أى عمل سياسى فى الضفة الجنوبية للاوبانجى (٧٧) •

ومن المعروف أن الملك ليوبولد تنازل عن جميع حقوقه فى دولة

(75) Ibid p. 564 No. 152. Convention between the government of the French republic and the international Association of the Congo, Paris 5 February 1885.

(76) Ibid p. 561 No. 154. protocol defining the boundaries between the Congo free state and the French possession in the region of Manyanga 22 Nov. 1885.

(77) Ibid p. 568 No. 156. Protocol defining the boundaries between the Congo Free State and the French possession in the oubangui region Bruxelles 29 April. 1887.

الكونغو الحرة وأعلن تسليمه لبلجيكا بعد وفاته * وقد أثار ذلك مخاوف الحكومة الفرنسية فطلب وزير الخارجية الفرنسي ريبو من بورية السفير الفرنسي في بروكسل في ١٢ يوليو ١٨٩٠ ، أن يؤكد على الحكومة البلجيكية أنه في حالة تسلمها دولة الكونغو الحرة بعد وفاة ليوبولد ، عليها الالتزام بالاتفاقيات المعقودة بين الطرفين ١٨٨٤ ، ١٨٨٥ بخصوص تحديد الحدود بينهما ^(٧٨) وقد أكدت الحكومة البلجيكية كذلك أكد رئيس الهيئة الدولية Strauch للسفير الفرنسي التزام الهيئة والحكومة بالمعاهدات السابق عقدها بين الطرفين ^(٧٩) وأعلنت الحكومة البلجيكية بأنها تريد وتسعى لحسن الجوار مع فرنسا في الكونغو فهما في أوروبا دولتان متجاورتان ولذلك فمن الضروري أن تتسم علاقات الدولتين في افريقيا أيضا بالتفاهم وحسن الجوار ^(٨٠) *

وإذا كانت فرنسا قد سعت لتسوية حدودها مع بلجيكا فانها سعت أيضا لتسوية حدود الكونغو الفرنسي مع البرتغال فعقدت اتفاق في ١٧ مايو ١٨٨٥ لتحديد الحدود الشرقية للكونغو بين كابندا البرتغالية والكونغو تنازلت فيه البرتغال عن الضفة اليمنى عند Chiloango ^(٨١) *

(78) Documents Diplomatiques Francais 1er serie tome VIII. M. Ribot Ministre des Affaires étrangères à M. Boureé Ministre de France à Bruxelles. Paris 12 Juillet 1890 DNO 21 p. 149.

(79) D. D. F. 1er serie tome VIII. M. Ribot à M. Bourée: Ministre de France à Bruxelles paris 18 Juillet 1890 T p. 161.

(80) D. D. F. 1er serie tome VIII. M. Beernaert, président du conseil de Belgique à M. Bourée, Ministre de France à Bruselles, Bruxelles 29, Juillet 1890 No. 128 p. 178.

(81) Hanotaux, op. cit. p. 424 .

كذلك عقدت فرنسا مع ألمانيا اتفاقا فى ٢٤ ديسمبر ١٨٨٥ لتحديد الحدود بين الكونغو الفرنسى والكاميرون الألمانى (٨٢) ورغم توقيع هذا الاتفاق الا أن الألمان عملوا على مد نفوذهم من الكاميرون صوب حدود الكونغو الفرنسى ونجح ناخيتيجال الألمانى فى رفع العلم الألمانى على مدينة دوالا على الساحل قرب مصب نهر سنجا وهو من روافد الكونغو وأعلن بسط الحماية الألمانية على هذه الجهات فاندلع خلاف حاد بين الدولتين على أساس أن الفرنسيين عقدوا فى منطقة سنجا العديد من معاهدات الحماية مع الزعماء المحليين وظل الخلاف قائما بين الدولتين حتى بدأت فرنسا تتجه لمد نفوذها على مراكش فى شمال أفريقيا فوقفت ألمانيا فى وجهه الأطماع الفرنسية وتمثل ذلك فى حادثة أغادير الشهيرة ١٩١١ ولكن توصلت الدولتان فى النهاية الى اتفاق وافقت فيه ألمانيا على اطلاق يد فرنسا فى مراكش فى مقابل تنازل فرنسا لألمانيا عن بعض الأراضى وبموجب اتفاق ١٩١١ - ١٩١٢ وسعت ألمانيا مستعمرتها فى الكمرون شرقا فوصلت الى نهر أوبانجى والساحل الشمالى للجابون وضمت بذلك حوض نهر سنجا وهو طريق مائى ورافد من روافد الكونغو الهامة وبذلك وضعت ألمانيا يدها على منطقة غنية فى افريقيا الاستوائية الفرنسية (٨٣) .

أما الاقليم الثالث الذى سعت فرنسا لدعم سيطرتها عليه فهو اقليم أوبانجى - تشارى (افريقيا الوسطى حاليا) . والواقع أن اهتمام دى برازا بكشف روافد الكونغو هو الذى أدى الى الكشف عن منطقة أوبانجى تشارى فقد اهتم الفرنسيون بالكشف عن نهر سنجا ، وهو من روافد الكونغو اليمنى يصب بالقرب من الاوبانجى أمام منطقة اليما بدلتا كبيرة ، وقد أد اكتشاف دى برازا لهذا

(82) Ibid p. 427.

(٨٣) شوقى الجمل المرجع السابق ص ٤١١ .

الرافد الى اثاره فضوله للتقدم شمالا واكتشاف المنطقة ، فوصل الفرنسيون الى اقليم كبير مجهول بالنسبة اليهم يقع بين تشاد فى الشمال والأوبانجى فى الجنوب وشارى فى الشرق والكاميرون فى الغرب (٨٤) .

وقد أصبح اقليم أوبانجى — تشارى ضمن أقاليم افريقية الاستوائية منذ عام ١٨٩٤ وأقرب طريق له الى البحر عن طريق الكاميرون ، ويجرى فى الاقليم أعلى نهر شارى ، وروافده العديدة التى تتبع من خط تقسيم المياه بين النيل والكونغو وتصب هذه الروافد فى نهر الأوبانجى (٨٥) .

وجدير بالذكر أن هذا الاقليم بحكم موقعه بين تشاد والسودان والكونغو والكاميرون كان ملتقى الهجرات ، كما أنه تبع الممالك الاسلامية التى ظهرت فى المنطقة فخضعت أجزاءها الشمالية والشمالية الشرقية للممالك الاسلامية التى قامت فى منطقة تشاد وفى غرب السودان ، كما وصل اليه الدعاة السنوسين قادمين من ليبيا (٨٦) .

اهتم دى برازا بارسال البعثات الكشفية الى منطقة أوبانجى تشارى ، وفى عام ١٨٨٩ تم بناء ميناء بانجى على الضفة اليمنى لنهر الأوبانجى ، وعمل دى برازا على فتح الطريق بين الاقليم وتشاد ، وساعده على تحقيق هدفه أن لجنة افريقيا الفرنسية التى تكونت فى باريس ١٨٩٠ ، عملت على ارسال المكتشفين الى المنطقة وخصصت

(84) Hanotaux, op. cit p. 482.

(٨٥) شوقى الجمل : المرجع السابق ص ٤١١

(٨٦) د. اسماعيل ياغى تاريخ العالم الاسلامى الحديث والمعاصر (قارة افريقيا) طبعة الرياض ج ٢ ، ص ٢٣٢ .

ميزانية لهذا الغرض — وفى عام ١٨٩٠ توغل كرامبل من بانجى حتى دار الكوتى (٨٧) •

كذلك تجول القائد الفرنسى كلوزيل Clozel فى المنطقة حتى وصل الى حوض بحر سارا ، وقام فورنو Fourneau بالتجول فى المنطقة الواقعة من حوض نهر سنجا الى لييرفيل — أما كازمير Casimir فقد أرسل فى بعثة الى الأوبانجى فاتجه نحو الشمال الغربى ووقع معاهدة مع زعماء بحر سارا ثم وصل الى بنوى ويولا (٨٨) على أن كل تلك الجهود كللت بالنجاح عندما وقع دى برازا معاهدات حماية ١٨٩١ على المنطقة الواقعة شرق الأوبانجى وسنجا واعتبرت هذه المناطق تحت السيادة الفرنسية (٨٩) •

على أن أهم البعثات التى أرسلت الى المنطقة كانت بعثة ميزون الذى دعا الى ضرورة تدعيم الاتصال بالساحل الغربى الافريقى والكونغو الأوسط واكتشاف الأقاليم الداخلية (٩٠) وقد تجول ميزون بين بنوى وتشاد ووصل الى نهر سنجا فى ٢٩ يناير ١٨٩٢ وأعلن أنه يمكن ربط النيجر وبنوى وسنجا والكونغو الفرنسى وتحقيق الاتصال بينهم (٩١) •

والواقع أن تدعيم السيطرة الفرنسية على اقليم أوبانجى — تشارى لم يقابله مقاومة وطنية عنيفة أو مقاومة منظمة على نحو

(87) Geographical handbook series French Handbook Equatorial Africa and Cameroons 1942 p. 235,

(88) Geographical Hanbook : op. cit p. 236.

(89) Hanotaux : op. cit p. 491.

(90) Catherine : op. cit p. 332.

(91) Hanotaux: op. cit p. 488 .

ماحدث فى تشاد مثلا ، ولكن هذا لايغنى من وقوع بعض المصادمات بين القوى الوطنية والفرنسيين ، ففي عام ١٨٩٠ قتل الوطنيون قائد مركز بانجى ويدعى موسى Musy ، وفى عام ١٨٩٢ قتل القائد الفرنسى دى بوميراك De Poumayrac عند منطقة ابيرا Abira وهى أحد روافد نهر موبومو (٩٢) •

والواقع أن سيطرة فرنسا على هذا الاقليم لم تتم عن طريق غزو عسكرى كبير وحمولات عسكرية ، كما حدث فى تشاد أو فى معظم مناطق غرب افريقيا ، ولكن كان على فرنسا أن تخوض عدة معارك سياسية كبيرة مع الدول المنافسة لها فى المنطقة ، فعقدت عدة تسويات مع كل من المانيا وبلجيكا ليخلص لها الاقليم فى النهاية • فقد واجهت فرنسا خطورة تقدم الألمان فى المنطقة وخاصة من مستعمرتهم فى الكاميرون ووصلت البعثات الألمانية الى الأوبانجى وأسست المحطات والوكالات منذ عام ١٨٨٦ • وقد ساعد على نشاط هذه البعثات تأسيس لجنة افريقيا الألمانية فى برلين عام ١٨٨٥ والتي عملت على تشجيع كشف افريقيا • وقد رفع أعضاء اللجنة فى ١٩ يناير ١٨٨٦ مذكرة الى الحكومة الألمانية طالبوها بضرورة انشاء المراكز الألمانية على نهر الأوبانجى وتدعيم السيطرة الألمانية على المناطق المجاورة له وبسط السيادة الألمانية من الكاميرون حتى الأوبانجى • كذلك دعا الدكتور زنتجراف المكتشف الألمانى الى ضرورة تقدم المانيا من الكاميرون صوب المناطق الداخلية فى القارة وعدم الاكتفاء بالكاميرون فقط وانما ضم مزيد من الأراضى لألمانيا (٩٣) •

ولكن الحكومة الألمانية رفضت فى ذلك الوقت فكرة ارسال بعثات كشفية فى مناطق مجهولة لها تماما ، الا أن هذا الرفض لم

(92) Geographical Handbook : op. cit p. 236.

(93) Hanotaux : op. cit p. 483.

يمنع الحكام الألمان فى الكامبيرون من ارسال البعثات ، وفى عام ١٨٨٧ وصل كل من الكابتن Kund والملازم تابنبك Tappenbeck الى حوض الكونغو — وفى عام ١٨٨٩ تقدم مورجن Morgan نحو الشرق وفى الواقع أن هذه البعثات لم تحرز تقدما كبيرا فى المنطقة ولم يكن لها نتائج سياسية تذكر (٩٤) ♦

أرادت بريطانيا قطع الطريق على فرنسا ومنعها من الامتداد والتوسع من منطقة أوبانجى تشارى فعقدت فى ١٥ نوفمبر ١٨٩٣ اتفاقا مع المانيا حدد الحد الغربى لمستعمرة الكامبيرون سمح للألمان بالامتداد نحو تشاد (٩٥) ♦

وقد سبب ذلك حرجا لموقف فرنسا فقد حددت فرنسا حدود الكامبيرون الجنوبى مع المانيا وفقا لمعاهدة ٢٤ ديسمبر ١٨٨٥ ، ولكن ظل الحد الشرقى مفتوحا وان كانت المادة الرابعة من الاتفاق قد تضمنت بأن النفوذ الألمانى سوف لا يمتد شرقا أبعد من حوض نهر شارى ودارفور وكردفان وبحر الغزال ♦ ولذلك كان لابد أن تتوصل فرنسا لعقد اتفاق ثان مع المانيا لتحديد الحدود الشرقية لمستعمرة الكامبيرون ومنع الألمان من الامتداد والتوسع نحو الشرق وتهديد الأقاليم التى خضعت لفرنسا فتم توقيع اتفاق ١٥ مارس ١٨٩٤ الذى اعتبر نصرا كبيرا لفرنسا اذ أنه فى مقابل بعض الامتيازات البسيطة للألمان وافقوا على تحديد الحد الشرقى للكامبيرون مما ترك لفرنسا حرية التوسع فى الشمال حتى بحيرة تشاد وفى الشرق ♦ وقد أثار هذا الاتفاق غضب بريطانيا فحاولت الدس بين الألمان والفرنسيين ولكن دون جدوى فقد أرسلت الحكومة الفرنسية الكابتن مونتي الى

(94) Ibid p. 484.

(٩٥) على ابراهيم : أضواء على المنافسة الدولية فى أعالي النيل — القاهرة ص ١٩٥٩ ص ٢٠٢ .

برلين للتفاوض وسارت المحادثات فى جو ودى ، وفى ٤ فبراير تم التوصل الى الاتفاق الذى وقع فى ١٥ مارس ١٨٩٤ (٩٦) .

ولتدعيم السيطرة الفرنسية فى منطقة أوبانجى تشارى كان لابد من الوصول الى اتفاق مع بلجيكا أيضا نظرا لأطماعها فى المنطقة .

فقد أرسل دى برازا ليوتار فى أبريل ١٨٩٠ وكان قد قام بكشوف فى الجابون ليوطد النفوذ الفرنسى فى أعالي الأوبانجى والمنطقة المجاورة ولكى تكون هذه الأراضى مدخلا للفرنسيين الى النيل (٩٧) . وفى ٥ فبراير ١٨٩١ كتب دى برازا الى ليوتار بأنه لايد من العمل تجاه الشمال الشرقى والامتداد نحو أعالي النيل ولم يكن مع ليوتار سوى قوة صغيرة من الجنود السنغاليين (٩٨) . هذا فى الوقت الذى أبدى فيه الملك ليوبولد نشاطا كبيرا لمد نفوذه من الكونغو الى أعالي النيل . ولذلك أرسل قوة بلجيكية بقيادة فان كركهوفن وصلت فى أكتوبر ١٨٩٢ الى النيل عند ودلاى ، وصلت حملات البلجيكيين الى الشاطئ الأيمن لنهر أوى الذى يعتبر امتداد لنهر الأوبانجى (٩٩) . ولذلك فتحت فرنسا باب المفاوضات مع بلجيكا لتحديد النفوذ بين نهري ولى والموبومو وهما الفرعان اللذان يتفرع اليهما الأوبانجى فى أعاليه وفى النهاية عقدت اتفاقية اعترف فيها بأن يكون الحد هو نهر شنكو وخط عرض ٧ شمالا ، وفى مقابل هذا الامتياز يبدو أن ليوبولد كان موافقا على أن يقسم مع الفرنسيين المنطقة الواقعة على الجانب الغربى من النيل الأعلى حيث تحصل دولة الكونغو الحرة على المنطقة الواقعة فى الشمال حتى لادو ويترك الباقي للفرنسيين ورغم

(٩٦) على ابراهيم : المرجع السابق ص ١٠٢ .

(٩٧) شوقى الجمل : المرجع السابق ص ٥٠٩ .

(٩٨) على ابراهيم : المرجع السابق ص ٩٤ .

(٩٩) شوقى الجمل : المرجع السابق ص ٥٠٩ .

موافقة المسيو رينو وزير انخارجية الفرنسى على التسوية الا أنه رفضها بضغط من الفريق الاستعمارى فى مجلس النواب (١٠٠) .

ثم توتر الموقف بين الطرفين عندما عقدت حكومة الكونغو الحرة فى ١٢ مايو ١٨٩٣ اتفاقا مع بريطانيا سمحت فيها الأخيرة لبلجيكا بتأجير منطقة كبيرة من بحر الغزال تقع بين خطى ٣٠° ، ٢٥ شرقا خطى عرضى ١٠ ، ٤ شمالا — كذلك أجرت للملك ليوبولد ولدى الحياة المنطقة الواقعة على الشاطئ الأيسر للنيل عند ماهاجى على الشاطئ الغربى لبحيرة اليرت الى فاشودة وفى مقابل ذلك أجرت دولة الكونغو الحرة لبريطانيا شريطا من الأرض يمتد من بحيرة اليرت حتى بحيرة تنجانيقا ، أى انه يمتضى هذا الاتفاق تنازلت بريطانيا لدولة الكونغو الحرة عن نصف حوض الأوبانجى وكل بحر الغزال (١٠١) .

اعتبرت فرنسا الاتفاق البلجيكى البريطانى مناقضا للاتفاقات الدولية كما انه يعرض مصالح الفرنسيين فى منطقة الأوبانجى العليا للخطر كما أن فيه اعتداء على حقوق مصر السياسية والسيادة على بحر الغزال والمديرية الاستوائية وهددت فرنسا باستخدام القوة وأرسلت حملة بقيادة الكولونيل مونتي لطرد البلجيكين من الأوبانجى العليا (١٠٢) .

وفى الوقت نفسه لجأت فرنسا الى استخدام أسلوب الاحتجاج ضد كل من بلجيكا وبريطانيا وخاصة بعد تأكدها من توقيع الاتفاق السابق بين الطرفين وأنه أصبح سارى المفعول (١٠٣) كذلك حاولت

(١٠٠) على ابراهيم : المرجع السابق ص ٩٥ .

(١٠١) شوقى الجمل المرجع السابق ص ٥١١ .

(١٠٢) المرجع السابق ص ٥١٢ .

(103) D. D. F. 1er serie tome XI. M. Casimir - perier a M.

Bouéré, Ministre de France à Bruxelles DN 25 Urgent Paris 26 Mai

1894 p. 169.

فرنسا التقرب من المانيا فأرسل المسيو هربرت السفير الفرنسى فى برلين الى كازمير وزير الخارجية الفرنسى فى ٢٧ مايو ١٨٩٤ يخبره بضرورة مقاومة الاتفاق البريطانى البلجيكى ، مذكرا اياه بأن فرنسا والمانيا قد نجحتا من قبل فى الغاء المعاهدة البريطانية البرتغالية التى عقدت عام ١٨٨٤ وان الدولتين فى الوقت الحالى بإمكانهما الضغط على بلجيكا وبريطانيا لمنع تنفيذ اتفاق ١٢ مايو ١٨٩٣ (١٠٤) .

كذلك لم تكتف فرنسا بأغراء المانيا بالتحالف معها وانما وجهت انتقادا الى دولة الكونغو الحرة فأرسلت مذكرة الى الكونت دى جريل روجيه De Grelle - Rogier وكيل وزارة الشؤون الخارجية لدولة الكونغو الحرة نددت فيها بالاتفاق المعقود بين بريطانيا ودولة الكونغو الحرة ، وأكدت ضرورة تمسك دولة الكونغو الحرة بالاتفاقيات السابقة المعقودة بينها وبين فرنسا كما أوضحت المذكرة الوضع الدولى للاقاليم الواقعة فى حوض وأعالى النيل ودعت دولة الكونغو الحرة الى عدم نسيان هذا الوضع (١٠٥) .

وقد حرصت فرنسا على ارسال الاحتجاجات على المعاهدة المعقودة بين بريطانيا ودولة الكونغو الحرة الى لندن والى بروكسل (١٠٦) وأكدت بأن المنطقة التى سيتمتد اليها نفوذ بلجيكا انما

(104) Ibid M. Herbette Ambassadeur de France à Bruxelles à M. Casimir perier Ministre des Affaires étrangères Berlin 27 Mai 1894 DNo. 42.

(105) D. D. F. tome XI. Note remise a M. De Grelle - Rogier 27 Mai 1894 Bruxelles p. 180.

(106) Ibid M. Herbette Ambassadeur de France à Berlin à M. Casimir - Perier Ministre des Affaires étrangères Berlin 29 Mai 1894 T No. 78.

هى تعتبر أملاك تابعة للخديوى فى مصر وللدولة العثمانية (١٠٧) ♦

ولكن رغم كل هذا النشاط الدبلوماسى المكثف لفرنسا وسلسلة الاحتجاجات التى أرسلتها عن طريق سفرائها الى معظم عواصم الدول المعنية بالمنطقة الا أن السفير الفرنسى فى بروكسل أكد لحكومته بأن الملك ليوبولد لن يستطيع المضى قدما فى هذا الاتفاق فهو يعتمد على ثروته الخاصة وسوف يجد نفسه فى النهاية عاجزا عن مواصلة جهوده فى افريقيا وعن مواصلة ارسال البعثات والمستكشفين ، وان المستقبل لفرنسا لأن ليوبولد سيصل الى مرحلة لن يستطيع تخطيها ♦ ودعا السفير الفرنسى بلاده الى شن مزيد من الحملات فى الصحف ضد الملك ليوبولد شخصيا ♦ وبالفعل شنت الصحف الفرنسية سلسلة من الحملات ضد ليوبولد وشبهته بالقيصرة (١٠٨) ♦

والواقع أن الضغط الفرنسى قد أثمر فقد أصدرت بريطانيا بالاتفاق مع ليوبولد تصريحا فى يونيو ١٨٩٤ يتضمن الغاء المادة الثالثة من الاتفاق البريطانى البلجيكى يمتد من تنجانيقا حتى بحيرة الحرة شريط من الأرض لبريطانيا يمتد من تنجانيقا حتى بحيرة البرت (١٠٩) ومن أسباب معارضة فرنسا لهذا الاتفاق أنها أيقنت أنه ضمن مخططات الاستعمارى الكبير سيسل رودس لتربط شمال القارة بجنوبها وانه تمهيد لتحقيق هذا المشروع (١١٠) ♦

(107) Ibid M. Boureé Ministre de France à Bruxelles à M. Hanotaux ministre des affaires étrangères Bruxelles 31 Mai 1894 D. No. 12.

(108) Ibid M. Boureé, Ministre de France à Bruxelles à M. Casimir Ministre des Affaires étrangères Bruxelles 28 Mai 1894 DN. 11 très confidentiel.

(١٠٩) شوقى الجمل : المرجع السابق ص ٣٢٠ ♦

(110) D. D. F. tome XI M. D'estournelles chargé des affaires étrangères à Londres à M. Ribot Ministre des Affaires étrangères Londres 14 Avril 1891 D. No. 115.

وأخيرا عقد اتفاق ١٤ أغسطس ١٨٩٤ بين فرنسا ودولة الكونغو الحرة اعترفت بلجيكا بالنفوذ الفرنسي بين فرعى الأوبانجى موبومو وولى — وأن يكون لفرنسا حقوقا سياسية فى موبومو (١١١) وتنازل ليوبلد عن فكرة احتلال منطقة بحر الغزال ليبقى الميدان مفتحا أمام الفرنسيين ومن ناحية أخرى تركت فرنسا لدولة الكونغو الحرة استئجار منطقة اللادو (١١٢) .

على أن فرنسا حاولت الاستفادة فيما بعد من تواجدتها فى المنطقة لد نفوذها الى حوض النيل الا أن بريطانيا وقفت لها بالمرصاد وتمثل ذلك فى حادثة فاشودة الشهيرة ١٨٩٨ التى استتبعدت فيها فرنسا نهائيا من أعالى النيل ، كذلك فشلت فى ربط ممتلكاتها الواقعة فى غرب القارة بممتلكاتها فى شرق القارة . رغم المساعدات القيمة التى حصلت عليها حملة مارشان من لاجارد حاكم الصومال الفرنسى ومن الملك منليك ملك الحبشة (١١٣) وهكذا سيطرت فرنسا على اقليم أوبانجى تشارى بواسطة سلسلة من المعاهدات ولكنها رغم ذلك لم تنجح فى مد نفوذها منه الى منطقة أعالى النيل .

أما تشاد فهو الاقليم الرابع الذى وضعت فرنسا يدها عليه لتستكمل تكوين افريقيا الاستوائية الفرنسية ، كما أن تشاد كانت نهاية للتوسع الفرنسى وللحملات العسكرية القادمة من السنغال . وتميل أرض تشاد بشكل عام نحو الجنوب الغربى ، يدل على ذلك اتجاه المياه من مختلف الجهات نحو بحيرة تشاد التى أخذت البلاد اسمها وتتقاسم تشاد هذه البحيرة مع كل من النيجر ونيجيريا

(111) Hertslet, op. cit vol II. No. 157 Boundary Agreement between France and the congo free state 14 August 1894 p. 569.

(١١٢) على ابراهيم عبده : المرجع السابق ص ١١٥ .

(١١٣) شوقى الجمل — المرجع السابق ص ٥١٣ .

والكاميرون ، ويجرى فى تشاد كل من نهر تشارى الذى ينبع من
أفريقيا الوسطى ، كذلك نهر لوجون الذى شكل خط الحدود بينها
وبين الكاميرون (١١٤) .

ذكرنا من قبل أن التوسع الفرنسى فى الكونغو الأوسط ،
وأوبانجى تشارى ، والجابون اتسم الى حد ما بالهدوء النسبى اذا
ما قورن بحركات المقاومة الوطنية التى واجهتها فرنسا أثناء توسعها
فى غرب افريقيا وتكوين ما عرف بأفريقيا الغربية الفرنسية حيث
واجهت فرنسا مقاومة عنيفة وخاصة من قبل الممالك الاسلامية فى
هذه المناطق التى أعلن معظمها الجهاد ضد الفرنسيين ، ولعل
تشاد كانت الوحيدة ضمن أقاليم إفريقيا الاستوائية التى قدر لها
أن يظهر فيها حركة جهاد اسلامى شبيه بتلك التى ظهرت فى غرب افريقيا
فتميزت بذلك عن باقى أقاليم افريقيا الاستوائية وتزعم حركة الجهاد
ضد الفرنسيين فى تشاد رابح الزبير الذى كون دولة اسلامية فى
حوض نهر تشارى ونجح فى نشر الاسلام بين الجماعات الوثنية
فى المنطقة .

وقد ارتبط رابح الزبير بالسنوسيين وخاصة السيد محمد السيد
السنوسى وأبدى الطرفان كراهية شديدة للفرنسيين . وقد بدأت
العلاقة بين رابح والفرنسيين تتخذ طابع التوتر بعد أن أقدم على
قتل المكتشف الفرنسى بول كرامبل وذلك فى عام ١٨٩١ (١١٥) ثم
عمل رابح على توسيع نفوذه جنوب بحيرة تشاد فغزا أراضى الباجرمى
وأحكم الحصار حول مدينة مانهاغا الواقعة جنوبا ونجح رابح فى
السيطرة على عدة مقاطعات من دارفور ثم اتجه نحو الباجرمى

(١١٤) د. اسماعيل ياغى : المرجع السابق ص ١٩٦ .

(١١٥) سغد الدين الزبير : امبراطورية رابح الزبير — القاهرة ١٩٥٣
ص ٢٠ ، ٢١ .

واستطاع اخضاع سلطنة برنو لنفوذه وبذلك كون مملكة قوية واتخذ من دكوة جنوب بحيرة تشاد عاصمة له (١١٦) .

وخلال فترة توسع رابح الزبير كانت فرنسا على وشك اكمال توسعها في غرب افريقيا وامتد نفوذها شرقا وكان من الطبيعي أن يحدث صدام بين القوات الفرنسية الزاحفة شرقا وبين رابح الزبير وخاصة وأنه سبق وأن اتهم باغتيال الرحالة الفرنسي بول كرامبل كذلك اعتقل المكتشف الفرنسي دي بهاجل . على أن رابح نجح في ايقاع الهزيمة بالفرنسيين في أكثر من مرة وقيل أن الفرنسيين لجأوا الى الزبير رحمت ليستعمل نفوذه لدى رابح لايقف الحرب بينه وبينها وليطلب منه الانسحاب من برنو ولكن الزبير باشا رفض ذلك (١١٧) .

وجهت فرنسا ثلاث حملات للقضاء على رابح الزبير وذلك في عام ١٨٩٩ خرجت الأولى من السنغال والثانية من الجزائر والثالثة من الكونغو الفرنسية وكانت بقيادة اميل جنتي . وقد حققت الحملات الثلاث هدفها ونجحت في هزيمة رابح وقتله ولكنها حققت هدفا آخر هاما للفرنسيين وهو امكانية ربط المستعمرات الفرنسية في افريقيا في كل من الجزائر في الشمال والسنغال في غرب افريقيا والكونغو في افريقيا الاستوائية (١١٨) .

وجدير بالذكر أن المهدي في السودان حاول التحالف مع رابح وذلك في الفترة ما بين ١٨٨٢ — ١٨٨٥ فطلب منه الانضمام اليه ولكن رابح لم يستجب له ، على عكس موقف حكام نيجيريا فقد استجاب

(١١٦) د. اسماعيل ياغي : المرجع السابق ص ١٩٦ .

(١١٧) شوقي الجمل : المرجع السابق ص ٥٠١ .

(١١٨) اسماعيل ياغي : المرجع السابق .

البعض منهم للمهدى وقاموا بالرد على رسائله ومنهم هايتو حفيد عثمان وأن فوديو الذى تزوج بابنة رابح وحافظ على علاقته الطيبة معه حتى وفاته (١١٩) .

استمر فضل الله بن رابح الزبير فى مقاومة الفرنسيين فى تشاد وعندما حاولوا التفاوض معه رفض وقطع رؤوس مبعوثيهم ولكن لم يتمكن من الاستمرار فى النضال طويلا فقد قتل فى فوجبه (١٢٠) .

وهكذا ظلت القوات الفرنسية فى المنطقة تقاثل خلفاء رابح وأتباعه حتى عام ١٩٠٢ حين استقرت الأمور للفرنسيين على حدود برنو (١٢١) كذلك اصطدم الفرنسيون بالسونسيين فى شمال تشاد وكانوا على علاقة طيبة برابح الزبير كذلك كان لهم نفوذ على الطوارق فى اير وزندر مما أقلق السلطات الفرنسية ولذلك وجهت لهم الحملات خلال أعوام ١٩٠١ ، ١٩٠٢ حتى انسحبوا من المنطقة (١٢٢) .

وهكذا نلاحظ أن ماكاد القرن التاسع عشر يصل الى نهايته حتى كان الاحتلال الفرنسى لافريقيا الاستوائية قد أوشك على الاكتمال، وكان من الصعب على فرنسا أن تدعم سيطرتها على المنطقة بأكملها ولذلك ظهرت فكرة تجميع المستعمرات الفرنسية فى وحدة فيدرالية حتى تسهل عملية ادارتها والتحكم فيها فتكونت افريقيا الغربية الفرنسية وافريقيا الاستوائية كوحدتين فيدراليتين وتكون الاتحاد

(119) Forde, Daryll : Islam in tropical Africal Lond 1969 pp. 423 — 425 .

(١٢٠) لوثر وب ستودارد حاصر العالم الاسلامى — القاهرة ١٩٧١ ص ٣ ص ٦٤ .

(١٢١) شوقى الجمل : المرجع السابق ص ٥٠٢ .

(122) Hanotaux, G : op. cit p. 541.

ألفيدرالى من عدة وحدات تخضع كل منها لحاكم يخضع بدوره للحاكم العام فى الاتحاد ، ويمثل الأخير الجمهورية الفرنسية وهو المسئول أمام وزير المستعمرات (١٢٣) .

تكون اتحاد افريقيا الاستوائية الفرنسية بمقتضى عدة مراسيم فبمقتضى مرسوم ٤ أغسطس ١٨٦٠ تركزت ادارة الوكالات الفرنسية فى الجابون وساحل غينيا ، فى الجابون وتولى الادارة قواد البحرية الفرنسية . وفى ٢٤ يناير ١٨٨١ صدر مرسوم جعل ادارة ممتلكات فرنسا فى ساحل غينيا والجابون تحت قيادة قائد أعلى من البحرية الفرنسية حمل لقب القائد الأعلى للمنشآت الفرنسية فى خليج غينيا وعندما قام دى برازا برحلته الثالثة الى المنطقة حصل على لقب مفوض من الحكومة الفرنسية وفى ١٦ ديسمبر ١٨٨٣ قسمت المنشآت الفرنسية فى خليج غينيا الى قسمين الجابون ويتولى ادارته قائد يشرف على كوتونو ويورتونوفو (داهومى) والقسم الثانى من المنشآت الفرنسية فى جران بسام واسينى (ساحل العاج) وفى ٢٧ أبريل ١٨٨٦ صدر مرسوم أعطى لبرازا ادارة الجابون فعهد بدوره الى الملازم الفرنسى باليه Noel Ballay تولى ادارة المنطقة وفى ٢٩ يونيو ١٨٨٦ صدر مرسوم أعطى دى برازا لقب مفوض عام للحكومة وخوله ادارة المستعمرتين الجابون والكونغو ثم صدر مرسوم ١١ ديسمبر ١٨٨٨ وحد الجابون والكونغو ، فى ٣٠ أبريل ١٨٩١ أعطيت المنشآت الفرنسية فى المنطقة اسم الكونغو الفرنسى وكانت هذه الخطوة تمهيدا لانشاء اتحاد افريقيا الاستوائية الفرنسية الذى صدر مرسوم تكوينه فى عام ١٩١٠ (١٢٢) .

(١٢٣) عبد الملك عوده : السياسة والحكم فى افريقيا — القاهرة ١٩٥٩ ص ١٧٠ .

(124) Hanotaux, G : op. cit tome IV. p. 429 — 431 .

نلاحظ مما سبق أن فرنسا نجحت فى تحقيق هدفها فى افريقيا الاستوائية فدعمت سيطرتها على المنطقة ، ساعدها فى ذلك الظروف الدولية وخاصة بعد انعقاد مؤتمر برلين ، كذلك الظروف الداخلية التى مرت بها المنطقة ، حيث أننا لا نلمس مقاومة عنيفة ضد الفرنسيين ابان فترة توسعهم فى أقاليم الجابون والكونغو وأوبانجى تشارى ، ولكن نتضح لنا هذه المقاومة فى تشاد تلك المقاومة التى قادها رابح الزير وابنه فضل الله وربما يرجع السبب فى ذلك الى أن تشاد فيها أغلبية مسلمة تأثرت بحركات الجهاد التى ظهرت فى ممالك غرب افريقيا ابان فترة التوسع الفرنسى •

خاضت فرنسا عدة معارك سياسية مع الدول الأوروبية الطامعة فى المنطقة فعقدت سلسلة من المعاهدات مع كل من بلجيكا ، والمانيا، والبرتغال الى أن تمكنت من تحديد حدود أقاليمها لتخلص لها افريقيا الاستوائية ، ونجحت فى وضع يدها على مساحة كبيرة من الأراضى الا أنها أخفقت فى تحقيق حلمها التوسعى فى ربط ممتلكاتها فى غرب القارة بممتلكاتها فى شرقها على شكل حزام متصل من الأملاك الفرنسية ، أى أن يمتد النفوذ الفرنسى من السنغال فى غرب القارة حتى جيبوتى فى شرق القارة وذلك لأن بريطانيا كانت لها بلرصاد فلم تمكنها من أن تقطع ممتلكاتها فى القارة عرضيا • وتمثل ذلك فى حادثة فاشودة حيث أجبرت فرنسا على التوقف بفتوحاتها حتى تشاد، ولكن رغم ذلك نجحت فرنسا فى تحقيق سياستها التوسعية فى ربط ممتلكاتها فى شمال القارة بممتلكاتها فى افريقيا الاستوائية فامتدت الأملاك الفرنسية متصلة من البحر المتوسط حتى الكونغو •

وأخيرا اعتمدت فرنسا فى توسعها على أنصار التوسع وغلاة الاستعماريين أمثال دى برازا واميل جنتى وغيرهم ممن يؤمنون بضرورة تكوين امبراطورية فرنسية فيما وراء البحار •

أولا - المصادر :

(١) الوثائق :

١ — وثائق غير منشورة :

1 — Public Record Office

F O 403 / 4

٢ — وثائق منشورة :

1 — Documents Diplomatques Français 1er serie tome VIII. XI.

2 — Hertslet. Edward . The Map of Africa by treaty. London.
1894 vol. II.

ثانيا - المراجع العربية :

١ — د. اسماعيل ياغى : تاريخ العالم الاسلامى الحديث والمعاصر (قارة افريقيا) طبعة الرياض ١٩٨٣ ج ٢ .

٢ — زاهر رياض : الاستعمار الأوروبى لافريقيا فى العصر الحديث القاهرة ١٩٦٠ .

٣ — شوقى الجمل : تاريخ كشف افريقيا واستعمارها القاهرة ١٩٧١ .

٤ — صلاح العقاد : مغرب الاستعمار الفرنسى .

٥ — عبد العزيز نوار : التاريخ المعاصر أوروبا من الحرب البروسية الى الحرب العالمية الثانية ١٨٧١ — ١٩٤٥ — القاهرة ١٩٧٧ .

٦ — عبد العزيز نوار : التاريخ الحديث أوروبا منذ الثورة الفرنسية حتى الحرب الفرنسية البروسية (١٧٨٩ — ١٨٧١) القاهرة ١٩٨٥ .

٧ — عبد الملك عوده : السياسة والحكم فى افريقيا — القاهرة ١٩٥٩ .

٨ — على ابراهيم : أضواء على المنافسة الدولية في أعالي النيل القاهرة
١٩٥٩ .

٩ — لوثرروب ستودارد : حاصر العالم الاسلامى دار الفكر ١٩٧١ .

١٠ — محمد محمد حسنين : الاتحاد الفرنسى — الجماعة الفرنسية فيما
وراء البحار القاهرة ١٩٦٠ .

ثالثا - المراجع الأجنبية :

1 — Ajayi, J and Michael Crowder : History of West Africa Lond
1974 vol. II.

2 — Anene, Joseph : Africa in the Nineteenth and Twentieth
centuries ibadan 1966.

3 — Ansty, Roger : Britain and Congo in the Nineteenth century
Oxford 1962.

4 — Avise, Emmanuel . La cote D'ivoire paris 1951.

5 — Betts, R. : The Scramble for Africa U. S. A. 1966.

6 — Brunshwig, Henri : L'Avénement de L'Afrique Noirc Paris
1971.

7 — Carrié, René, A : The Concert of Europe U. S. A. 1968.

8 — Casttelein. A : The Congo State. Lond 1907.

9 — Eucher, Lp : Le Congo. Paris 1894.

10 — Fage, J : An introduction to the history of west Africa. Cam-
bridge 1959.

11 — Forde, Daryll : Islam in tropical Africa Lond 1969.

12 — Geographical handbook series. French Equatorial Africa and
Cameroons. Lond 1942.

- 13 — Hanotaux, Gabriel : Histoire des colonies Françaises et de
L'expansion de la France dans le monde. Paris 1929 tome IV.
- 14 — Hanotaux, G : Mon Temps. La troisième République. Gam-
betta Jules Ferry. Paris tome II.
- 15 — M. A. C. : Histoire complète des voyages et découverts en
Afrique Paris 1921.
- 16 — Robinson, Ronald and John Gallahar : Africa and the Vic-
torians N .Y. 1961.
- 17 — Thompson, Virginia : French west Africa Lond 1958.
- 18 — Vidrovitch. Catherine : Brazza et la possession du Congo
(1883 — 1885). Paris 1965.
- 19 — Williams Bary : Modern Africa 1972.

ج — دوائر المعارف :

- 1 — Cambridge history of Africa 1790 — 1870 .
Great Britain 1976. Vol. 5.